تزيين الأسواق في أخبار العشاق

لِلعَلَّامة الطبيب الضَّرير
داود الأنطاكي

الجزء الأول

الناشيء

الطبعة الثانية
١٩٨٦

دار ومكتبة الهلال

بيروت - حارة حريك - شارع المقداد
ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

الناشيء

تزيين الأسواق
في
أخبار العشّاق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هو داود بن عمر البصير الانطاكي نزيل القاهرة ودمشق وعدن وعمان الحكيم الطبيب المشهور رئيس الاطباء في زمانه شيخ العلوم الحكمية واعجوبة الدهر وقد طال في توصيفه أبوالمعالي الطالوي في سانحاته ثم قال وقد سألته عن مسقط رأسه ومشتعل نبراسه فقال أن مولدي بانطاكية وولدت بعارض ريح تحكم في الاعصاب يمنع قوائمي من حركة الانتصاب وكان والدي رئيس قرية سيدي حبيب النجار له كرم وخيم وطيب نجار فاتخذ قرب مزار سيدي حبيب رباطاً للواردن فيه حجرات للفقراء والمجاورين ورتب له رواتب وكنت أحمل كل يوم إلى صحن الرباط حتى حفظت القرآن ولقنت مقدمات تثقيف اللسان إلى أن نزل بساحة الرباط رجل من أفاضل العجم ذو قدر منيف يسمى بمحمد شريف فاستأذنه بعض المجاورين في القراءة عليه فابتدأ في بعض العلوم الإلهية فكنت اسابقه الده فلما رأى ما رأى مني استخبر ممن هنالك عني فأجبته ولم يكن غير الدمع سائلا ومجيباً فعند ذلك اصطنع لي دهناً مدني به في حر الشمس ولفني بلفافة من فرقي إلى قدمي

حتى كدت أفقد عن الحس وكرر ذلك فمشت الحرارة الغريزية فيّ كجريان الحمى في المفاصل ثم شد وثاقي وفصدني من عضدي وساقي فقمت بقدرة الواحد الأحد بنفسي لا بمعونة أحد ودخلت المنزل على والدي ففرح بي وضمني إلى صدره وسألني فحدثته بالقصة فذهب إلى الاستاذ ودخل حجرته وشكر سعيه وأجزل عطيته فقبل منه شكره واستعفاه بره ثم قرأت عليه المنطق واتبعته بالرياضي ثم اللغة اليونانية ثم سافر وانقطعت عنـا أخباره وخلت الديار من أهلها وأقفرت بتنكرها علي لانقلاب أبويَّ فكان ذاك داعية المهاجرة لديار مصر القاهرة فسافرت وهبطت مصر هبوط آدم من الجنة فوجدتها كما قال أبو الطيب ملاعب جنة غير أنها تنبو عن قبول الحكمة فيها طباع الرجـال نبوّ فتياتهم الحسان عن حيّ شيب القذال ينفر أحدهم عن كماله السرمد نفرة الظليم رأى الظلام فجود ثم تمثل بقول المتنبي

ما مقامي بدار نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمـة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

(وكان) إذا سئل عن شيء من الفنون الحكمية والطبيعية والرياضية أملى على السامع ما يبلغ الكراسة والكراستين وقد سأله رجل عن حقيقة النفس الانسانية فأملى عليه رسالة عظيمة في ذلك وله كثير من التآليف الكبيرة والرسائل كالتذكرة وكتاب البهجة والدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة وله رسالة في الحمام ألفها باسم الاستاذ البكري وشرح قصيدة النفس المشهورة للشيخ الرئيس ابن سيناء التي أولها

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تودد وتمنـع

(وله) منظومة في هذا المعنى تشعر باعتراضه فيهـا على الشيخ الرئيس وأولها

وبحر أنوار اليقين بحسنهـا فلوصل أو فصل تنوب كما أدعي

وكان كثيراً ما يتمثل بقصيدة الفاضل والفيلسوف الكامل أبي علي الحسين

ابن سطراء البغدادي التي خاطب بها الفلك وتشتمل على مباحث حكمية ومسائل فلسفية وهذا أولها مع أبيات منها

بربك أيها الفلك المـــدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مسيرك قل لنا أي شيء ففي افهامنا منه انبهار
وفيك نرى الفضاء فهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدركها البوار
وموج ذي المجرة أم فرند على لجج الدروع له أوار
وفيك الشمس رافعة شعاعا باجنحة قوادمهـا قصار

إلى آخر ما قال (وله) غاية المرام في تحرير المنظوم من الكلام ونزهة الأذهان في إصلاح الأبدان وزينة الطروس في أحكام العقول والنفوس والفية في الطب ونظم قانونجك وشرح عليه وله تآليف كثيرة لا نطيل بذكرها . ومن أعجب ما يحكى عنه في قوة معرفته بعلامات الامراض ما أخبرني به من أثق به بالقاهرة المعزية قال كان له حجرة بالمدرسة الظاهرية اتخذهـــا لاجتماعه بالناس ومداواة أصحاب الباس فورد عليه في بعض الأيام رجل من الأجناد جاهراً بالسلام فلما سمع سلامه عرف مرامه وقال أذهب فلا شفى الله لك علة ولا برد لك غلة تشرب الخمر وتفعل ذلك الأمر حتى يحدث لك هذا الداء وتأتي الضرير تروم منه الدواء ثم استتابه وشفاه من دائه بعد ما أشفاه وما فهم كنه علته إلا من تحرك شفته وعجائبه في هـــذا الباب لا تحصى وغرائبه لا تستقصى وإذا أردت تفاصيل أحواله ومعتقداته وأقواله فعليك بكاتب خلاصة الأثر المذكورة تجد أوصافه فيها مسطورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اطلع في بروج اعتدال القدود شموس المحاسن والجمال وأهلّ في منازل السعود بدور اللطائف والكمال وزين أغصان القدود برمان النهود ورياض الوجوه بنرجس اللحاظ وورد الخدود وألف بين ما نظم في الثغور وقلائد النحور وجعل تسريح الأبصار لذوي البصائر ولطافة الأفكار من أسباب الأفتتان بتأمل الحسان فنزلهم وان اختلفت أغراضهم منزلة الأغراض لرشق قسيّ الحواجب بسهام الألحاظ (نحمده) على تعديل أمزجة فرعها صحة التأمل في حسن التجمل وتصفية نفس لازمها الاستبصار والتبصر في الفرق بين الجهل والتعقل ونصلي ونسلم على من بعث ينهي النفس عن الهوى والإرشاد إلى طريق العدل والاستوا والأمر باعلاء العقل على النفس وقهر شهوات الجسم وتقييد مدارك الحس فحث على تهذيب النفس الابيةعنالرذائل الدنيئة سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه المتخلقين باكرم الأخلاق والأوصاف وأجمل اللطافة والعفاف ما نضرت الحدائق ونظرت الحدق وتأنق المفلق وتألق الفلق .

(وبعد) فلما دل تنويع أصل الإيجاد وتفريع عالم السكون والفساد مع قدرة الموجد على جعل ما أوجد من أصل واحد على سأم النفس من ملازمة الشيء الواحد في كل حال واستراحتها في اختلاف الاطوار بالنظر والانتقال وكان أعظم مطلوب منها تحصيل العلوم التي هي سبب السعادة الدينية وتشييد المباني الشرعية وجب إسعافها بالمفاكهات الانيقة والاخبار

اللطيفة الرشيقة لتنشط من عقال التعب وتستريح فتعود إلى المطلوب منها خفيفة من كل الوصب والنصب وذلك هو العلوم الادبية كالتواريخ والاخبار ولطائف الحكايات والاشعار ولما منّ الله تعالى عليّ بعد تحرير العلوم العقلية وتهذيب النفس بالدائق الحكمية بالهجرة إلى الديار المصرية فمثلت بها بين يدي الاماثل وخدمت من سما فيها من أرباب الفضائل منّ أيضاً سبحانه وتعالى كجاري عوائده السنية بتحصيل ما أمكن من العلوم الشرعية بيد أني رميت في خلال الاشتغال بما شوّش الفكر وغير البال وهيج أليم البلبال

من هموم وحاجة واغتراب	كدرت مني القوى النفسيه
فهي في كل ساعة في ازدياد	غبت منه عن مدرك الحميه
فأنا وهي في التلازم صرنا	كالهيولي والصورة الجنسيه

لا أجد من يفرج الكرب إذا شكوت اليه ولا من أعوّل إذا ضاق الأمر عليه كان الزمان كما قيل

ففي المساوي يد التساوي	فلا معين ولا معين

فغيرت ذلك ادراكي الثاقب فقصرت عن بلوغ المآرب فأعملت الحيلة فيما به أريح النفس وأنفي اللبس في الفكر بعد طول التعب ان امتطى غارب الادب فارست من الاصحاب من هوله كالعناصر فمال اليه ذهني الفاتر فشرعت في جمع شيء في محاسنه المختلفة وضمها بحيث تكون في الجنس وان اختلفت بالنوع مؤتلفة فكان أول ما سطرته وأحكمت قواعده وحررته طبقات ذكرت فيها أخبار الحكماء ولطائف الاطباء ثم لم أزل أجيل النظر في مجاميع مختلفة إلى أن وقع اختياري على اختصار الأشواق المأخوذ من مصارع العشاق المنسوب إلى أبي بكر محمد بن جعفر البغدادي السراج رحمه الله فانه وان كان قد جمع فيه بين جد القول وهزله وظرائف نكت العشق وأهله ورقيق اللفظ وجزله إذ هو صنيعة وحيد زمانه ورئيس أقرانه وواحد عصره ونادرة دهره مولانا أبي الحسن ابراهيم بن حسن بن عمر الرباط الشهير بالبقاعي تغمده الله برضوانه وأسكنه فسيح جنانه إلا أنه كتاب طال في غير طائل وجمع ما لا حاجة

بهذه الصناعة اليه من المسائل كذكر الاسانيد والتكرار الذي هو شأن الاحاديث النبوية لتوثيق الاحكام الدينية وكالإخلال بمحاسن الاخبار ولطائف الاشعار التي هي بهذا الفن أعلق من الجوى بأهل الهوى وعدم الترتيب المستلزم لاختلال التهذيب وكالاعراض عن ذكر غالب أسباب وقوع بعض العشاق في شرك الحب إلى غير ذلك مما يظهر لمتأمل كتابنا مع أصله إذا طرح الهوى وانتظم في سلك الانصاف وأهله فألفت هذا الكتاب الذي هو في قلادة هذا الفن درة بيضاء وفي جبهـــة جواده غرة غراء أكملت فيه فوائده ورددت شوارده وأضفت ما نبذه ظهريا ولم آت شيافريا فزاد على أصله بامور إثني عشر أحدها وهو الاعظم تبديل مــــا في الباب العاشر الذي سماه بالشارع الجامع لما في المصارع بما هو خليق بهذا الاسم وجدير بهذا الرسم ضمنته ما حل ممـا تقدمه محل الاصول من الفروع كجعلك الغيرة أصلاً لنحو حكاية ديك الجن وكتم الاسرار لنحو صاحب الجـــارية في عرفة وتأمل الخيـال لنحو من عشق في نومه إلى غير ذلك وجمعت فيه ديوان الصبابة وغيره وهو نمط مـا بسط قبل وثانيها حسن التقسيم في الابواب وثالثها لطف الترتيب وضم الانواع المتماثلة ورابعها حذف الاسانيد والتكرار مع ذكر مــا اختلف باشارات كان وقيل وخامسها ذكر السبب الموقع لصاحب الحكاية فيها وسادسها تميز من جهل شيء من أحواله ممن علم بسائر أقواله وأفعاله وسابعها تفصيل من علق الاحرار من أهل الرق والمسلمين من أهل الشرك وأمثال ذلك من قـــديم ومحدث وثامنها ذكر ما في الاصل من الالفاظ اللغوية مفسراً ذلك بازائـــه مبدلاً ذلك باوضح منه وتاسعها شرح ما في الاشعار من الغريب وعاشرهـــا تعليل الاسباب المتعلقة بهذا الفن بالعلل الحكمية مأخوذاً من الاصول والادلة الفلسفية والقواعد الطبية وحادي عشرها ذكر تعلق هذا الفن بانواع المواليد الثلاثة وكيفية دخوله فيها وثاني عشرها الزيادات في الابواب فربما كانت أنواعاً مستقلة وتكميلاً لما وجد بعضه في الجملة وربما زاد عليه باشياء غير المذكورة في مطاوي معانيه فترعن استحضارها الذهن هنا كل ذلك مما استخرجه فكري القاصر وذهني الفاتر أو ظفرت به في كتب ربما أسمى بعضها فيه هذا كله مع

إني والله لم أخل في يوم من أيام عمله في مشوّش طارىء على ما عندي مما سبقت الاشارة إلى ذكره ولما كمل واتسق وانتظم في أكمل نسق (سميته) بتزيين الاسواق بتفصيل أشواق العشاق ورتبته على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة والله المسؤول أن ينفع به فيما قصد بترتيبه وأن يوفقنا إلى أصح القول وتهذيبه أنه أكرم من أعطى المراد وسئل فجاد (فالمقدمة) فيما جاء فيه من الاخبار والآثار ويلي ذلك أربعة فصول الأول في الترغيب فيه والثاني في رسمه والثالث في مراتبه والرابع في علاماته

(والباب الاول) في مصارع محبي الله تعالى وفيه فصل ميزنا فيه من قتله التذكر بنحو سماع آية

(والباب الثاني) في عشاق الجواري وهو ستة أقسام الاول فيمن اشتهر الثاني فيمن جهل الثالث في عشاق الاماء الرابع فيمن حظي بالتلاق بعد تجرع كأس من الفراق الخامس فيمن وسموا بالفساق من العشاق السادس فيمن نكث الصحبة وحل عقد المحبة وفي كل قسم أصناف وأنواع بحسب ما احتمله المقام من صحة الانقسام

(والباب الثالث) في عشاق الغلمان وهو أربعة أقسام الاول فيمن استلب الهوى نفسه الثاني فيمن جهل حاله الثالث فيمن ظفر بمطلوبه الرابع فيمن منعه الزهد والعبادة أن يقضي مراده والحقت ذلك بخاتمة تشتمل على ذكر الدوا للسلوّ عن الهوى

(والباب الرابع) في ذكر دخول العشق فيما سوى البشر وهو نوعان الاول في الجن والثاني في الحيوان والنبات والمعدن والعناصر والأفلاك

(والباب الخامس) قد اشتمل على فصول كل فصل منها قد احتوى على النكت والعجائب واللطائف والغرائب من أصول هذه الصناعة وقد ألزمت نفسي أن أفتتح كل فصل منه بكلام استاذ الحقيقة ورئيس أهل الطريقة مسكت كل لافظ ومبين ما في الطريق من القواطع والعوارض سيدي عمر بن الفارض غمرنا الله تعالى ببركاته وطيبنا بنفحاته متبعاً ذلك بما تيسر من حل

ألفاظه حسب ما سنح في الذهن ثم أقول بعد انتهاء متعلق الطريقة رجع إلى كلام المترسمين من أهل الظاهر واختم الفصل بما سمحت به القريحة الفاترة والفكرة القاصرة من لطائف النظم المناسب لما ذكر عن أهل الصناعة هنالك واتبعت الفصول بتتمة في لطائف الغزل الخاص والعام وتقسيم ذلك .

(وأما الخاتمة) ففي لطائف ونكت متفرقة لا التزم تعلقها بالعشق وبها يتم الكتاب

(المقدمة فيما جاء في الكتاب من الاحاديث والآثار وفي حده ومراتبه)

(أعلم) أن واهب الصور لما صدر عنه العقل كان أعظم صادر لقربه من الكمال الذاتي فالعود اليه وطلب القرب منه واجب على كل ذي نفس قدسية ومن ثم تطابقت الادوار شاهدة بذلك ويدل له عموم فقال له أقبل الحديث وعنه النفس الكلية ثم قسما الأجسام الفلكية والعنصرية كما هو في محله إلى أن كان أشرف النفوس وأرفعها على الاطلاق النفس الانسانية ولشبه الشيء باصوله كما هو واضح مقرر في محله بالبراهين انقسمت هذهالنفس باعتبار أصولها إلى ثلاثة أقسام أحدها النفوس المعدنية وهي الجامدة التي لا تعقل ما يراد منها ولا نعرف إلا ما تقوم به بنيتها ويصدر عنها وذلك أما بالخاصية أو بامر أودعه صانعها فيها لمصالح يعلمها ويشهد لذلك ما يشاهد من صور في الجبال والطين ونحوهما وثانيها النباتية وهي أرفع من الأولى باعتبار الذبول والتحلل الظاهر وثالثها الحيوانية وتفصل السابقة بالحركة الارادية والحساسية ونحوها من العوارض ثم كل واحدة من هذه الثلاث تنقسم باعتبار ما تشابه من النوع كانقسامه في نفسه وذلك كانقسام الأولى إلى ما يكون صافي الجوهر جيده كالياقوت والذهب والثانية إلى ما هو كثير النفع طيب الطعم والرائحة كالعنبر والعود والثالثة إلى ما هو صالح للنفع والزينة كالخيل وإلى شجاع كالأسد وخبيث كالنمر وحافظ للعهد كالكلب وقوّام على حفظ ما يستحفظ

كالقرد ونظائر ذلك ولما كانت النفس الانسانية زبدة الكائنات وخاتمة طرفي سلسلة العلل والمعلولات لا جرم كانت مقتدرة على أن تتبع شهوات الجسم وعوارض الكثيف فتكون حيوانية بحتة أو تعمل في خلاص النفس من ظلمة الطبيعة وقفص الجسم فتحلق بعالمها الاصلي وهي النفس الملكية المقرة بالمبدأ والمعاد المخلصة من محض الكثافة المنتظمة في سالك محض اللطافة أو تجمع بين الأمرين وتؤلف بين الطريقين وهـذه هي الانسان المطلق والاولى الحيواني والثانية الملكي فقد بان لك أن الإنسان منقسم كاصله ومميز بفعله ثم لا شبهة في انقسام كل كالمنتسب اليه ويكون كاله منزلاً عليه فالحكيم محتاج في اصلاح الاولى إلى ما يكون بمجرد حسن اللفظ والسياسة كالطيور أو بالضرب والاهانة كالدب والحمار وباطعام الطعام كالخيل والكلاب أو بالارسال والجدب والتحفظ من غدرها كالأسود والجمال والثانية وان تفاوتت مراتبها غنية عن الاصلاح إلا من قبل مبدعها والثالثة هي المحتاجة إلى العلاج وملاطفة المزاج والعشق الحقيقي لها غالباً لأنه تابع للامزجة ولأن عشق الملكي والحيواني بسيط إذ الأول يكون لمحض ذات واجب الوجود ومبـدع الفيض والجود والثاني لمحض قضاء شهوات الجسم الفاسدة الناشئة عن الفكر الجامدة إذا تقرر هذا فاعلم أن العشق بعد أن سمعت ما سمعت يختلف باختلاف المزاج على انحاء أربعة سريع التعلق والزوال كما في الصفراويين وعكسه كما في السوداويين وسريع التعلق بطيء الزوال كما في الدمويين وعكسه كما في البلغميين ومثل هذه مراتب الحفظ والنسيان وأما المعتدل فيكون العشق فيـه كذلك فعلى هذا يكون قولهم لكل أحد صبوة الأمن جفت خلقته أو نقصت بنيته أو خرجت عن الاعتدال امزجته محمولاً على الاعتـدال النسبي الذي إذا حصل لشخص كان به على ما ينبغي أن يكون عليه لا الحقيقي لعزة وجوده ولزوم ندور العشق حينئذ والواقع خلافه ثم هو متى وقع على مـا وصفناه أمكن حصول المزايا المذكورة فيه فقد قال الاستاذان أقـل مزاياه تعليم الكرم والشجاعة والنظافة وحسن الاخلاق وذلك ان غـاية مراد العاشق رضا معشوقه ورضا المعشوق يكون بانصاف العاشق بما يوجب المدح ويحسن المرتبة

في القلب فعلى ثبوت هاتين المقدمتين ينتج ما قلناه واللازم واقع فكذا الملزوم وبيان الملازمة ظاهر وايضاحه أن العاشق وان بخل جدا فلا يمكن بخله على المعشوق ومنه يتطرق الحال إلى من يعلم أنه متى بخل عليه أوصل الأمر إلى معشوقه وهكذا فيؤدي الحال إلى مطلق الكرم وكذا باقي السجايا المذكورة ولذلك جاء الناموس الشرعي بمطابقة القانون الحكمي كما هو شأن الشارع في غير هذا أيضاً ليكون التطابق بين الحكمة والشرع في كل شيء ولا عبرة بكلام بعض الأغبياء عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ من عشق فعف فمات دخل الجنة زاد الخطيب عنه فظفر ثم أبدل قوله دخل الجنة بقوله مات شهيداً وفي أخرى وكتم والحديث بسائر ما ذكر صححه مغلطاي وأعله البيهقي والجرجاني والحاكم في التاريخ بضعف سويد وتفرده به ورواه ابن الجوزي مرفوعاً وأبو محمد بن الحسين موقوفاً وأخرج الخطيب عن عائشة رفعه ايضاً وحاصل الأمر ما صححه أو حسنه والجواب عن تفرد سويد المنع بوروده عن غيره وحكايته تحديثاً وكونه قبل عماه فلا تدليس وإذ قد ثبت فهو شاهد بما قلناه لأن غاية الغايات دخول الجنة وهو مستلزم لرضا الله الذي لا مطلب أعلى منه وقد جعلت مقدمة هذا المطلب العالي العفة وهي مذهب الحكماء بل أساس الحكمة وهي كما صرح به المعلم ثمرة الأصل الطاهر لأن أعلى الخلق الرضا والمزاج المعتدل ومنها الكتم وهي ثمرة المروأة والشهامة وكلاهما مستلزم علو النفس وصحة المزاج فقد اتضح ما قلناه . وعن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ ان الله ليعجب من شاب لا صبوة له ووجهه الاعجاب القدرة على حكم زمام النفس وزجرها مع تركيب الشهية وتوفر الدواعي وما تكلفه في الأصل من أن المواد بالإعجاب أثره واضح لا يحتاج اليه لأنه وما شاكله من الرحمة التي هي رقة القلب لا تكون إلا لذي المزاج ولما علم بالضرورة تنزهه عن الأجسام والأعراض علم برؤه من لوازمها فما وقع مما يوهم شيئاً فالمراد لازمه ولصحة هذا الحديث واشتهاره بين الأكابر جاء تضمينه في أشعارهم كثيراً فمن ألطف ما قيل في ذلك قول ابن الصائغ

سأكتم ما ألقاه يا نور ناظري　　من الأجر كيلا يذهب الأجر باطلا
فقد جاءنا عن سيد الخلق أحمد　　ومن كان براً بالعبـــاد وواصلا
بأن الذي في الحب يكتم وجده　　يموت شهيداً في الفراديس نازلا
رواه سويد عن علي بن مسهر　　فما فيه من شك لمن كان عاقلا
وماذا كثيراً للذي مات مغرماً　　سقيماً عليلا بالهـــوى متشاغلا

(وألطف من ذلك) ما حكاه التـاج السبكي في الطبقات الكبرى عن أبي نواس قال مضيت الى باب أزهر والمحدثون ينتظرون خروجه فما كان إلا ان خرج وجعل يعظهم واحداً بعد واحد حتى التفت إلي فقال ما حاجتك فقلت

ولقـــد كنتم رويتم　　عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن المسيب　　ان سعد بن عباده
قال من مـــات محباً　　فـله أجر شهــاده

فقال أزهر نعم وذكر الحديث ولأبي نواس أيضاً

حدثنا الخفـــاف عن وائل　　وخالد الحـــذاء عن جابر
ومسعر عن بعض أصحابه　　يرفعـــه الشيخ الى عامر
وابن جريج عن سعيد وعن　　قتادة المـــاضي وعن غابر
قالوا جميعاً أيمـــا طفلة　　علقهـــا ذو خلق طاهر
فواصلته ثم دامت لـــه　　على وصال الحـافظ الذاكر
كانت لهـا الجنة مبذولة　　تمرح في مرتعهـــا الزاهر
وأي معشوق جفـا عاشقـاً　　بعد وصـــال ناعم ناضر
ففي عذاب الله مثوى له　　بعـداً له من ظالم غـادر

وفي رستاق الاتفاق في ملح شعراء الآفاق لابن المبارك الامام

حدثنا سفيان عن جـــابر　　عن خالد عن سهل الساعدي

يرفعه من مات عشقاً فقد استوجب الأجر من الماجد

(وأما) الآثار فكثيرة لا تكاد تحصى ولكن نورد ألطفها كما هو شأننا فمن ذلك ما روى عن المهدي قال أشتهي أن أصلي على جنازة عاشق مات في الحب وكان شريح يكثر الجلوس في الطرقات ويقول لعلي أرى صورة حسنة وكان ابن الليث قاضي مصر يكتب في فتيا فسمع جارية تقول

ترى في الحكومة يا سيدي على من تعشق أن يقتلا

فرمى القلم من يده وهو يقول لا وعن ابن عباس الهوى إله معبود فقيل له أتقول ذلك فقال نعم أليس الله تعالى يقول أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وقال العباس بن الأحنف

ويح المحبين ما أشقى جدودهم ان كان مثل الذي بي بالمحبينا
يشقون في هذه الدنيا بعشقهم لا يدركون بها دنيا ولا دينا
يرق قلبي لأهل العشق انهم إذا رأوني وما ألقى يرقونا

وله أيضاً

أيها النادب قوماً هلكوا صارت الأرض عليهم طبقا
أندب العشاق لا غيرهم إنما الهالك من قد عشقا

وأخرج ابن الحسين الجاذري عن معن بن عيسى قال دخل ابن سحنون على مالك فقال يا إمام اجعلني في حل من أبيات قلتها فيك فقال وقد ظن انه هجاه أنت في حل من ذلك فأنشد الأبيات بين يديه وهي

سلوا مالك المفتي عن اللهو والغنا وحب الحسان المعجبات الفوارك
ينبئكم إني مصاب وإنما أسلي هموم النفس عني بذلك
فهل في محب يكتم الحب والهوى أثام وهل في ضمة المتهالك

فضحك وقال لا ان شاء الله وأظرف من ذلك ما أخرجه أبو نعيم في الحلية عن الربيع بن سليمان قال دخل شاب على الشافعي برقعة فوقع فيها بعدما نظر وناوله إياها فتبعته على انها فتيا أكتبها فاذا هي

سل العالم المكي هل في تزاوره　　وضم لمشتاق الفؤاد جناح

فكتب تحته

أقول معاذ الله أن يذهب التقي　　تلاصق أكباد بهن جراح

فانكرت كتابته مثل هذا الشاب وذكرته له فقال انه هاشمي وقد دخل بعرسه في هذا الشهر يعني رمضان فسأل عن الضم والتقبيل هل يفسدان الصوم فقلت له لا قال الربيع فعاودته فاذا الأمر كذلك فعجبت من فراسته وحكى في الأصل عن ابن حجر قال أخرج أبو نعيم أيضاً عن ابن سيرين انهم كانوا يعشقون بلا ريبة وفي الطبقات الكبرى لابن السبكي وحكاه في الأصل متردداً قال كتب جلال الدولة الى أبي الطيب الطبري سؤالاً صورته

يا أيها العالم ماذا ترى　　في عاشق ذاب من الوجد
من حب ظبي أهيف أغيد　　سهل المحيا حسن القد
فهل ترى تقبيله جائزاً　　في النحر والعينين والخد
من غير ما فحش ولا ريبة　　بل بعناق جائز الحد
ان أنت لم تفت فاني إذاً　　أصيح من وجدي واستعدي

فأجابه

يا أيها السائل إني أرى　　تقبيلك العين مع الخد
يفضي الى ما بعده فاجتنب　　قبلته بالجد والجهد
فان من يرتع في روضة　　لا بد أن يجني من الورد
وان من تحسبه ناسكاً　　لا بد أن يغلب بالوجد
فاستشعر العفة واعص الهوى　　يسلم لك الدين معَ الود
تغنيك عنه كاعب ناهد　　تضمها بالملك والعقد
تملك منها كلما تشتهي　　من غير ما فحش ولا رد
هذا جوابي لقتيل الهوى　　فلا تكن بالحق تستعدي

وأخرج الخطيب البغدادي عن الغزي قال رأيت عـاشقين اجتمعا فتحدثا من اول الليل إلى الغداة ثم قاما إلى الصلاة وفي معناه أنشد العلامـــة محمود لنفسه وهو من لزوم ما لا يلزم

لله وقفة عـــاشقين تـــلاقيا   من بعد طول نوى وبعد مزار
يتعاطيان من الغرام مـــدامة   زادتها بعـــدا من الأوزار
صدقا الغرام فلم يمل طرف إلى   فحش ولا كف لحل ازار
فتلاقيا وتفرقا وكلاهما   لم يخش مطعن عائب أوزاري

ومنه ما حكى عن بعضهم قال حكت لي أمرأة عن شخص هويها وهويته أنه قال لها يوماً ها لك أن نحقق ما قيل فينا فقالت معاذ الله أن أفعل ذلك وأنا أقرأ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ الا المتقين وقيـــل لاعرابي ليلة تزويج محبوبته ايسرك أن تظفر بها قال نعم قيل فما كنت تصنع بها قال أطيع الحب في لثمها وأعصى الشيطان في اثمها

وعن الأصمعي قيل لإعرابي ما تصنع ان ظفرت بمحبوبتك قال امتع عيني من وجهها وسمعي من حديثها واستر منها ما يحرم كشفه إلا عند حله وانشد ابن القاسم في المعنى وان كان فيه بعد لانك تعتبر الحياء من الايمـــان اللازم للعفة وخوف الله تعالى

كم قد خلوت بمن أهوى فيمنعني   منه الحياء وقـد أودى بمعقولي
يأبى الحياء وشيبي أن ألم بـه   وخشية اللوم من قال ومن قيل

وأصرح منه في المقصود ما أنشده ابراهيم بن عرفة

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني   منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بـمن أهوى فيقنعني   منه الفكاهة والتحديث والنظر
أهوى الحسان وأهوى أن اجالسهم   وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحب لا اتيان معصية   لا خـير في لذة من بعدها سقر

وأخرج صاحب الأصل عن سعيد بن عقبة الهمذاني قال لإعرابي حضر مجلسه ممن الرجل قال من قوم إذا عشقوا ماتوا فقال عذري ورب الكعبة ثم سأله علة ذلك فقال لأن في نسائنا صباحة وفي فتياتنا عفة وأخرجه في الخليفيات أيضاً وفي معناه أنشد حرب

ما ان دعاني الهوى لفاحشة ألا عصاني الحياء والكرم
فلا إلى محرم مددت يدي ولا مشت بي لزلة قدم

هذا ما جاء في الآثار من العشق مع العفة وأما ما يدل على كثرة وقوعه واختصاص قوم بمزيد منه فكثير فمن ذلك ما أخرجه التنوخي عن عروة بن الزبير قال قلت لعذرى انكم أرق الناس قلوباً يريد أصباهم إلى الحب فقال نعم لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل ما بهم داء إلا الحب وقيل لشخص منهم مثله فقال كقوله وزاد لكن غلبتنا بنو عامر بجنونها وفي منازل الأحباب للشهاب محمود ليس حي أصدق في الحب من بني عذرة ولا نضرب الأمثال فيه إلا بهم وقال[٣] قلت يوماً أتعدون موتكم في الحب مزيةوهو من ضعف البنية ووهن العقدة وضيق الرئة فقال أما والله لو رأيتم المحاجر البلج ترشق بالعيون الدعج من تحت الحواجب الزج والشفاه السمر تبسم عن الثنايا الغر كأنها شذر الدر لجعلتموها اللات والعزى وتركتم الإسلام وراء ظهوركم (وعن) أبي عمرو بن العلاء قال استنطقت إعرابياً عند الكعبة واستنسبته لماذا هو فصيح عذري فسألته هل علقه الحب فأنبأ عن شدة ولوع فسألته ما قال في ذلك فأنشد

تتبعن مرمى الوحش حتى رميتنا من النبل لا بالطائشات المخاطف
ضعائف يقتلن الرجال بلا دم فيا عجبا للقاتلات الضعائف
وللعين ملهى في البلاد ولم يقد هوى النفس شيء كاقتياد الظرائف

---

(٣) في نسخة وقال فزاري .

وقال بعض حكماء الهند ما علق العشق بأحد عندنا الا وعزينا أهله فيه . وحكى الحافظ مغلطاي أن العشق يختلف باختلاف أصحابه فان الغرام أشد ما يكون مع الفراغ وتكرار التردد إلى المعشوق والعجز عن الوصول اليه فعلى هذا يكون أخف الناس عشقاً الملوك ثم من دونهم لاشتغالهم بتدبير الملك وقدرتهم على مرادهم ولكن قد يتذللون المحبوب لما في ذلك من مزيد اللذة كقول الحكم بن هشام

ظل من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
تركته جآذر القصر صبا ... مستهاماً على الصعيد تريكا
يجعل الخد واضعاً تحت ترب ... للذي يجعل الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل بالحرّ ... إذا كان في الهوى مملوكا

وقول الرشيد أيضاً

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطاني

وقال ابن الاحمر سلطان الاندلس

أيا ربة الخدر التي أذهبت نسكي ... على كل حال أنت لا بد لي منك
فأما بذل وهو أليق بالهوى ... وأما بعز وهو أليق بالملك

وقال ابن طاهر صاحب خراسان

فاني وان حنت اليك ضمائري ... فما قدر حبي أن يذل له قدري

ودونهم أفرغ لقلة الاشتغال حتى يكون المتفرغ له بالذات أهل البادية لعدم اشتغالهم بعوائق ومن ثم هم أكثر الناس موتا به ثم أعلم أن العشق متى استولى لم يبق صفة سواه ولذلك يذهب الأخلاق العسرة وقوة النفس وفي معنى ذلك أنشد بعضهم حيث قال في رسالة أرسلها إلى محبوبته

شكوت فقالت كل هـذا تبرم   بحبي أراح الله قلبك من حبـي
فلما كتمت الحب قالت لشد ما   صبرت وما هذا بفعل شجى القلب
وأدنو فتقصيني فأبعـد طالبا   رضاها فتعد التباعد من ذنبي
فشكواي يؤذيها وصبري يسوءها   وتجزع من بعدي وتنفر من قربي
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها   أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

ومنهم من تحمله الأنفة على أن يفارق بعد إظهار شدة شوق وقوة ميل وكذا شدة الإقبـال من المحبوب فيتوهم حيث تشيع نفسه أن الشوق لا يعاوده فيفارق ويعود ذلك عليه بتلف نفسه والحق أن ذلك كله مع عـدم التمكن وهو الموسوم بالاشراك والا فالصادق منـــه لا يرى وجوداً لسوى المحبوب ومن ثم طعن على من يرى الدنيا مثالاً لمحبوبــــه أو يظن وجوده ودونوا ما صدر عمن بدأ بالسلوان ثم ندم فمن ألطف ما قيل في ذلك قول الهذلي

ويمنعني من بعض إظهار ظلمهـا   إذا ظلمت يوماً وان كان لي عذر
مخافة أني قد علمت إذا بـدا   لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وإني لا أدري إذا النفس أشرفت   على هجرها ما يبلغن بي الهجر

وقال ابن الجهم

نوب الزمان كثيرة وأشدها   شمـل تحكم فيه يوم فراق
يا قلب لم عرضت نفسـك للهوى   أو ما رأيت مصارع العشاق

فصل في الترغيب في العشق والحث عليه

قيل ان بهرام جور لم يرزق سوى ولد فأخـــذ في ترشيحه للملك وهو ساقط الهمة إلى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيرهم على أن لا نافع له غير العشق فسلط عليه الجواري يعبثن به الى ان علق بواحدة منهن فأمرها الملك بالتجني عليه وانها لا تطلب الا رفيع الهمـة ذا رغبة في العلم والملك فكان بسبب ذلك من أجل ملوك الفرس وأعلمها وفي المعنى قال ابن الاحنف

وما الناس الا العاشقون ذوو الهوى ولا خـير فيمن لا يحب ويعشق

وقال بعضهم

وما سرني إني خليّ من الهوى ولو أن لي ما بين شرق إلى غرب

وقال ابن أبي كثير لابن أبي الزرقاء هل عشقت حتى تكاتب وتراسل فقال لا قال لن تفلح والله أبداً وأنشد الشعبي

إذا أنت لم تعشق ولم تدري ما الهوى فأنت وعـــير في الفـــلاة سواء

وعجزه غيره فقال

فكن حجراً من يابس الصخر جلدا

وأنشد ابن معاذ

ولا خير في الدنيا اذا أنت لم تزر خليلاً ولم ينظر اليـــك حبيب

وقالت امرأة فيه أيضاً

رأيت الهوي حلواً اذا اجتمع الشمل ومرا على الهجران لا بل هو القتل

ومن لم يـــذق للهجر طعماً فانـــه اذا ذاق طعم الحب لم يدر ما الوصل

وقد ذقت طعميه على القرب والنوي فأبعـــده قتل وأقربه خبـــل

(فصل في رسومه وحدوده وما جاء عن الحكماء وغيرهم في ذلك)

قال بعضهم العشق مجهول لا يعرف ومعروف لا يجهل هزله جـدّ وجدّه هزل وهذا في الحقيقة تعريف بالعوارض غير اللازمة واشارات إلى اختـلاف الحالات الكائنة عنه فان الجهل يعتري العشاق عند تزايد الحب فيوجب الحيرة في الأمر وعكسه عند انفصاله عن المخيلة والهزل مباديه والجد تمكنه ونحوه ما أجاب ابن اكتم به وقد سأله المأمون ما العشق فقال سوانح للمرء تؤثرها النفس ويهيم بها القلب فقال له ثمامة إنما شأنك أن تفتي في مسئلة طـلاق أو محرّم فقال المأمون قل يا ثمامة فقال العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب مالك وملك قاهر مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة وأحكامه جـــائرة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها وقياد ملكها وقوى تصرفها توارى على الأبصار مدخله وغمض في القلوب ملكه فقال له المأمون أحسنت يا ثمامـــة وأمر له بألف دينار

وفي رواية أنه قال له إذا امتزجت جواهر النفس بوصل المشاكلة نتجت لمح نور ساطع تستضيء به بواصر العقل ويتصور من ذلك اللوامح نور خاص بالنفس متصل بجواهرها يسمى عشقاً أقول وهذا تعريف له بحقائقــه ومواده الذاتية والأول تعريف بالعوارض والغايات وهذا بالحكمة أليق وإيضاحه نور البصر يوصل مـــا يدركه إلى المشترك وهو إلى الواهمة حتى يرتسم في القوة العاقلة المعروفة بالنفس الناطقة فقوله بوصل المشاكلة يريدان النظر الواقع عن تأمل عارف بتأمل المحاسن ودقائق لطيف الشمائل يوجب ارتسام أنوار في النفس تشبه الجواهر المجردة تزدوج بالنفس لاتحاد بينهما في اللطف والصفـــاء وهذا دليل على أن العشق لا يتصور من جاهل غليظ الطبع ووصفـه بعض البلغاء بانه فضيلة تنتج الحيلة وتشجع الجبان وتسخي كف البخيـل وتصفي ذهن الغبي وتطلق بالشعر لسان الأعجم وتبعث حزم العـاجز الضعيف وهو

عزيز يذل له عز الملوك وتضرع له صولة الشجاع وهو داعية للادب وأول باب تفتق به الأذهان والفطن ويستخرج به دقائق المكايد والحيل واليه تستريح الهمم وتسكن به فواتر الأخلاق والشيم يمتع جليسه ويؤنس أليفه وله سرور يجول في النفوس وفرح يسكن في القلوب وقال سعيد بن سالم وقد قيل له أن ابنك شرع في الرقيق من الشعر فقال دعوه ينظف ويلطف ويظرف يعني أنه يطلع من رقيق الشعر على أسرار البلغاء وليس أرق من الغزل ولا أدق لما فيه من تعلق العشق ومدح المحبوب وذلك يؤدي إلى ما ذكر فإن العاشق إذا علم ما يقربه إلى محبوبه بذل فيه إمكانه والظرافة واللطافة والنظافة أعظم مقرب فكأنه قال دعوه لعله يتصف بالعشق ولولا الحمل على ذلك لم يصلح سوق هذا هنا لأنه على ظاهره ترغيب في مطلق الشعر فليتأمل ونقل ابن خلكان في ترجمة العلاف ما ملخصه أن العشق جرعة من حياض الموت وبقعة من رياض الثكل لكنه لا يكون إلا عن أريحية في الطبع ولطافة في الشمائل وجود لا يتفق معه منع وميل لا ينفع فيه عذل وفي معنى شدة العشق أنشد المؤمل

شق المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر
يكفي المحبين في الدنيا عذابهم والله لا عذبتهم بعدها سقر

وعرفه أرسطو بأنه جهل عارض صادف قلباً فارغاً دق عن الافهام مسلكه وخفي عن الأبصار موضعه وحارت العقول في كيفية تمكنه غير ابتداء حركته وعظم سلطانه من القلب ثم يتفشى على سائر الأعضاء فيبدي الرعدة في الأطراف والصفرة في الأبدان واللجلجة في الكلام والضعف في الرأي والزلل والعثار حتى ينسب صاحبه إلى الجنون زادت إعرابية يذهب العقل وينحل الجسم ويهمل الدمع بجدوده مرور الأيام ولا تفسده بل لا تغيره إساءة المحبوب على الدوام ومن ثم قال الأصمعي وقد سأله الرشيد ما حقيقة العشق فقال أنه شيء يستغرق القلب في محاسن المحبوب ويذهله عن مساويه فيجد رائحة البصل من المحبوب أعظم من المسك والعنبر وتعاقب أمرأتان من أهل المدينة في الهوى فقالت إحداهما تعذل الأخرى ذكروا في الحكمة لا تلم من أساء بك الظن إذا جعلت نفسك غرضاً للتهمة ومن لم يكن عوناً على نفسه من

خصمه لم يكن عنده شيء من عقدة الرأي ومن قدم على الهوى وهو يعلم ما فيه من المتعبة سلط على نفسه لسان العذل وضيع الحزم فقالت المعدولة ليس الهوى إلى الرأي فيملكه ولا إلى العقل فيدركه أما سمعت قول الشاعر

ليس خطب الهوى بخطب يسير ... لا ينبئك عنه مثل خبير
ليس أمر الهوى يدبر بالرأ ... ي ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمر في الهوى خطرات ... محدثات الأمور بعد الأمور

وقيل هي لعلية بنت المهدي حكاه الصولي ووجد على صخرة العشق ملك غشوم مسلط ظلوم دانت له القلوب وانقادت له الألباب وخضعت له النفوس فالعقل أسيره والنظر رسوله واللحظ حامله والتفكر جاسوسه والشغف حاجبه والهيمان نائبه بحر مستقره غامض ويم تياره طافح وفائض وهو دقيق المسلك عسير المخرج وضرب بعض الحكماء مثلاً للشهوة والعشق فقال هما كالنحل يستميل القلوب بحلاوة عسله وربما قتل بسمعه وذلك لأن الإنسان أما ذو عقل ملكي يتعقل الأشياء فينزجر أو نفس شهوانية ترى اللذات فتنهمك ومن ثم إذا وقع عن صدق جعل المتحابين كنفس واحدة

حكي الغنوي قال دعيت إلى عيادة مريض أحبه آخر فدخلنا عليهما والمحب الصحيح يذب عنه فكان إذا شكا المريض شيئاً شكا الآخر مثله فقدر أن قضى ونحن عنده فحال مفارقة نفسه فارق الصحيح نفسه ومثله ما حكاه في ذيل الأمالي عن التميمي أن أخوين من أمرأة يقال لهما فضل وفضيل قضى أحدهما فلما دفن طأطأ الآخر ينظره فلما سوي عليه اللبن أنشد

سأبكيك لا مستقصياً فيض عبرة ... ولا مبتغ بالصبر عاقبة الصبر

ثم عاد فلزم المنزل حتى قضى من الغد

(فصل في بيان مراتبه وما ورد في كيفية ترقيه حتى يستولي على الحواس النفسية ويستغرق القوى الحسية ويملك العقل والبدن ويورث الذل والحن ويسهل الوقوع في المهالك ويغري على سلوك أوعر المسالك[1])

أعلم أنه ألطف موجود نشأ في الوجود كما حققناه وحيث هو كذلك فتعلقه لابد وأن يشاكله لاحتياج كل اثنين تألفا إلى نسبة تأليفية ولا شبهة أن الروح ألطف ما في البدن فلذلك كان العشق أول ما يتشبث بها فهذا دليل على أنه يقابل الأمراض كلها ومن ثم قال المعلم العشق نصف الامراض وشطر الأعراض وقسيم الأسقام وجل الآلام وهذا واضح لأن الروح ولا شك أن سريان اللطيف في اللطيف أسرع ملاكاً وأعظم استملاكاً ويليه اللطيف في الكثيف كالحمى في البدن ثم الكثيف في الكثيف كالفالج فيه فعلى هذا يتجه كلام المعلم بل أقول أن العشق غالب الأمراض وليست بالنسبة اليه إلا كالعشر إلى الكل والقطرة إلى البحر وبرهانه أن الأمراض غالباً تخص البدن وإنما اشتغال الروح حينئذ بالتدبير والأفهى في نفسها صحيحة وأما العشق فعاقبته إفساد البدن وتعطيل الفكر وإلحاق العقلاء بأهل الجنون ثم مرتبته الثانية تتولد عن تكرار نظر أو سماع خطاب يتعقل له في الذهن معنى يكون لحديد القلوب مغناطيساً جاذباً ولأنظارها السفسطية برهاناً غالباً ويسمى حينئذ العشق الحسي وقال فيثاغورس لا يسمى حسياً إلا إذا تولد عن مباشرة الحس وهذا عندي ليس بشرط وإن اشترط ففي حق البلداء من الناس ومن

---

(١) فهيج أشجان الفؤاد وما يدري .

في حواسهم الباطنة ضعف وإلا فاحد الحاستين الاصليتين كاف في إيصاله إلى الحس المشترك ثم مرتبته الثالثة الخيالية وهي عبارة عن استيعابه التخيل حتى لم يبق للعاشق تخيل إلا صورة المعشوق وإن شارك الناس في الأمور الظاهرة .

كانت تلك المشاركة غير تامة وعلاماتها غلبة السهو ونقص الأفعال والاحتياج إلى محرك باعث ثم مرتبته الرابعة مرتبة الحفظ وهي الاستيلاء على الاستيلاء على الحفظ فتصرف القوة عن تحصيل كل كال والنظر إلى كل جمال وهذا هو العشق الذي يرى صاحبه الميل إلى سوى المحبوب إشراكاً والفكر في غيره ضياعاً وأشغال الزمان بما سواه فساداً وخروجاً واليه أشار الفارضي بقوله

ولو خطرت لي في سواك إرادة   على خاطري سهواً قضيت بردتي

فتعبيره بالسهو إشارة إلى تقصي المراتب واستيفاء الشروط وكأنه يقول من المعلوم أن السهر لا يحدث إلا من كثرة الواردات ولم يبق على قلبي وارداً سواك فكيف أسهو ومن ثم أشار بعد ذلك إلى طرح المراد وإماطة العلائق واتحاد الطالب مع المطلوب وعدم الأثنينية بقوله

وكل الذي ترضاه والموت دونه   به أنا راض والصبابة أرضت

بعد أن كان قبل الوصول إلى هذه المرتبة قد أثبت لنفسه مراداً حيث قال

وعيدك لي وعد وإنجازه مني   وليّ بغير البعد أن يرم يثبت

ثم الخامسة مرتبة الاستغراق وهي استيلاء الاشتغال بالمحبوب على النفس الناطقة بأسرها وارتسام صورة المحبوب في مرآة العاقلة وحدها مع محو ما سواها وإلى ذلك أشار العارف المذكور بقوله

ولا غرو إن صلى الأنام إلى أن   ثوت بفؤادي فهي قبلة قبلتي

وقوله

ووجدي بها ما حيّ والفقد مثبتي

يعني إن وجدي الصحيح بالمحبوبة محاني أي صورتي التي كانت مع العالم الدنيوي فكأن فقدي لها هو الذي أثبتني وهذه المرتبة على الأصح من كلام كثير هي أول المراتب التي يقع ببلوغها اليأس من الانتفاع بالعلاج الذي ذكرته الأطباء كالنظر في الحساب والمحاورات وتذكر مساوىء المحبوب والنظر إلى أمثاله وما يقاربه إلى غير ذلك مما هو مقرر في مواضعه السادسة مرتبة الانقلاب وهي مرتبة ينقلب فيها أدراك العاشق في سائر آلاته فيصير إذا لمس الحجر أو ذاق الصبر أو سمع الإيذاء أو رأى شيئاً كالجيفة أو شم رائحتها فضلاً عن أضداد ذلك يعتقده المحبوب وربما تجرد عن صورته فشاهدها المحبوب واليه أشار بقوله

فلم تهوني ما لم تكن فيّ فانيا ولم تفن ما لم تجتلي فيك صورتي

وهذه المرتبة مع العناية والاخلاص تنقلب قدسية إذا كانت النفس الناطقة قبل ذلك قد تخلصت بالكمالات عن البهيمية وإلا ألحقت صاحبها بالحيوانات وعنها عبرت الأطباء بالمانيا والسرسام والسهر السباتي والماليخوليا

والسابعة مرتبة العدم الكلي والمفارقة الابدية وهي التي إذا بلغتها النفس لم تستقر في البدن وربما كانت مفارقتها بتذكر أو سماع ذكر أو تنفس صعداًء أوامر من المحبوب وحاصلها أن يصير الموت أعظم أمنية للنفس كما أشار اليه بقوله

فموتي بها وجدا حياة هنيئة وإن لم أمت بالحب عشت بغصتي
وقد صرت أرجو ما يخاف فاسعدي به روح ميت للحياة استعدت

إلى غير ذلك مما لو منح الله تعالى شخصاً مددا يستغرق المدد وحياة تستفرغ الأبد وفراغا يذر الشواغل سدى ونفحات قدسية تصقل مرآة عقله لقبوله الفيض أبدا وأفرغ ذلك كله في تحرير ما أودعه عارف الزمان وسلطان الآفاق وفرد دائرة الاكوان وجامع فضائل العشاق سيدي عمر بن الفارض أعاد الله علينا وعلى المسلمين من فواضل بركاته وفضائل نفحاته من مراتب

العشق وأدواره وتنقلاته وأطواره لفني الزمـــان ولم يدرك معشاره وبادت الأكوان ولم يعرف قراره ولولا ضيق هــذا المختصر لأوضحت لك من بعض عجائب تدقيقاته في أقل أبياته وكلماته ما يدعك في حيرة الفكر وبحـــار التعجب غارقاً ويسكتك وإن كنت مصقاعاً ناطقاً ومن ثم قيل المحبوب خير من الحياة والمكروه بالطبع شر من الموت لتمنى كل عند حصول ذلك أما ما نقل عنه في بيان مراتبه خصوصاً ما ذكره هنا فليس بالجيد إذ البعض دال على الأسماء والبعض على الماهية والبعض على السبب فلم يحققه غيرنا أحد فاحفظ مقادير ما ظفرت به وها أنا أبين لك عدم انطباق ما ذكروه على المطلوب قال ابن صاعد في طبقات الأمم عن فيثاغورس صاحب سليمان نبي الله عليه السلام العشق طمع يتولد في القلب يعني عن النظر ثم ينمو ويحدث اللجاج والاحتراق حتى ان الدم يهرب عند ذكر المحبوب وقد يموت من شهقة أو برؤية المحبوب بغتة وربما اختنقت الروح من نحو ذلك فدفن ولم يمت وفي سيرة الاسكندر أن هذا لابقراط زاد التميمي في كتاب امتزاج النفوس عن جالينوس ان العشق من فعل النفس وذلك كامن في الاعضاء الرئيسية فمتى تمكن أفسدها وهذا كله إشارة إلى المراتب إجمالاً وفي كتاب المتيمين نظر رجل إلى معشوقته فغشى عليه فقال حكيم إنه من انفراج قلبه اضطرب جسمه فقيل له ما بالنا لا نكون كذلك عند النظر إلى أهلنا فقال محبة الاهل قلبية وهذه روحانية فهي أدق وألطف وأعظم سريانا وفعلاً وقال أفلاطون العشق غريزة تتولد عن الطمع زاد المعلم وهو يحدث عمى القلب عن عيوب المعشوق وبه جاءت السنة حيث قال حبك للشيء يعمي ويصم رواه أبو داود وأحمد

وأنشد فيه

فلست براء عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه اذا كنت رائيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما ان عين السخط تبدي المساويا

ورأيت في نسخة ، ولا بعض ما فيه إذا كنت راضياً، وهي اليق بتحسين الكلام لما فيها من المقابلة وفي أخرى ، ولا بعض ما فيه وإن كنت رائيا ،

وهذا أليق بالمقام وألطف وأحسن دلالة على المقصود فيه من دفع التوهم من كونه ضعيف النظر فانه يقول لا أرى له عيباً مع إني صحيح النظر فهذا على حد قوله

فوالله ما أدري وان كنت داريا بسبع رمين الجمر أم بثمان

وقال السكري وابن أبي طاهر في المنثور والمنظوم وأبو عبيد البكري في كتابه اللآلي في شرح الآمالي أن اليقين لجرير بن الخطفي وقال السمعاني هما لعلي والأول أصح قال الحاتمي وقد سرق ابن عبد الأعلى هذا المعنى حيث قال

وعين السخط تبصر كل عيب وعين أخ الرضى عن ذاك تعمي

وأما الشيخ فقد حده بأنه مرض يشبه الماليخوليا تولده الفكرة من استحسان الصور والشمائل ولا يشترط اقترانه بشهوة جماع وقالت إعرابية العشق جل أن يرى وخفي عن الورى فهو كامن في الصدور كالنار في الحجر إن قدح أوري وإن ترك تواري وهذا حد له بحقيقته في النفس ويؤيد عدم اشتراط الشهوة فيه والحسن قول بعضهم

وما الحب من حسن ولا من سماحة ولكنه شيء به الروح تكلف

وعلامة ما يكون منه عن شهوة فقط زواله إذا زالت لأنه عرض وأما الكائن عن مشاكلة في النفس وارتسام في الذهن فحد لا يزول ومتى صح ارتسم عند كل من المتحابين ما عند الآخر لصفاء جوهر النفس وخلوها للمحبوب وقد تكون العوارض المذكورة سبباً لانقلابه إلى الحد الأصلي كما ستجده وأما نحو الرسيس والحب وغيرهما فأسماء اقترحتها الشعراء للتغزل والتشبيب لا تنطبق في الحقيقة على ما ذكرنا لكن وربما كان لبعض منها مسيس مناسبة فالرسيس من الرس وهو الثبات ورسوخ صورة المحبوب في النفس وزعموا أنه أول المراتب ولا ينطبق على المعنى اللغوي ويليه الحب وهو في الحقيقة أول الإلفة واشتق من حبة القلب أو من حباب الماء أو من حب البعير إذا برك أو من حبب الأسنان وهو بياضها وحدّت المحبة بالميل الدائم

بالقلب الهائم أو قيام للمحبوب بما يحب وعدم مشاركة شيء معه وفيه أنشد المتنبي

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وأنشد بعضهم

ومن عجب إني أحسن اليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين اضلعي

وألطف منه قوله

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب

والحب أخص من العشق لأنه عن أول نظرة وأقصاه امتزاج الأرواح والرأفة أشد لأنها مبالغة في الرحمة قال الحراني هي أرق الرحمة والرحمة أعم لوقوعها على غير ذي صلة بخلاف الرأفة ويقرب من الحب الود وخالصه فيكون من الحب كالرأفة من الرحمة وفي معناه المقة والتتيم حالة يملك بها المعشوق العاشق فإذا زاد فهو الوله أعني الخروج عن حد الترتيب وأنشد في المعنى

الحب أوله ميل يهيم به قلب المحب فيلقي الموت كاللعب
يكون مبدؤه من نظرة عرضت أو مزحة أشعلت في القلب كاللهب
كالنار مبدؤها من قدحة فإذا تضرمت أحرقت مستجمع الحطب

وأنشد أيضاً

ثلاثة أحباب فحب علاقة كذا حب تملاق وحب هو القتل

والشجو هو الحزن والطرب ايضاً ضده ويطلق على القهر والغلبة وهو هنا عشق يقترن بالهم كما في ديوان الصبابة والخلة هي تمام المحبة سواء كانت بلا علة وهي الصداقة أو بها وهي فرط العشق الذي لا يخالطه غيره أخذت من الخلو أو التخلي فكان القلب لما تخلى للمحبوب دون غيره اتصف بها والعلاقة

وهي في الصحيح اسم لمبادىء المحبة أخذت من علق بالتحريك أي حب
وكسحاب الهوى وبهاء ويجوز أن يراد بها شدة اختلاط القلب بالحب ويقرب
منها الغرام وهو أشد لأنه ولع واشتغال بالحب والهوى مطلق الميل والارادة
ويطلق على ذهاب العقل في العشق وعلى نفس المحبوبة وأما العشق فأعم منها
وقيل أخص وهو إعجاب بالحب أو افراط فيه وأخـــذ من العاشقة وهي
شجرة تعلق وتلصق بما يليها وهي اللباب ومن ثم تسميه العامة عاشق الشجر
والغمرة سكر القلب بتذاكر الحب واشتغاله به والشغف شدتـه مأخوذ من
شغاف القلب أي غلافه أو سويدائه وبالمهملة رأس القلب مما يلي نياطه ويؤنث
كأن النوع من الحب المجعول هذا الاسم علماً عليه قد بلغ هذا المحل والمراد من
القلب هنا أمر معنوي في الانسان والشكل المعلوم وعنه ينتج الوله ثم الهيام
واما الاستكانة فالخضوع اوثق ينزع النفس من البدن إلى لقـاء الحب ومن ثم
قد يقتل عند الرؤية والشوق أرفع وهـــل يزيده الوصل أو ينقصه خـلاف
واستدل للأوّل بقول الشاعر

واعظم ما يكون الشوق يومـاً إذ أدنت الخيـام من الخيـــام

وللثاني بقوله

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينـــاً بالاياب المسافر

والاصح انه ان كان لمجرد شهوة تنقص بقضائها بل ربما عدم والا كان
كلفاً لا تـكلفاً وطبعاً لا تطبعاً وميلاً نفسانياً أنشأته المشاكلة فلا يزيده الوصل
إلا رسوخاً على انه لا دليل في الثاني على الدعوى لعدم ذكر الشوق في الشعر
لأنه ذكر استقرار النوى وهو البعد الذي هو أعم فيجوز تفسيره بفرد غـير
الشوق على أن المحققين اجمعوا على الشوق حال الغيبة يغاير الشوق حال الحضور
كما أنشد ابن الرومي في ذلك .

اعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاهاً كي تزول صبابتي فيشتد ما ألقي من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن ترى الروحين يمتزجان

وأما الصبوة فلا تطلق حقيقة إلا على الميل والافتتان الواقعين زمن الصبا لكن تطلق تجوزاً على مطلق الميل للمشابهة والنزوع والاشتياق كالصبابة أو هي رقة وحرارة في الشوق والوجد شدتها والكلف الاستغراق والاشتغال وبالكسر العاشق نفسه والشجن الهم والكرب تحمل النفس كل مشقة متعلقها الحب والكآبة شدة الحزن كالتفجع أو هو توجع وبكاء على الفقد والبرح والغل شدة العشق أو الغل من الغلل يعني العطش والجامع ميل النفس والحنين شوق ممزوج برقة وكلف وتذكر يهيج الباعثة والبلبال شدة الشوق والجوى ضيق الصدر وكتم الهوى والأرق والسهد شدة السهر وتواتر أحوال المحبوب على القلب وفي معناه التحرق واللذع والولع وكذا اللوعة واللاعج واما الوصب والنصب فلوعة مع مرض وغم وكذا الكمد والدنف شدته قيل مع صفرة أو الكمد تغير إلى سواد والدنف إلى صفرة وهو مولد والتبل والخبل الجنون وهذا في الأصح آخر المراتب والجزع عدم الصبر على الفرقة والهلع أشده والدله بالمهملة احتراق القلب بنار الحب والخلابة سلب العقل والهيام مجرد الحب أو هو السياحة فيه والبله حمق أو غفلة فيكون هنا استغراقاً في الحب فهذه حقيقة اسمائه التي جعلها مراتبه وليست إلا باعتبار صفة أو أول أو تسمية جزءاً وسبب بكل أو مسبب وعكس ذلك وإنما المراتب ما قررناه وفي ترتيب هذه الاسماء خلاف يرد على من التزم ترتيبها ونحن قد أوضحنا نفس المعاني ومنها يسهل الترتيب والتنزيل على المراتب فتأمله

(فصل فيما ذكر له من العلامات)

وهي أحوال يتصف بها البـــدن كتغير الألوان والعينــين وتواتر النبض والخفقان وربما ازدادت هذه عند رؤية المحبوب أو سماع ذكره حتى انها قد تقضي بالهلاك وكذا اعتقال اللسان وأحوال يتصف بها الفكر كفساد الذهن والتعقل وقد مر ثم هـــذه قد يستدل عليها بالتطوّر والتنقل (قيل) أتى بشاب إلى طبيب فلما تأمله لم يجد به ألماً فقال وهو قابض على نبضه لغلامـه قد أخذني البرد فأتني بالفرجية فتغير نبض الشاب تحت يـده فقال لأمه ان هذا عاشق امرأة اسمها فرجية فقال وهو كذلك وأنشد

ودا ع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أشواق الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنمـــا أطار بليلى طائراً كان في صدري

وفي معناه محبة كل ما ينسب إلى المحبوب حتى الجدار وفيه قيل

امر على الديار ديـار ليـــلى اقبل ذا الجدار وذا الجـدارا
وما حب الديـار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وأبلغ من ذلك هجر ما كان عليه زمن الوصل زمن الفرقة من نحو ملبس ومأكل والاستلذاذ بتقبيل النعل قال ابن أبي حجلة وقد رأيت من فعل ذلك وعنفته فادعى في ذلـك لذة عظيمة فقلت له بعدها وقد رأيته بمكة كيف على ما أعلم فيك فأنشد يقول

ولله مني جانب لا اضيعه وللهو مني والخلاعة جانب

(أقول) وفيه تظرف عظيم حيث جعل حصة الله منه نصفاً وعدد المقابل وهو دليل مزيد الاشتغال بالله حيث لم يجعل المقاسم واحـداً خصوصاً واللهو في شعره أعم من أن يكون بالمحبوب وغيره وأما التشبه بالمحبوب في سائر الأفعال والأقوال والميل إلى ما يحبه والاستلذاذ باستعمال ما كان من أثره فأمر معلوم لا يجهل ومطلوب بين العشاق حتى قيل أن شخصاً وجد في تركته إثنا

عشر حملاً وفردة من السراويل لكونه رأى ميل محبوبه اليهــا وآخر ألف هاون لسماع صوت هاون محبوبته وأما اتحاد الأجساد والمرض حيث يمرض فكثير قيل مرض أبو نواس ولم يعلم سبب مرضه حتى عاده شخص فأخبره بمرض عنان جارية الناطفي وانها نشطت فكتب اليها

إني حممت ولم أشعر بحماك   حتى يحدث عوادي بشكواك
فقلت ما كانت الحمى لتطرقني   من غير ما سبب إلا لحمــاك
وخصلة كنت فيها غير متهم   عافاني الله منهــا حين عافاك
حتى قد اتفقت نفسي ونفسك في   هذا وذاك وفي هذا وفي ذاك

وفي معناه أنشد

وقف الهوى بي وحيث أنت فليس لي   متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامـــة في هواك لذيذة   حباً لذكرك فليلمني اللوّم

ويقرب من هذا قول الشافعي

مرض الحبيب فعدته   فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني   فبرئت من نظري اليه

إذا تقرر هذا فليكن الأخف منه كالغيرة وبذل النفس وترك مـا سوى المحبوب بالطريق الأولى وكذا نظائرها كاستحلاء ما يتعلق به من نحو حديث وملبوس رؤية ما ينسب اليه ويقوله حسناً صحيحاً وإن كان بالخـــلاف ولم ينسب نحو هذا إلى المبالغة عند العشاق للاتيان باعظم منه كما سمعت (قـال الزراع) ودع هندي جارية كان يهواها فذرفت إحدى عينيه فغمض الأخرى عن الملاذ عقوبة لها أربعاً وستين سنة حتى مات .

وأما حصول العشق برؤيـــة في النوم أو بالأثر او بالسماع أو بالكلام أو الوصف أو اللمس أو باول نظرة أو بالمطاولة والمعاشرة وزيادته بالبعـد لقوم والقرب لآخرين فبحسب الأمزجة وقد أسلفت في طالعة الكتاب تفصيل ذلك

وقبول المزاج سرعة الانتقاش والفرق بين لطافة المزاج وكثافته ونحو ذلك مما ينبئك على تعليل هذا فليراجع وقد ظهر لي في ذلك أن الناس اما ناظرون بلا حجب أوبها أما من العاشق والمعشوق معاً أو من أحدهما فقط وتختلف الحجب لطفاً وصفاء وعكسها فهـــذه أسباب الاختلاف وان كانت لأهل الحقيقة بالذات

الباب الاول

(فيمن استشهد من المحبين شوقاً الى حضرة رب العالمين)

لما كان غاية المحبة أمـــا وصولاً إلى المطلوبات الدنيوية أو الأخروية ومبدؤها من الحواس الظاهرة غالباً والباطنة ومطالبها العالية ومقاصدهـــا الذاتية أما اشتغال عن الحق بخيالات وهمية تنتقش في العقل من الخلق أو ميل نفسي إلى المبدع باستيحاش ممن سواه لا جرم قسمت المحبـــة قسمين أشرفها متعلقاً الثوابي وهو الحب في الله لأنه لا يفني متعلقه ولا تكيف غايتـه ولا يفضله شيء في الحقيقة إذ مـــا سواه وهام وتضمحل وتزول وأعراض تفني وتحول ولا شبهة في أن إدخار ما لا يتطرق اليه تغير ولا فناء أولى في الحكمة عند العقلاء فلذلك صدرت به الأبواب ومدار ما يذكر هنا في الأصل على ذكر من أفنى نفسه في طاعة ربه وأكثر اغترافه من الحلية لأبي نعيم إذا تقرر هذا فحد المحبـة كما قال الحصري وصول إلى مقام الأنس والنعمة باطناً والوحشة والبلاء ظاهراً بشرط الإشراف على الغيوب وفناء الكل في بقاء المحبوب وهذا تعريف لها بحسب الغاية الخاصة وكان عليه أن يورد التعريف التام العام أولاً ثم يفصل وقال الاستاذ أبو يزيد البسطامي هي استهلاك النفسانية مع بقـــاء الروحانية وهذا عندي قريب من الأول غير أن بعض شراح النصوص قال ان فيه تعريفاً بالمادة وأظنه أخذ ذلك من قوله استهلاك وفيه تكلف ونقـل الحدين البحراني في شرح التائية على قول الاستاذ فقالت هوى غيري قصدت وأقرّها وأحسن منهما ما نقل عن شيخ الطريقة الجنيد رضي الله عنه وقـد

سئل ما المحبة فقال هي الصفاء في الباطن مع حقائق الحق والوفاء في الظاهر مع استعمال دقائق الشرع فهذا والله هو الحد التام وان كان إلى الخاص أميل فإن قوله الصفاء في الباطن يريد به الخلوة الحقيقيةالتي هي قفل أبواب الحواس عن ممارسة الخلق ونشر القلب بالاستكانة والخضوع على أعتاب الحق ونفي الكدورات الحسية عن الحواس النفسية لإلحاقها بالحضرة القدسية وذلك غير تام قبل نفي العوائق وقطع العلائق والخروج من شوائب الخـــلائق ليتحقق الصفاء والتخلق بتلك الحقائق

هناك وجدت الكائنات تحالفت على أنها والعون مني معينتي

حيث انتفت معاندات ألأغيار وتحققت ممازجات الأخيار حتى انتقشت المطلوبات الحقية في مرآت الصورة الخلقية وانبسطت أشعة الأحوال البسطية حيث انتفت الكدورات الوحشية

فلم تهوني ما لم تكن في فانيا ولم تفن ما لم تجتلي فيك صورتي

وقوله والوفاء في الظاهر يعني لكل معاهد بعهده وموعود بوعـده وضال برده ومتغفل بتنبيهه وتقوية جده لان العارف المتصف بما ذكر خليفة الله على خلقه ينفذ فيهم أوامره ويقيم شرائعه فان فعل ذلك ظاهراً وباطناً فهو النبي وخلفاؤه ومن فعله على الأول فهم السلاطين أو على الثـــاني فهم الأفراد الاقطاب جوامع الأسرار ومعادن الحقائق والاستبصار علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل وورثة الأنبياء

فعالمنا منهم نبي ومن دعا إلى الحق منا قام بالرسلية

وأما قوله استعمال دقائق الشرع فاشارة إلى معنى لا يدركه إلا الخواص وإن غاص عليه من غاص فان فيه إشارة إلى حفظ الكليات التي عليها مدار النظام واستقصاء الجزئيات التي قصر عنها الكلام واجتهاد النفس في جمع ما تفرقت فيه الآراء وتشعبت اليه الأهواء بيد ان ذلك قباء لم يخط على كل ذي قد وأشكال أقيسة فكر لم يستخلصها كل ذي جدّ اللهم حققنا بحقائق معارفك

وأرفعنا من حضيض زوايا الخمول إلى أوج استقامة لطائفك وأنقل أنفسنا من مراكز عكس الصعود إلى أشرف منازل السعود وأما قول بعضهم وينسب إلى ذي النون المصري المحبة أرق بلا رقاد وجسم بــلا فؤاد وتهتك في العباد وتشتت عن البلاد فتعريف بصورة الحالة الراهنة من المحبة بعد قطع الطرق فإن الأرق الذي هو السهر من الفكر في الأمور الطارئة على النفس لا يكون إلا بعد تمكن تلك الأمور في الذهن وان الجسم لا يكون بــلا فؤاد إلا إذا فني فهي كناية عن عدم الالتفات إلى ما من شأنه أن يدرك بالقلب مما سوى الموجود المطلق بقرينة المقام وفيه تكلف وخلط لحالة المجانين بأحوال المحبين وباقي الكلام ظاهر وعندي أن المحبة ميــل نفساني إلى المراد يعضده الجزم بالاعتقاد ورؤية ما سوي المطلوب من الفساد وفي الدين ارتــداد واليه أشار عارف الوقت والحقيقة وسلطان عشاق الخليقة بقوله

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهواً قضيت بردتي

فقولنا ميل كالجنس ونفساني كالفصل وإلى المراد فصل قريب ولذلك أخره وهذا هو فعل المادة والصورة والجزم في الاعتقاد بالفاعلية وغاية ذلك الثبات على الحب حيث ثبت أن ما سواه فساد فقد جمع هذا الحد مطرداً ومنعكساً أحوال المحبة على وجه العموم فمن أراد تخصيصه فبالفصول اللائقة ثم لهذه المحبة أوصاف وشروط منها أن لا يبالي المحب بما يرد من المحبوب وأن يؤثر رضاه على نفسه فيتلذذ فيه بالبلاء كالعطاء وبالغيبة كالحضور والهجر كالوصل والفناء كالبقاء إذا كان ذلك رضا المحبوب قال العارف

فكل الذي ترضاه والموت دونه به أنا راض والصبابة أرضت

فانظر إلى هــــذا الاستاذ كيف أوضح طرق السلوك للسالك ودل على المطالب والمسالك وأوضح مرقاة الوصول للدارج ونكب عن المعارج إلى أسنى المعارج حيث قال

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتي ، لأن الزمان المذكور محل الميل إلى مرادات النفس وشهواتها ففي البيت مــع الجناس التام واستيفاء مادة الكلام تحرير

أحوال الغرام بأقصى المرام ثم أكد ما أسس وأبدع ما جنس وقوّى جزئي الميل حتى صار كلياً بما وشح من بديع نظامه وأنق من لطيف كلامه بقوله

محجبة بين الأسنة والظبا اليها انثنت ألبابنا إذ تثنت

ممنعة خلع العذار نقابها مسربلة بردين قلبي ومهجتي

فجدوا أيها المقصرون وانتبهوا أيها الغافلون وبادروا أيها المشمرون فان المطلوب خطير والوصول عسير وليس هذا قطعاً عن الطريق وتخذيلاً للهمم كما زعمه بعض الشراح المتلبسين بهذه الصناعة الظانين أن الوصول إلى هذا النفس بالظاهر من البلاغة والبراعة كلا بل هو تبيين وتحقيق لئلا يقدم على هذا الأمر إلا من أراد علوّ همته وغلو قيمته ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولا يتلبس بالعلم غير أهله ولا يبسق الفرع على غير أصله

فللحب أقوام كرام نفوسهم منزهة عما سوى الحب يا خلي

إلى غير ذلك مما دلت عليه أبياته الفائقة وعبـاراته الرائقة وألفاظه الشائقة التي هي لصرادق الهمم إلى مقام الوصول سائقة ولولا ما في ذلك من التطويل الذي يستغرق المدد مع المدد ويستنفد الأبد فضلاً عن طول الأمـد لأوضحت لك ما في كلامه من الأسرار الحقيقية الدالة على ان أبيات القصيدة وضعت كدرج المرقاة في الإبرام والنقض لا يجوز تقدم بعضهـا على بعض (ومن لطيف ما اتفق لي) إني خلوت بنفسي ليلة وكانت ليلة الجمعة سادس رجب الفرد من شهور إحدى وسبعين وتسعمائة فأخذت أتفكر في كلامه متصفحاً في دقائقه إلى أن قام في فكري معارضة بين ما اتفق له من قوله وعيدك لي وعد البيت . وقوله عذب بما شئت غير البعد وقوله وأصعب شيء دون اعراضكم سهل وبين قوله وكل الذي ترضاه البيت فانـه في جميع الأبيات أشار إلى أنه راض بكل أفعال المحبوب خلا البعد والهجر ثم أشار في هذا البيت الى الرضا بسائر الحالات ومنها البعد والهجر ثم قـام عندي جواب ان ذلك عام خصص ثم غشيني النوم فرأيت كأني بالمدرسة الأشرفية

وقد زينت بأنواع الزينة وليس فيها غيري وإذا برجل طويل غليظ شديد البياض في يده عكاز أخضر متوشح بثوبين أبيضين وعلى رأسه كالأزار فقام عندي انه الشيخ فاذا هو هو فسلم عليّ ووضع يده على كتفي ووقفنا متقابلين وهو يقول لي هذا جواب الفقهاء ولم أقصده فقلت يا سيدي وما الذي قصدت قال اما تعلم ان المسافر أثقل ما يكون في مبادي سفره ثم لم يزل يخف إذا طالت طريقه حتى لم يبق إلا هو وربما فني قلت نعم قال وكذلك السالك لم يزل يلقي مرادات نفسه حتى إذا وصل انطوى في دائرة المحبوب فلم يبق له مطلوب كما في الحديث القدسي فبي يسمع وبي يبصر فعلمت ان هذا الشأن لا يدرك بالعلوم الظاهرة ان لم تداركها نفحات من الحضرة الطاهرة فرجعت عما كنت عزمت عليه من الكتابة على القصيدة إلا ان تداركني الألطاف الباهرة (وقال بعض العارفين) شرط المحبة أن تكون ميلاً بـــلا نيل وشرطاً بلا جزاء لئلا تزول عند زوال العوض ويتأكد ذلك في أحبـاء الله عز وجل روى عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول في مناجاته إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني وجدتك أهلاً للعبادة ومن ثم قيل أفضل الحمد ما وقع دالاً على استحقاق الله له بـــلا شرط نحو نحمدك يا من جلت صفاته عن الاحصاء بخلاف ما وقع في مقابلة شيء كالحمد لله على مـــا أنعم وأخبر السراج عن أبي بكر الازدستاني بسنده إلى ابن كثير قال لما تاب داود عليه السلام كان له يوم نوح تجتمع اليه فيـــه الناس حتى الوحوش والطيور فينوح ويعظ مذكرا بالجنة ثم النار ثم الأهوال ثم الخوف من الله وفي كل واحدة يموت من كل طائفة خلق وولده قائم على رأسه فيقول حسبك يا أبت قد مات الناس ثم يقول له العباد لا تعجل بطلب الجزاء فيخر ساجداً مغشياً عليه فتأخذ كل طائفة من مات منهـــا وتذهب ثم يدخل بيت عبادته وهو يقول يا إله داود غضبان أنت عليه أم راض إلى أن يخر مغشياً عليه وأخرج عبد العزيز بن علي الطحان عن ابن عطاء في معنى قوله عز وجل اني مسني الضرّ وأنت أرحم الراحمين ان أيوب لم يزل يأكله الدود حتى لم يبقى غير قلبه ولسانه فأكل بعضه بعضاً حتى بقيت واحدة فدبت إلى قلبه فقال ذلك

لأنه قال أي رب لم أخف من بلاء ما دام قلبي عارفاً بحلاوة ذكرك فأوحى الله اليه بم تنظر إليّ غداً قال بهاتين العينين قال لا ولكن أخلق لك عينين يسميان البقاء لتنظر الى البقاء بالبقاء (وقيل) خرج عيسى عليه السلام في سياحته ليلة برد وريح ومطر فعاج الى كهف ليستظل فخرج اليه أسد فقال أنت أحق بمكانك وعــاد وهو يقول رب لكل ذي روح ملجأ الا عيسى فأوحى اليه كأنك استبطأتني فوعزتي وجلالي لأزوّجنك بجواري ولأولمنّ عليك أربعة آلاف سنة (وحكى) المنذري عن ابن سعد يرفعه ان انصاريا بكي من خشية الله خوفاً من النار حتى حبسه البكاء في بيته فحكى ذلك لرسول الله ﷺ فأتاه فلما اعتنقه خرّ ميتاً فقال جهزوا صاحبكم فان الفرق بتحريك الراء يعني الخوف فلذ بالمعجمة يعني قطع كبده (وحكى) أبو نعيم في الحلية في ترجمة عبد الواحد بن زيد عن الفضيل بن عياض ان ابن زيد سأل ربه ثلاث ليال أن يريه رفيقه في الجنـــة فاذا بقائل يقول له هي ميمونة السوداء قال فقلت وأين هي قال بالكوفة فخرجت في طلبها فلما سألت عنها قالوا هي مجنونة وانها بموضع كذا ترعى غنيمات لنا فجئتها فرأيتها قد غرست عكازاً وعليها جبة صوف مكتوب عليها لا تباع ولا تشرى والغنم ترعى مع الذئاب بلا ضرر وهي تصلي فلما رأتني أوجزت في صلاتها ثم قالت يا ابن زيد ليس هذا موضع الموعد فقلت ومن أين عرفتيني فقالت الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ومـــا تناكر منها اختلف وفي رواية أخرى قالت جالت روحي وروحك في عـــالم الملكوت فتعارفنا فقلت لها عظيني فقالت واعجبا من واعظ يوعظ ثم قالت يا ابن زيد لو وضعت معيـــار القسط على جوارحك لخبرتك بمكنون ما فيها يا ابن زيد ما من عبد أعطاه الله شيئاً من الدنيا فأبتغي اليه ثانياً الا سلبه الله حب الخلوة معه وبدله بعد القرب البعد وبعد الأنس الوحشة وأنشدت :

يا واعظاً قام لاحتساب يزجر قوماً عن الذنوب

تنهى وأنت السقيم حقاً هذا من المنكر العجيب

لو كنت أصلحت قبل هذا غيك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبي موقع صدق من القلوب
تنهي عن الغيّ والتمادي وأنت في النهي كالمريب

قال ثم سألتها ما بال الذئاب التي مع الغنم لا تضرّها فقالت أصلحت ما بيني وبينه فاصلح ما بين الذئاب والغنم (وفي الكتاب المذكور) عن ابن المبارك قال بينما أطوف في الجبال اذا أنا بشخص فلما دنا مني اذا هو امرأة عليها ثياب من صوف فلما دنت سلمت ثم قالت من أين قلت غريب قالت وهل تجد مع سيدك وحشة الغربة وهو مؤنس الضعفاء ومحدث الفقراء فبكيت فقالت ما بكاؤك ما أسرع ما وجدت طعم الدواء قلت هكذا العليل ثم قلت عظيني يرحمك الله فأنشدت

دنياك غرارة فذرها فانها مركب جموح
دون بلوغ الجهول منها منيته نفسه تطوح
لا تركب الشرّ فاجتنبه فانه فاحش قبيح
والخير فاقدم عليه جهراً فانه واسع فسيح

فقلت زيديني قالت سبحان الله أو ما في هذا الموقف من الفوائد ما أغنى عن الزائد قلت لا غنى لي عنه فقالت أحبب ربك شوقاً الى لقائه فان له يوماً يتجلى فيه لأوليائه

(وفيه) عن أبي الفيض ذي النون المصريّ رضي الله عنه قال بينما أنا في السياحة اذا لقيتني امرأة فقالت من أين قلت غريب فقالت كما قيل لابن المبارك إلا أنها زادت حيث نهت عن البكاء بأن قالت البكاء راحة القلب فما كتم شيء أحق من الشهيق والزفير فاذا أسبلت الدمعة استرحت وهذا ضعف عند العقلاء فتعجبت من ذلك وقال وصف لي رجل فقصدته فأقمت على بابه أربعين يوماً فلما رآني بعدها هرب مني فقلت له سألتك بالله الا ما وقفت فقال ما تريد فقلت تعرفني بما عرفته فقال ان لي حبيباً اذا قربت منه قربني

وأدناني واذا بعدت صوب بي وناداني واذا قمت باليسير رغبني ومناني واذا عملت بالطاعة زادني وأعطاني واذا عملت بالمعصية صبر عليّ وتأناني فهل رأيت مثله انصرف عني ولا تشغلني ثم ولى يقول

حسب المحبين في الدنيا بأنّ لهم من ربهم سبباً يدني الى سبب
قوم جسومهم في الأرض سائرة وان أرواحهم تختال في الحجب
لهفي على خلوة منه تسدّدني اذا تضرّعت بالاشفاق والرغب
يا رب يا رب أنت الله معتمدي متى أراك جهاراً غير محتجب

(وعن أبي الفتح بن سحنون) قال كان سعدون صاحب محبة الله لهجاً بالقول صام ستين سنة حتى خف دماغه فسماه الناس مجنوناً لتردّد قوله في المحبة فغاب عنا زماناً وكنت مشتاقاً الى لقائه فبينما أنا بفسطاط مصر على حلقة ذي النون واذا به وعليه جبة من صوف فنادى يا ذا النون متى يكون القلب أميراً بعدما كان أسيراً فقال اذا اطلع الخبير على الضمير فلم ير فيه إلا هو قال فخرّ مغشياً عليه ثم أفاق وهو يقول

ولا خير في شكوى الى غير مشتكي ولا بدّ من شكوى اذا لم يكن صبر

ثم قال يا أبا الفيض ان من القلوب قلوباً تستغفر الله قبل أن تذنب قال نعم تلك قلوب تثاب قبل أن تطيع قال يا أبا الفيض اشرح لي ذلك قال يا سعدون أولئك أقوام أشرقت قلوبهم بضياء روح اليقين فهم قد فطموا النفوس عن روح الشهوات فهم رهبان من الراهبين وملوك العباد وأمراء في الزاد للغيث الذي أمطر في قلوبهم المولهة بالقدوم الى الله تعالى شوقاً فليس فيهم من آنس بمخلوق ولا مسترزق من مرزوق فهو في الملأ حقير وعند الله خطير ثم ولى

(وعن أبي سليمان) قال مررت ليلة فسمعت في جبل اللكام رجلا يقول في دعائه سيدي وأملي وموئلي ومن به تم عملي أعوذ بك من بدن لا ينتصب بين يديك وقلب لا يشتاق اليك ودعاء لا يصل اليك وعين لا تبكي عليك

فعلمت انه عارف ثم صعق فتركته وانصرفت واذا أنا برجل نائم فركضته وقلت قم فانّ الموت لم يمت فرفع رأسه وقال ما بعد الموت أشد منه

(وعن عبد الله بن المبارك) قال مررت في سياحتي بالشام بطبيب يصف لكل ما يحب فقلت له يا طبيب أعندك دواء للذنوب فقال نعم فلما تفترق الناس قال لي يا هذا عليك بورق الفقر وعروق الصبر واهليلج الصفا وبليلج الرضا وغارقون في الكتمان وسقمونا الأحزان فأمر سهم بماء الأجفان ودعهم في طاجن القلق وأوقد تحتهم نار الفرق وصفهم بمنخل الأرق واشربهم على الحرق فانه شفاؤك وأنشد

يا طبيباً بذكره يتــداوى   وصفــوه لكل داء غريب
ليس حزني عليك شيء عجيب   إنما الصبر عنك شيء عجيب

(وسئل أبو بكر الشبلي) ما علامات العارف قال صدره مشروح وقلبه مجروح وجسمه مطروح قيل من العالم قال من عرف الله وعمل بما علمه الله وأعرض عما نهاه الله قيل فما الصوفي قال من صفا قلبه ورمى الدنيا وجفا الهوى واتبع المصطفى قيل فما التصوّف قال التألف والأعراض عن التكلف وأحسن منه تصفية القلوب لعــلام الغيوب وأحسن منه التعظيم لأمر الله والشفقة على عباد الله وأحسن منه من صفا من الكدر وخاص من العكر ، وامتلأ من الفكر وتساوى عنده الذهب والمدر

(وعن ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه) قال كنت يوماً من الأيام ماراً بقبر فترحمت عليه وبكيت عليه فسألني من معي عنه فقلت قــبر حميد بن جابر أمير هذه المدن غرق فى الدنيا ثم استنقذه الله بلغني انه سر يوماً من الأيام بما هو فيه ثم نام مع بعض محاظيه فرأى رجلا واقفاً على رأسه وفي يده كتاب فناوله إياه ففتحه فاذا هو مكتوب بالذهب لا تؤثر فانيا على باق ولا تغتر بملكك وسلطانك وخدمك ولذاتك فانّ الذي انت فيه جسيم لولا انه عديم وملك لولا انّ بعده هلك وفرح وسرور لولا ان بعــده غرور

فسارع الى أمر الله فانه يقول وسارعوا الى مغفرة من ربكم فانتبه مرعوباً وخرج الى هذا الجبل فما زلت أتعهده حتى مات ودفن ههنا

(وحكي) ان ملكاً أراد الركوب يوماً فدعا بثياب الزينة فجيء بها فردها وقال أريد ثياب كذا فجيء بها فردها حتى جيء بأصناف كثيرة ثم اختار ما أراد وفعل كذلك بالدواب فلما ركب نفخ إبليس في أنفه فعلاه من التكبر ما لا يوصف حتى انه لم يخاطب أحداً فبينما هو في موكبه اذا برجل رث الهيئة قد قبض على لجام دابته وهو يقول لي اليك حاجة قال حتى أرجع قال لا بل مكانك قال اذكرها فقال أدن مني فطأطأ فقال له أنا ملك الموت فتغير واضطرب وسأله أن يعود فيودع أهله فأبى وقبضه مكانه

(وحكى) انه عارض في ذلك الوقت رجلاً زاهـــداً فقال له كما قال للملك فقال حباً وكرامة فقال له ملك الموت هل لك حاجة تمضي اليها فقال لا حاجة أحبّ إليّ من لقاء الله فقال اختر على أي حالة أقبضك فقال ألك ذلك قال نعم فتوضأ وصلى فلما سجد قبضه

(وعن عتبة المعروف بالغلام) وسمي بذلك لكثرة خدمته انه كان مقيماً بالجبانة فبلغ خبره علي بن سلمان أمير العراق فخرج حتى وقف عليـــه فسلم فرفع رأسه فردّ عليه فقال له الأمير كيف أصبحت قال متفكراً في القدوم على الله بخير أم بشر ثم بكى وأطرق رأسه منكساً الى الأرض فقال الأمير قد أمرت لك بألف درهم فقال قبلتها على أن تقضيني معها حاجة فقال وقد سر بذلك وما هي قال تقبل مني ما وهبتني فقال قد فعلت وانصرف ولقد كان عتبة هذا لا ينام إلا أول الليل ثم يستيقظ فزعاً مرعوباً ينادي النار النار قد شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات ثم يتوضأ ويقف للخدمة وان البكاء ليمنعه القراءة وكثيراً ما يقول اللهم يا عالماً بحاجتي غير معلم بما أطلب وما أطلب الا فكاكي من النار اللهم ان الجزع قد أرّقني من الخوف فلم يؤمني وكل هذا من نعمتك السابغة عليّ وكذلك فعلت بأوليائك وأهل طاعتك إلهي قد علمت لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة عين .

(وعن سهل ابن عبد الله التستريّ رضي الله عنه) الناس ثلاثة أصناف صنف مضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على بابه ينتظر الكرامة وصنف مضروب بسوط التوبة مقتول بسيف الندامة مضطجع على بابه ينتظر العفو وصنف مضروب بسوط الغفلة مقتول بسيفالشهوة مضطجع على بابه ينتظر العقوبة

(وعن حيان القيسي) العباد مع الله على ثلاث طبقات قوم ظعن بهم عن البلاء لئلا يسترق الجزع سرّهم فيكون هذا حكمة أو يكون في صدورهم حرج من قضائه وقوم ظعن بهم عن مساكنة أهل المعاصي لئلا تغتم قلوبهم فمن أجل ذلك سلمت صدورهم للعـــالم وقوم صب عليهم العذاب صباً فما ازدادوا بذلك الا حباً

(أقول) والتقسيم الأول شامل لطبقات العالم السعيد منهم والشقي إلا أن القسم الأول أسعد السعداء وأما هذا التقسيم فهو تقسيم لأهل الله فقط على انّ لنا أن نتكلف للأول أن يكون مثله وفي هذا تلميح الى التسليم البحث في القضاء والقدر والاول الى الاختيار

(وعن سحنون بن حمزة الخوّاص) أن أبا بكر البصريّ وكان رجلا من أكابر الأولياء مات قبل الجنيد بيسير وكان قد سمي نفسه بالكذاب لبيت قاله وهو

فليس لي في سواك حظ   فكيفما شئت فامتحني

فحصر بوله أثر قوله هذا فتضجر فسمي نفسه الكذاب في المحبة (غيره):

ولو قيل طأفي النار أعلم انه   رضا لك أو مد لنا من وصالك
لقدّمت رجلي نحوها فوطئتها   سرور الآتي قد خطرت ببالك

وله أيضاً

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم   وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبيْ هواك أجــــابه   فلست أراه عن فنــــائك يبرح
رميت ببين منك ان كنت كاذباً   وان كنت في الدنيا بغيرك أفرح

وان كان شيء في البلاد بأسرها   اذا غبت عن عيني بعيشي يملح
فان شئت واصلني وان شئت لا تصل   فلست أرى قلبي بغيرك يصلح

وله أيضاً :

يا من فؤادي عليه موقوف   وكل همي اليه مصروف
يا حسرتي حسرة أموت بها   ان لم يكن لي اليك معروف

(وعن الجنيد رضي الله عنه) قال أنفذ في السريّ في حاجة فلما قضيتها دفع إلي رقعة وقال قد أجزتك هذه الرقعة ففتحتها فاذا فيها

ولما شكوت الحب قالت كذبتني   ألست أرى منك العظام كواسيا
وما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا   وتخرس حتى لا تجيب المناديا
وتضعف حتى لا يبقى لك الهوى   سوى مقلة تبكي بهـا وتناجيا

(ودخل أبو بكر الشبلي) يوماً المارستان فوجد غلاماً أسود قد غل الى سارية فلما رآه قال يا أبا بكر قل لربك ما كفاه أن تيمنى بحبه حتى قيدني وأنشد يقول

على بعدك لا يصبر من عادته القرب
وعن قربك لا يصبر من تيمه الحب
فان لم ترك العين فقد أبصرك القلب

فصعق الشبلي وخرّ مغشياً عليه فلما أفـاق وجد القيود مطروحة ولم ير الاسود وعن علي ابن سعيد العطار قال مررت بعبـــادان بمكفوف مجذوم فاذا الزنبور يقع عليه فيقطع لحمه فقلت الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه وفتح من عيني ما أغلق من عينيه قـــال فبينما أنا أردد الحمد إذ صرع فبينما هو يتخبط نظرت اليه فاذا هو مقعد فقلت مكفوف يصرع مقعد مجذوم قال فما استتممت كلامي حتى صاح بي فقال ما دخولك فيما بيني وبين ربي دعه

يفعل بي ما يشاء ثم قال وعزتك وجلالك لو قطعتني إرباً إرباً أو صببت عليّ العذاب صباً ما ازددت لك إلا حباً وللشبلي رضي الله عنه .

ان المحبين أحياء ولو دفنوا   في الترب أو غرقوا في الماء أو حرقوا
أو يقتلوا بسيوف وسط معركة   أو حتف أنف وان أضناهم الغرق
لو يسمعون منادي الحب صاح بهم   يوماً للبـــاه من بالحب يحترق

(وعن أحمد بن عيسى الجزار) قال دعتني امرأة الى غسل ولدها فلما جردته قبض على يدي فقلت سبحان الله أحياه بعد موت فقال ان المحبين لله أحياء وان ماتوا ودعا عبد الواحد يوماً جماعة من الصوفية فأولمهم وكان فيهم عتبة الغلام فقام لخدمتهم ولم يأكل فلما انصرفوا قال له عبد الواحد لم لا تأكل قال ذكرت أهل الجنة واجتماعهم على الموائد وقيام الخدم على رؤوسهم فاشتقت إلى ذلك فأبت نفسي الطعام فبكى عبد الواحد وتفرّقا متعاهدين على أن لا يولما ولا يشبعا من نوم ولا طعام وقيل ان عتبة عاهد الله على أن لا ينام إلا مغلوباً وقرأ غلام يوماً بين يدي صالح المزي بالمعجمة نسبه الى قرية بدمشق وأنذرهم يوم الآزفـــة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظـــالمين من حميم ولا شفيع يطاع فقال كيف يكون لهم حميم وشفيع مطاع والمطالب لهم رب العالمين والملائكة تسوقهم بمقامع الحديد يسحبون تارة على الوجوه ويمشون أخرى ما بين باك ومناد بالويل ثم صاح يا ويلتاه ويا سوء منظراه وبكى وبكت الناس فقام فيه تأنث فقال اوكل ذلك في القيامة يا أبا بشر فقال وأكثر من ذلك لقد بلغني انهم يصرخون الى أن تنقطع أصواتهم فقال الشاب إنا لله وإنا اليه راجعون ثم بكى وخر ميتاً بعد ان استقبل ودعا بالتوبة فرؤي بعد قليل في النوم فقيل له ما فعل الله بك فقال أدخلني الجنة ببركة مجلس صالح ودعا صالح يوماً فمرّ به مخنث وهو يقول في دعائه اللهم أغفر لأقسانا قلباً واجمدنا عيناً واقربنا بالذنوب عهداً ، فسمع المخنث فمات فرؤي في المنام فقال كما قال الشاب

وقال عبد الوارث نظرت الى رباح القيسي يقبل غلاماً من أهله فقلت

تحبه قال نعم قلت ما كنت أظن ان في قلبك بقية لاحد فخر مغشياً عليه فلما أفاق مسح وجهه وقال إنما هي رحمة منه القاها في قلوب العباد

(وحكى) ابن سعيد التيمي قال نظرت إلى جارية سوداء تسف الخوص وهي تقول

لك علم بما يجنُّ فؤادي فارحمن ذل ذلتي وانفرادي

فقلت لها ما علامة الحب وكان الى جانبها رجل يصرع فقالت يا بطال الحب ان تقول لهذا المجنون قم فيقوم ورمقته فقام والجني يقول ويحك لاعدت اليه أبداً فهذا ملخص ما ناسب ترجمة الباب وقد ذكر في الأصل ما لا علاقة له اذا أمعن النظر بهذا المحل وربما يأتي بعضه حيث نجد له محلا

(فصل من الباب في ذكر من فارقت روحه من الاحباب)

قال عبد الرحمن الصوفي مررت في أسواق بغداد بسوق النخاسين فرأيت جمعاً كبيراً على شاب مطروح فقلت ما باله قالوا سمع قارئاً يقرأ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله فسقط مغشياً عليه قال فلما سمع الكلام انتبه وهو يقول

ألم يأن للهجران ان يتصرما وللغصن غصن البان ان يتبسما

وللعاشق الصب الذي مات وانحنى اما آن ان يبكي عليه ويرحما

كتبت بماء الشوق بين جوانحي كتاباً على نقش الوشاة منمنما

ثم صاح وخرّ مغشياً عليه .

(وروى) عن الحواري مثل ذلك إلا أنه زاد وللغصن غصن البان أن يتكلما وفي البيت الأخير كتاباً حكى نقش الوشاة وقام أبو زهير في مجلس المزي فقال له اقرأ فقرأ صالح وقدمنا الى ما عملوا من عمل إلى قوله وأحسن مقيلاً فقال له أعدها فلم يزل يكررها حتى سقط ميتاً

وفي رواية الحافظ مغلطاي عن أبي القاسم في الأمالي وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين عن صالح ومحمد بن واسع وحبيب وثابت البنانيّ ومالك بن دينار انهم قالوا اتينا أبا زهير الضرير المذكور وقت الظهيرة الزيارة فخرج الينا وكأنه نشر من قبر فصلى وجلس كالمهموم فسلمنا عليه فقال لصالح اقرأ فقرأ الآية المذكورة فخر ميتاً فقلنا هل له من أحد فقال الحاضرون نعرف امرأة تأتيه من هنا ببعض حاجـاته فاستحضرناها بالقصة فقالت لعل فيكم صالحاً قلنا وما يدريك به قالت كثيراً مـا كان يقول لي ان قرأ عليّ صالح قتلني فجهزناه رحمه الله تعالى

(أخبرنا أبو الطيب) وكان صوفياً من أهل سر من رأى مدينة بالعراق قال حضرنا يوماً في مجلس ومعنا رجل صوفي يقال له أبو الفتح فقرأ قارىء ولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر فقال الرجل بلى وخر مغشياً عليه فلم يفق الى ان ذهب النهار ثم مضى فبلغني بعد أيام انه حضر بالكرخ مجلساً فأنشدت فيه جارية الأبيات المنسوبة الى عبد الصمد المغربي الاشبيلي المعروف بالمعدل

يا بديع الدل والغنج لك سلطان على المهج
ان بيتاً أنت ساكنه غير محتاج الى السرج
وجهك المعشوق حجتنا يوم تأتي الناس بالحجج

فاعتراه اضطراب شديد وأقبل يقول للصبية كيف قلت فلما بلغت البيت خرّ ميتاً وأخرج في الأماليّ عن عبد المؤمن القصـة إلا أن البيت الأخير وجهك المأمول حجتنا قلت ولعل الذي مـات من سماعه الرجل هو هذا لأن العارفين اذا سمعوا ما يدل على صاحب البقاء كان أكثر أخذاً من نفوسهم ولا شبهة في أنّ المأمول أبلغ .

وحكى أبو الفرج الصوفي قال كنا نجتمع للخدمة وكان بالقرب منا رجل اسمه القاسم الشركي يرعى عنيزات وكلمـا دعوناه الى السماع أبى فمرّ به صبيّ يوماً يغني

انّ هواك الذي بقلبي صيرني سامعاً مطيعا

أخذت قلبي وغمض عيني سلبتني العقل والهجوعا
فدع فؤادي وخذ رقادي فقال لابل هما جميعا
فراح مني بحـــاجتيه وبت تحت الهوى صريعا

فاعتراه اضطراب شديد وأقبل يقول للصبي كيف قلت فخاف الصبي منه ومضى فجعل يقول له لا بأس عليك كيف قلت فلم يجبـــه وانصرف فرجع هائماً الى رجل هناك بطبرية يقـــال له حامد الفاخوري وكان عارفاً بالأشعار فجعل يردد الأبيات عليه ثلاثة أيام وهو يضطرب حتى مات .

وأخرج مغلطاي عن ابن أبي الدنيـــا والمنذري آخر الترغيب في فضل الخوف عن ابن عمر وصححه الحاكم ان رجلاً حبشياً أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والنبوّة أفرأيت ان آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت أكون معك في الجنة قال نعم ثم قال ﷺ من قال لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله ومن قال سبحان الله كتب له بها مائة ألف حسنة فقال رجل يا رسول الله كيف يهلك بعد هذا فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده ان الرجل ليجيء يوم القيـــامة بعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد تستنفد ذلك كله لولا ما يتفضل الله من رحمته ثم نزلت هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً الى قوله وملكاً كبيراً فقال الحبشي يا رسول الله وهل ترى عيني في الجنة مثل مـــا ترى عينك فقال نعم فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه رضي الله عنه

قال ابن عمر رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته بيده رواه الطبراني عن أيوب بن عتبة. وأخرج مغلطاى عن ابن أبي الدنيا كتاب الخوف باسناده الى عاصم البصري قال كنت إماماً بمسجد ابن جراد وكان يتردد إليّ رجل فسألني يوماً مصحفاً ينظر فيـه فأعطيته إياه فخرج وهو يقول فسيكون لي ولهذا المصحف نبأ عظيم واختفى فلم أره بقية اليوم يحضر الصلاة فلمـا كان الصباح دخلت عليه فوجدته ميتاً والمصحف على صدره فخرجت متفكراً في أي شيء أكفنه وإذا أنا بجماعة من العباد منهم حسان وحبيب وابن واسع

ومع كل كفن وحنوط فقـــالوا أتعرف هنا رجلا مات فقلت لا أعرف إلا رجلا غريباً كان يصلي هنا فقـــالوا أنت أشقى من أن تعرف ثم دخلوا عليه وجعلوا يتنافسون في تجهيزه ثم صلوا عليه ودفنوه ورأيت هذه الحكاية في أنيس الجليس إلا أنه زاد ورأيت المصحف مفتوحاً وأول سطر فيه الله نزل أحسن الحديث الآية

وفي الحلية عن ابن السماك قال دخلت البصرة على رجل أعرفه فسألته أن يدلني على رجل من العباد فدخلنا على رجـــل منكس الرأس كثير الصمت لابس الشعر فلم يكلمنا وخرجنا فقال لي أتدخل على ابن العجوز فدخلنا على شخص يشبه الأول وعنده أم له عجوز فقالت لا تذكروا لولدي ناراً ولا جنة فتفجعوني فيه فلما جلسنا عنده رفع رأسه فقال أما للعباد موقف يقفون فيه فقلنا بين يدي من خلقهم فشهق شهقة فارق الدنيا

وفيها قال دخل جماعـــة على أبي سعيد القطان فقرأ رجل منهم سورة الدخان فلما انتهى الى قوله انّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين جعـل يضطرب ويعلو صدره حتى غشي عليه وأصاب صدره فأدماه وجاءت النساء وخرجنا الى الباب فلما سكنت الغوغاه دخلنا عليه فاذا هو على فراشه يردد الآية حتى قضي عليه

وحكى مغلطاي عن ابن أبي الدنيا قال كرر ابن خليد قوله عز وجل كل نفس ذائقة الموت فناداه مناد كم تكرر هذه الآية فقد قتلت بهـا أربعة نفر من الجن لا يرفعون رؤوسهمْ حتى يموتوا ورأيت في أنيس الجليس القصة وزاد فيه ان رجلا قصد الحاج فضل عن الطريق تائهـاً أثر نوم فاذا هو في أرض لا يعهد مثلها واذا بقوم قد أقبـلوا الى ماء هناك فتوضئوا ودعوه الى الصلاة بهم فصلى وقرأ الآية فخرّوا إلى الارض وحركوا فوجـدوا أمواتاً وقائل يقول له يا عبد الله أنّ هؤلاء قوم من الجنّ قد اعتزلوا ههنا للعبادة وان الخوف لم يترك فيهم بقية وأنت إن أردت الحاج فامض أمامك فستظفر بأصحابك طلوع الفجر قال الرجل فكان كذلك

وعنه عن محمد بن صالح قال خرجنا ومعنا قارىء يقرأ فسمعته امرأة من أهل البصرة على سطح فاضطربت حتى غشي عليها واحتملت الى بيتها فلم نبرح حتى قضت نحبها وكان لها مشهد عظيم

وعن محمد عن منصور بن عمار قال مررنا في جوف الليل فاذا بشاب قائم يصلي وهو يقول في مناجاته إلهي ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بناكلك جاهل ولكن خطيئة عرضت وأعـــانني عليها شقائي وغرّني سترك المرخي وقد عصيتك بجهدي وخالفتك بجهلي فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك مني واشباباه واشباباه فلما فرغ تلوت آية من كتاب الله وهي فإن لم تفعلوا ولن تفعـــلوا الآيـــة فسمعت دكدكة وانقطع الصوت فلما أصبحنا رجعنا على الأثر واذا بجنازة وعجوز قد أخذ منها الكبر فسألناها فقالت مرّ قارىء بولدى فقرأ آية فتفرطت مرارته ومات

وعنه من طريق آخر الحكاية زاد فيها بعد قوله ان قطعت حبلك عني واسوأتاه إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا فيا ليت شعري أمع المثقلين نحط أو مع المخفين نجوز ويحي كلما طال عمري كثرت ذنوبي ويحي كلما كبر سني كبرت خطاياي فيا ويلي كم أتوب وكم أعـود ولا استحي من ربي قال منصور فلما سمعت كلام الشاب وضعت فمي على باب داره وقرأت الآيـــة المذكورة وعلمت الباب فلمـــا رجعت الحكاية الا انه ذكر عن العجوز ان الشاب كان يصنع الخوص ويبيعه ويقسمه بين القوت والصدقة وشراء الخوص.

وعن ذي النون المصري قال بينما أنا أسير على جانب البحر في الليل واذا أنا بجارية عليها أطمار شعر وهي ناحلة ذابلة فدنوت منها لسماع ما تقول واذا هي متصلة الأحزان بالأشجان وقد عصفت الرياح واضطربت الأمواج وظهرت الحيتان فصرخت وسقطت الى الأرض فأفاقت وهي تقول سيدي لك تقترب المتقربون في الخلوات ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات ولجلال قدسك تصافقت الامواج المتلاطمات أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء

النهار والفلك الدوّار والبحر الزخار والقمر النوّار والنجم الزهار وكل شيء عندك بمقدار لأنك العليّ القهار وأنشدت

أحبـــك حبين حب الوداد وحباً لأنـــك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فحب شغلت به عن سواك
وأمـــا الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

ثم شهقت شهقة فارقت الدنيا فوقفت متعجباً واذا بنسوة على أحسن ما يكون من الحالات قد أقبلن فاحتملنها ثم غبن وأقبلن بها قد جهزت فقدمنني للصلاة وهنّ ورائي فلما فرغت مضين بها

قال المختصر عن مغلطاي رأيت غير ما مرة شيخاً مغربياً يحمل على ظهره الخضر من باب زويلة الى الكتبيين ويكثر من إنشاد شعر بلا وزن مضمونه ان الحاكم أخذ ماله المتروك عن والده وأوراقاً كثيرة منها هذا الشعر وانه استمع ليلة لمحدّث في سيرة البطال وقد ذكر أن جماعة قتلوا في الجهاد فقال المغربي للمحدث وفيم قتل هؤلاء قال في سبيل الله قال المغربي وأنا ايضاً أموت في سبيل الله فقال له المحدث افعل فتمدد الى جـــانبهم فحرّك فاذا هو ميت .

وعن أبي الحسين أحمد بن أبي الحواري قال مررت في الشام بقبة واذا أنا بامرأة تدق الحائط فقلت لها ما بالك فقالت امرأة ضالة دلني على الطريق فقلت أي الطريق تريدين قالت طريق النجاة قلت هيهـات ان بيننا وبينه عقبات لا تقطع إلا بسير حثيث ونصح المعـــاملة وقطع العلائق الشاغله من أمور الدنيا والآخرة فقالت سبحان من أمسك عليك جوارحك فلم تنقطع وحفظ عليك فؤادك فلم ينصدع ثم خرّت مغشياً عليها فقلت للنساء حرّكنها فاذا هي ميتة ووصيتها الى جانبها ان كفنوني في أثوابي وخلوا ما بيني وبينه فان كان لي عنده خير فهو أسعد لي والا فبعد النفسي

وفي الأصل قيل كان بالموصل رجل نصرانيّ يكنى أبا اسمعيل وانه سمع

يوماً قارئاً يقرأ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً واليه ترجعون فبكى حتى غشي عليه ثم أسلم وصحب فنجا الموصلي فحدث عنه انه نظر يوماً الى الدخان يفور من المدينة فبكى وقال قد قرَّب الناس قربانهم فليت شعري ما قرباني وجعل يبكي حتى فارق الدنيا

هذا ما قرره من أول الباب الى هنا وفي كل نظر وذلك انه عقد الباب كله لعشاق الله ثم ذكر فصلاً لمن مات بذلك على انه قد ذكر قبل الفصل من مات وبعده من لم يمت بآخر وقال انه لعشاق الحور العين وقد أمطنا ما يتوقف فيه النظر حيث لم نذكر إلا ما يظهر فيه ظرف المناسبة ومن هنا الى آخر الباب لم يخالف أوله فلا فائدة في الفصل فتأمل

عن منصور بن عمار قال بينا أنا في السياحة إذ مررت بخدم وقصر ملكي لأتمكن الإحاطة بوصفه فهممت أن أدخله فانتهروني فلم أبالي بهم ودخلت فاذا أنا بشاب في أرفع طبقات الجمال والملابس وقد استحضر صبية تناسبه فلما رآني همَّ بقتلي فقلت أنا طبيب وقد رأيت فيك داء فقال وما هو قلت ميلك الى الفاني وحبك ما لا يبقى وغفلتك عما عند الله ثم وصفت له الجنة والنار وما فيها فتجرد من وقته وكان ملك البصرة فلما خرجنا وقد زال ما في القصر بن البهجة تعلقت به الصبية وقالت على من تتركني ثم تجردت وخرجا هائمين فلما كان بعد عام وانا في الطواف اذا أنابه يتضرع وقد أخلقته العبادة حتى لم أعرفه الى ان قال لي أما تعرفني يا طبيب ثم ذكرني بالحالة ثم قال لي هل لك ان تنظر الى نسوان يعني الصبية قلت نعم فأخذ بيدي حتى أوقفني عليها فلما رأتني قالت مرحباً أيها الطبيب ثم شهقت شهقة فارقت الدنيا فقال الرجلى اني على أثرها فلا تبرح ثم نظر اليها وخرَّ ميتاً

وعن عبد الواحد بن زيد قال اشتكيت ألماً في ساقي حتى منعني القيام فتحاملت حتى عجزت فجمعت ازاري في المحراب وتوسدته فغفلت واذا أنا بجارية كأنها جوهرة شفافة وعليها من الملابس ما يبهر العين رؤيته وخلفها جوار كأنهن الأقمار فقالت لبعضهن احتملنه ولا تؤذينه ثم قالت افرشنه

ومهدنه وأقبلت تملس على ألمي ثم قالت قم الى صـــلاتك بلا أذى فانتبهت كالذي نشط من عقال وعنه من رواية أخرى انهـا قالت له انا لك فجد في طلبك قال فلم أنم بعدها وفي أخرى عنه قال فما أخذتني السنة حتى رأيت شاباً وبيده ورقة بيضاء فناولني إياها واذا فيها

يتنام من شاء على غفلة والنوم كالموت فلا تتكل
تنقطع الأعمال فيه كما تنقطع الدنيا على المنتقل

وكان كثيراً ما يردد هذه ويقول فرّق الموت بين المصلين ولذة الصلاة ويعدد أفعال الخير ولعل الوقائع متعددة

وعن صاحب المصـــارع بسنده الى محمد بن الفرج قال نظرت الى جارية تباع فقلت بكم هذه قيل بألف دينار فرفعت رأسي الى السماء وقلت اللهم انك تعلم اني لا قدرة لي على ذلك واني لو سألتك إياهـــا لوهبتها لي ولكني أسألك أنفس منها عندك من لا تمرض ولا تسقم ومهرها عندي ان لا أنام ليلاً ولا أطعم نهـــاراً ولا أضحك الى أحد وها أنا مجد في المهر فلم ير بعد ذلك على غير ما قال حتى مات

وعن رابعة العدوية قالت كان لي ورد في الليل قد اعتدته فمرضت مرضاً أعقبني فترة عنه فبينما أنا راقدة إذ نظرت كأني في روضة كثيرة النبـــات والقصور وجارية تطارد طيراً أخضر تريد أن تأخذه فالتهيت بحسنها عنه وقلت دعيه لأني لم أر أحسن منه فقـــالت ألا أريك أحسن منه فقلت بلى فأخذت بيدي فأدخلتني الى بيت يحار فيه البصر من تلألؤ نوره ثم رفع عن بستان وخرج منه وصائف بأيديهن مجامر الند والعنبر فقالت لهن الآخذة بيدي الى أين فقالوا الى فلان قد قتل في البحر فقالت الا تجهزن هذه المرأة فقالوا قد كان لها حظ في ذلك فتركته فانتبهت فزعة ولم أنم بعدها وبقي من هذا الباب بعض حكايات لا تناسب الترجمة ومع ذلك فائدتها قليلة فلذلك أضربنا عنها

الباب الثاني

في أحوال عشاق الجواري والكواعب وذكر ما صدر لهم من العجائب

(وفيه خمسة أقسام الأول فيمن اشتهرت سيرته وظهرت في الحب سريرته)

قد تقدم في أحوال العشق انه من الأحوال القديمة حتى ورد فيه ما سمعت من الأخبار والآثار وغالب ما يكون من قبل النساء حتى قال بعض العارفين وأظنه الجنيد كما ان النساء حبائل الشيطان فهنّ حبائل العرفان إذ قد يتوصل العاقل من عشقهنّ الى معرفة مبدعهنّ لأن المقدمات الصريحة تنتج الأغراض الصحيحة وبالحري من أمعن النظر في مخلوق زائل ترقى عند معرفة غايته إلى دائم فاعل وهذا مثل قولهم الرياء قنطرة الاخلاص

عن ابن عباس قال لما عتقت بريرة وكان زوجها حبشياً وفي رواية أسود وخيرت فاختارت الفسخ جعل يطوف في المدينة باكياً يترضاها فقال لها رسول الله ﷺ لو تزوجته فقالت ان أمرتني بذلك فقال لا آمرك ولكني شفيع وقد أخرج القصة البخاري ، وفي تتمة ذيل الأمالي للقالي عن ابن الانباري قال دخلت على ابراهيم بن محمد وقد سامته جارية له البيع فأجابها وكان يحبها فأنشد :

أبت الغداة بوصلها غدّار　　فدموع عينك لا تجف غزار

واستبدلت بك صاحباً ومؤانساً　　وكذا الغواني وصلهن معار

وكان ابن عباس يوماً جالساً بفناء الكعبة إذ وضع بين يديه شخص قد حمله إلى الكعبة يستشفون له فكشف عنه فأنشد

بنا من جوى الاحزان والحب لوعة تكاد لها نفس الشفيق تذوب
ولكنّ ما أبقى حشاشة ما ترى على ما ترى عود هناك صليب

فرأى رسماً عافياً وحساً خافياً وجسماً بالياً فمكث أربعين يوماً لا يسأل الله بعد صلاته إلا المعافاة من العشق وأخرج ابن عساكر في الأمالي ان هذا المذكور عذري

وقال السيوطي في شرح الشواهد ان اسمه عروة بن قيس وأنه ولع بجارية من العرب فزوّجوه بها بشفاعة الحسين بن علي فأقام معها مدة وكانت أمه تقسم عليه ان يفارقها وهو يقول لها أخاف تلاف نفسي فلم ترض فلما كان يوم حر شديد وقفت حافية على الرمل وأقسمت لا تزول أو يفارق عروة الجارية ففارقها رفقاً بأمه فجعل يزداد به الوجد حتى امتنع من الطعام والشراب وعاود أهلها فأبوا عليه فأقام أياماً وحمل كما ذكر الكعبة فلم يغن عنه فلما عادوا به توفي في الطريق .

وحكي أن الأحوص بن جعفر الشاعر المشهور كان يهوى أخت زوجته ولا يفصح باسمها وفي الأمالي ان اسمها نخلة فتزوجت برجل من العرب اسمه مطر فاشتدّ بالأحوص الغرام فباح به وأنشد

أأن نادى هديلاً ذات فلج مع الأشواق في فنن حمام
ظللت كأنّ دمعك درسلك هوى نسقاً واسلمه النظام
تموت تشوّقاً طرباً وتحيـــا وأنت جوى بدائك مستهام
كأنك من تذكر أم حفص وحل وصالها خلق رمـــام
صريع مدامة غلبت عليه تموت لها المفاصل والعظام
واني من بلادك أم حفص سقى بلداً تحليـــه الغمام
أحل النعف من أحدوادني مساكنها الشبيكة أو سنام
سلام الله يا مطر عليهـــا وليس عليك يا مطر السلام
فـــلا غفر الإله لمنكحيها ذنوبهم وان صلوا وصاموا

كأن المالكين نكاح سلمي غداة يرومها مطر نيـــام
فان يكن النكاح أحل شيء فانّ نكاحها مطر احرام
فلو لم ينكحوا الاكفـــاء لكان كفيئها الملك الهمـــام
فطلقها فلست لها بكفء والاعض مفرقـــك الحسام

وساق في المطرب الحكاية بعينها إلا انه زاد بيتاً في الأول وهو

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

وقال في البيت الأخير والايعل مفرقك بـدل عض . وأخرج أبو الفرج الأصفهاني عن زياد بن غطفان قال كنا بباب الولاة واذا بإعرابي ينـادي من أراد أن يسمع العجائب فليدن مني فدنوت منه واذا هو الرمـــاح بن مالك القيسيفقلت ما عندك فقال اعلم اني علقت امرأة يقال لها أم جحدر فاتصلت بها وطال الأمر واني عتبتها يوماً فقلت لها الوصل عليك مردود فقالت مـا قضىالله فهو خير وارتحلوا عنا وطالالأمر وراجعني الشوق فنذرت مراجعتها ان دنت دارها فلما كان ذلك خرجت أتصفح احيـــاء العرب حتى وجدت امرأتين أمام البيت في كساء فسلمت عليها فردّت إحداهنّ وسألت عن شأني فأخبرتها فأشارت لي بدخول بيت فدخلت واذا الساكنة أم جحدر وقامت لتدخل إليّ وإذا بغراب ينعق فتغيرت فأقسمت عليها الا مـا اخبرتني عن تغيرك فقالت انّ الغراب يخبرني ان لا اجتماع ففارقتهـا وغدوت لمـا أصبح النهار فأخبرتني امرأة أخيها انّ شامياً خطبها الى أهلها فزوّجوه بها فجئت بالقرب من خبائها متردداً أياماً الى ان مضى بها فكنت أنشد

اجارتنا ان الخطوب تنوب عليّ وبعض الآمنين تصيب
اجارتنا لست الغداة ببارح ولكن مقيم ما أقام عسيب
فان تسأليني هل صبرتفانني صبور على ريب الزمان صليب
جرى بانبتات الحبل من أم جحدر ظباء وطير بالفراق نعوب
نظرتفلمأعيفوعافتوبينت لها الطير قبلي واللبيب لبيب

فقالت حرام ان نرى بعد يومنا جميعين إلا ان يلم غريب
اجارتنا صبراً فيا رب هالك تقطع من وجد عليه قلوب

وما نقله هنا من أن ابن ميادة سرق الأبيات فغير مسلم في الجميع وابن ميادة هو الرماح ابن مالك بن ابرد بن ميادة المشار اليه ، والأبيات له ما عدا الأولين ولهما ثالث لم يورده والثلاثة لأمرىء القيس بن حجر الكندي ولهما حكاية عجيبة هي انه لما قتل والده مضى الى قيصر ملك الروم يستنصره فوعده النصر فأقام بالقسطنطينية أياماً فرأته ابنة قيصر فعلقته وراسلته فاجتمع بها وفيها يقول الا انعم صباحاً القصيدة المشهورة وان القصة بلغت قيصر فكره قتله جهاراً للشنعة فألبسه حلة قد دهن زيقها بالسم وأمره بالمسير فلما بلغ جبلاً يقال له عسيب يبعد عن القسطنطينية مسافتين لعب فيه السم فنزل الى جانب قبر فلما أحس بالموت سأل عن القبر فقيل هو قبر امرأة غريبة فقال ادفنوني الى جانبها وأنشد البيتين الاولين وبعدهما

اجارتنا انا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

وأما قوله فان تسأليني هل صبرت الى آخر الأبيات فللرماح وما ذكر من ان الثالث لجاهلي لم يعلم له ناقل وقد ساق القصة ابن هشام في شرح الدريدية وذكرها ابن عساكر في تاريخه الكبير وقوله نظرت فلم أعيف يعني لم أدرك حال الفرقة من زجر الطير المعروف عندهم بالعيافة وهو علم نفيس ولنا فيه رسائل وأخبر ابن دريد عن عمه قال عشقت حبيبة الحضرية ابن عم لها فدرى قومها فحجبوها فأنشدت

هجرتك لما ان هجرتك أصبحت بنا شمتاً تلك العيون الكواشح
فلا يفرح الواشون بالهجر ربما أطال المحب الهجر والحب ناصح
وبعد النوى بين المحبين والهوى مع القلب مطوي عليه الجوارح

وهذا الذي ذكر من أول الباب الى هنا كالمقدمة لهذا الباب وقد آن الشروع في مقاصده وأصدرها بأحد العشاق الأربع قال الفارسي في تنزيه

النفس من لدن أدار الله الأفق على نظام التربيع حيث جعل دائرة العالم العلوي أربعة والعناصر والرياح والطبائع كذلك جعل المذاهب وطريقة الحقيقة يعني مسالك الصوفية والعشاق كذلك وكل من هذه معروف في مواضعه فأما العشاق فجميل بثينة ومجنون ليلى وكثير عزة وقيس لبنى وهذا سر إشارة الاستاذ في التائية وغيرها الى ما ذكر كقوله

بها قيس لبنى هام بل كل عاشق كمجنون ليلى أو كثير عزة

وأقدم الكلام على جميل لأنه كما يقال أنسب الأربعة وأما تقديمه في نزهة النفوس المجنون فمراعاة للأولية وجميل المذكور هو ابن عبد الله بن عامر يتصل نسبه بقضاعة

كذا قاله مغلطاي عن أبي الفرج الأصفهاني كان شاعراً فصيحاً منطقياً صادق الصبابة عفيفاً منزهاً عن الرذائل عارفاً بالنسيب ، روى عنه كثير وهو عن هدبة ابن الخشرم عن الحطيئة عن زهير بن أبي سلمى بضم السين صاحب المعلقة نشأ في قومه بني ربيعة بوادي القرى بين المدينة ومكة فعلق بثينة بن يحيى بن ثعلب من قومه صغيرين فلما انتشأ خطبها فردّ لأن العرب كانت تستهجن ان تزوّج من جرى بينهما عشق فكان يأتيها سراً يتحادثان فعلموا به فأرادوا قتله وانها غمزته عن ذلك فاستخفى وفي ذلك يقول

فلو ان الغادون بثنة كلهم غيارى وكل حارب مزمع قتلى
لحاولتها اما نهاراً مجاهراً وأما سري ليل ولو قطعت رجلي

فلما شاع ذلك شبب حوّاش أخو بثينة بأخت جميل وتفاخرا فغلبه جميل بشهادة العرب حتى قالوا له قل ما شئت في نفسك وأبيك وأنت الباسل الجواد ولحوّاش قل وأنت دونه في نفسك ويقال ان سبب عشقه بثينة انه سرح أبله يوماً بواد البغيض وانسطح فأتت مع جوار يملأون الماء فعبثت بفصيل له فتسابا وهذا أخذ من قوله

وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب

وقلت لها قولاً فجاءت بمثله   لكل كلام يا بثين جواب

واستعدى أهلها عليه مروان بن هشام الحضرمي وكان والياً من قبل عبد الملك على تيماء وقيل ربعي بن دجاجة فتوعده فمضى مستخفياً الى الشام وقيل الى سيد من بني عذرة فأحسن مكانه وزين سبع بنات له رجاء ان يعلق واحدة منهنّ فيزوجه بها فكن يرفعن الخباء إذا أقبل جميل ففطن لذلك فأنشد

حلفت لكيما تعلميني صادقاً   وللصدق خير في الأمور وأنجح
لتكليم يوم واحد من بثينة   ورؤيتها عندي الذوا ملح
من الدهر أواخلو بكنّ وإنما   أعالج قلباً طامحاً حيث يطمح

وفي نزهة النفوس

لرؤية يوم واحد من بثينة   ألذ من الدنيا لديّ وأملح

وهو أحسن تركيباً وأظهر في أعمال أفعل التفضيل وقوله من الدهر معمول ٣ حلفت وفي نسخة مدى الدهر وهو أحسن وأنسب فقيل الشيخ أرخين الخباء فوالله لن يفلح أبداً يعني لا يرجع عن العشق ويدل للاول قوله:

أتاني عن مروان بالغيب انه   مقيد دمي أو قاطع منلسانيا
ففي العيش محياة وفي الارض مهرب   اذا نحن دافعنا لهن المثانيا

ويحتمل تعدّد الواقعة ولما عزل عاد وقيل مما استدل به على تمكن عشقه لها وانه لا يمكن سلوه عنها مع حكاية البنات المذكورة قوله فيما رواه الشهاب محمود في منازل الاحباب عنه

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل   الى الآن ينمي حبها ويزيد
وأفنيت عمري في انتظار نوالها   وأفنت بذاك الدهر وهو جديد

وللعشاق من أمثال ذلك كثير فمن ذلك قول عروة

هواها هوى لا يعرف القلب غيره   فليس له قبل وليس له بعد

وقول المجنون

ولمـــا أبى الا جماحاً فؤاده ولم يسل عن ليلى بمال ولا أهل
تسلي بأخرى غيرهـــا فاذا التي تسلي بها تغري بليلى ولا تسلي

وأعظم ما قيل في هذا المعنى واسجم وألطف وأرق واصنع وامنع قول الاستاذ رحمه الله

حديثي قديم في هواها ومثاله كما علمت بعد وليس له قبل

فانه قد جمع معاني الأبيات المذكورة الصناعات البديعية من المقابلة الضدية والطرفية ولعمري انها لم تجتمع لغيره فيما نعلم وعن مغلطاي عن أبي الفرج وشت جارية بجميل وبثينة الى أبيها وانه الليلة عندها فأتى وأخوها مشتملين معتمدين سيفيهما لقتله فسمعاه يقول لهـا بعد شكوى شغفه بهـا هل لك في طف،،ما بي بما يفعل المتحابان فقالت قد كنت عندي بعيداً من هـــذا ولو عدت اليه لن ترى وجهي أبداً فضحك ثم قال والله ما قلته الا اختباراً ولو أجبت اليه لضربتك بسيفي هذا ان استطعت والا هجرتك أما سمعت قولي:

واني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرّت بلابله
بلى وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي أواخره لا نلتقي وأوائـــله

فقالا لا ينبغي لنا إيذاء من هذه حالته ولا منع التزاور وانصرفا وسأل عبد الملك يوماً كثيراً عن حال جميل وبثينة فقال يا أمير المؤمنين سايرته يوماً اليها فلما وصلنا بالقرب منهم أقبلت مع نسوة فلما رأينه ولين ووقفا يتحادثان من أول الليل حتى طلع الفجر ثم قالت حين ازمعا الفراق ادن مني فـــدنا فأسرّت اليه فخرّ مغشياً عليه فلما أفاق أنشد

فما ماء مزن في جبال منيفة ولا ما أكنت في معادنها النحل
بأشهى من القول الذي قلت بعدما تمكن في حيزوم ناقتي الرحل

وعن كثير قال سألني جميل أخذ موعد من بثينة فقلت هل بينكما موعد

قال بوادي الدوم وهي تغسل الثياب فجئت أباها وهو جالس فحادثته قليلاً ثم أنشدته

وقلت لها يا عز ارسل صاحبي على نأي دار والموكل مرسل
فان تجعلي بيني وبينك موعداً وان تأمريني بالذي فيه أفعل
وآخر عهد منك يوم لقيتني بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

فضربت سجاف البيت وقالت اخسأ فقال أبوها ما هذا فهذا كلب يأتينا من وراء هذه الرابية اذا نام الناس فمضيت واخبرته فأقبل حتى اجتمعا ليلة وسارّته كما سلف إلا انه أنشد البيتين عند افاقته لم يغير فيهما غير ان قال نما مكفهرّ في مجامر جنة ولا ما أسرّت وعن مغلطاي قال دخلت بثينة على عبد الملك وقد أخلقها الدهر فقال لها ما الذي رأى فيك جميل حتى عشقك فقالت ما رأي فيك الناس حتى ولوك الخلافة فضحك حتى بدت له سن سوداء كان يسترها ودخل مصعب بن الزبير يوماً على زوجته عائشة بنت طلحة وكان شغفها بها فوجدها تتمشط فتمثل بهذا البيت

ما انس لا انس منها نظرة عرضت بالحجر يوم جلتها أم منظور

فقيل له ان أم منظور المشار اليها فى هذا البيت موجودة فاستحضرها واستحكاها عن سبب قول جميل هذا البيت فقالت كنت ماشطة لبثينة واني زينتها يوماً فأقبل على بعير ماراً فرآها بمؤخر عينيه فأنشد البيت فأمرها مصعب ان تصنع بعائشة كذلك وصنع هو كجميل وله فيها من الأشعار ما لا يحصى ما بين وصف ونسيب وذكر حكاية الى غير ذلك فمن مستجادها اللامية التي أنشدها لعمر بن أبي ربيعة وكان من أجل معاصريه في الشعر لقيه يوماً فتفاخر واستنشده جميل فأنشد

ألم تسأل الاطلال والمتربعا ببطن خليات دوارس بلقعا
أتانا رسول من ثلاث كواعب ورائقة تستجمع الحسن اجمعا
فلما توقفنا وسلمت اقبلت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا

تباهن بالعرفان لما عرفنني وقلن امرؤ باغ أضل وأوضعا
وقرّبن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعاً كلما قسن أصبعا
فقلت لمطريهنّ بالحسن إنما ضررت فهل تستطيع نفعاً فتنفعا

فأنشده جميل أثر هذا القصيد قصيدته المشهورة التي أوّلها

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلاً يا جميل وإنني لاقسم مالي عن بثينة من مهل
أحلماً فقبل اليوم كان أوانه وأخشى فقبل اليوم أوعدت بالقتل

ومنها

إذا ما تناشدنا الذي كان بيننا جرى الدمع من عيني بثينة بالكحل
كلانا بكى أو كاد يبكي صبابة إلى ألفه فاستعجلت عبرة قبلي
فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها ويا ويح أهلي ما أصيب به أهلي
خليليّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي

ومنها بيتان أنشدهما وقد مرّ به رجل فأضافه فريداً فجعل يأكل ويبث وجداً به على ابنة عمه حتى أتى عليه وهما

ويعجبني من جعفر أنّ جعفراً يلح على قرصي ويبكي على جمل
فلو كنت عذريّ العلاقة لم تكن بطيناً وأنساك الهوى كثرة الأكل

ولما أنشد جميل هذه القصيدة قال لعمر يا أبا الخطاب هل لك في هذا الروي شيء قال نعم وأنشد

جرى ناصح بالودّ بيني وبينها فقربني يوم الخضاب إلى قتلي
وطارت بوجد من فؤادي ونازعت قرينتها حبل الصفاء إلى حبلي
فما أنس ما الأشياء لا أنس موقفي وموقفها يوماً بقارعة النخل
فلما تواقفنا عرفت الذي بها كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

ومنها

فسلمت واستأنست خيفة أن يرى عدوّي بكائي أو يرى كاشح فعلي
فقالت وأرخت جانب الستر إنما معي فتحدّث غير ذي رقبة أهلي
فقلت لها ما بي لهم من ترقب ولكنّ سري ليس يحمله مثلي

وقيل أنّ جميلاً لم ينشده في هذه المرّة شيئاً بل قال له امض بنا إلى بثينة فقال له قد حجر عليّ فقال دلني على أبياتها ففعل ومضى عمر فاجتمع بها ثم عاد ثانية وتلاقيا فأنشد جميل رائيته وهي

خليليّ عوجا اليوم حتى تسلما على عذبة الأنياب طيبة النشر
فانكمـــا ان عجتمالي ساعـة شكرتكما حتى أغيب في قبري
وإنكما ان لم تعوجـــا فانني سأصرف وجدي فأذنا اليوم بالهجر
وما لي لا أبكي وفي الأيك نائح وقد فارقتني شختة الكشح والخصر
أيبكي حمام الأيك من فقد ألفه واصبر ما لي عن بثينة من صبر
يقولون مسحور يجنّ بذكرها فأقسم ما بي من جنون ولا سحر
واقسم لا أنساك مـا ذر شارق ومـــا هب آل في معلمة قفر
ومـا لاح نجم في السماء معلق وما أورق الأغصان من ورق السدر
لقد شغفت نفسي بثين بذكركم كما شغف المجنون يا بثن بالخمر
ذكرت مقامي ليلة البان قابضاً على كف حوراء المدامع كالبدر
فكدت ولم أملك اليهـــا صبابة أهيم وفاض الدمع مني على النحر
فيا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة كليلتنا حتى نرى ساطع الفجر
تجود علينـــا بالحديث وتارة تجود علينـــا بالرضاب من الثغر
فليت إلهي قد قضى ذاك مرة فيعلم ربي عند ذلك ما شكري
ولو سألت مني حياتي بذلتهـــا وجدت بها ان كان ذلك من أمري

فلما سمعها عمر أعجب بها ثم قال لجميل دونك هذه وأنشد

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر

ومنها

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه ... وروّح رعيان ونوّم سمر
فحييت إذ فاجأتها فتولهت ... وكادت بمكتوم التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتني ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك أذ هنا عليك ألم تخف ... رقيباً وحولي من عدوّك حضر
فوالله ما أدرى التعجيل حاجة ... أتى بك أم قد نام ما كنت تحذر
فقلت لها بل قادني الشوق والهوى ... اليك وما عين من الناس تنظر
فيا لك من ملقى هناك ومجلس ... لنا لم يكدّره علينا مكدّر
يمج ذكاء المسك منها مفلج ... رقيق الحواشي ذو غروب مؤشر
يرق إذا تفترّ عنه كأنه ... حصا برد أو أقحوان منوّر
وترنو بعينيها إليّ كما رنا ... الى زرنب وسط الخميلة جؤذر
فلما تولى الليل الا أقبله ... وكادت توالى نجمه تتغوّر
أشارت بأن القوم قد كان منهم ... هبوب ولكن موعد لك عزور
فما راعني إلا منادٍ برحلة ... وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر
فلما رأت من قد تنوّر منهم ... وإيقاظهم قالت أشر كيف تأمر
فقلت أباديهم فأما أفوتهم ... وأما ينال السيف ثأراً فيثأر
فقالت أتحقيق لما قال كاشح ... علينا وتصديق لما كان يؤثر
إذا كان ما لا بد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر
أقص على أختيّ بدء حديثنا ... وما لي عما يعلما متأخر
لعلهما أن ينعتا لك حيلة ... وأن يرحبا صدراً بما كنت أحصر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ... أقلي عليك الخطب فالأمر أيسر
يقوم فيمشي بيننا متستراً ... فلا سرّنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجني دون من كنت أتقي ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر
فلما انخنا ساحة الحيّ قلن لي ... ألم تتق الأعداء والليل مقمر

وقلنا أهذا دأبك الدهر سادراً أما تنتهي أو ترعوي أو تفكر

وقد أنشد عمر هذه القصيدة لعبد الله بن عباس بحضرة نافع بن الأزرق واتفق أهل ذلك العصر على انه ليس أحد أشعر من جميل وابن أبي ربيعة ، وكان جميل يثني على ابن أبي ربيعة كثيراً وكان الناس يقولون هو في عينيته أشعر وجميل في لاميته والذي يظهر أن جميلاً أشعر مطلقاً عند التأمل ، ومن أشعار جميل أيضاً قوله :

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهراً تولى يا بثين يعود
فنبقى كما كنا نكون وأنتم صديق وإذ ما تبذلين زهيد
وما أنس ما الأشياء لا أنس قولها وقد قربت نحوي أمصر تريد
ولا قولها لولا العيون التي ترى أتيتك فاعذرني فدتك جدود
خليليّ ما أخفي من الوجد ظاهر ودمعي بما أخفى الفؤاد شهيد
ألا قد أرى الله لا ربّ غيره إذا الدار شطت بيننا سنزود
إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي من الحبّ قالت ثابت ويزيد
وان قلت ردّي بعض عقلي أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فما ذكر الخلان الا ذكرتها ولا البخل الا قلت سوف تجود
فلا أنا مردود بما جئت طالباً ولا حبها فيما يبيد يبيد
جزتك الجوازي يا بثين سلامة إذا ما خليل بان وهو حميد
وقلت لها بيني وبينك فاعلمي من الله ميثاق له وعهود
وقد كان حبيكم طريفاً وتالداً وما الحب إلا طارف وتليد
وانّ عروض الوصل بيني وبينها وان سهلته بالمنى لصعود
فأفنيت عيشي بانتظار نوالها وأبلت بذاك الدهر وهو جديد
فليت وشاة الناس بيني وبينها يدوف لهم سما طمائم سود
وليتهم في كل ممسى وشارق تضاعف أكبال لهم وقيود
ويحسب نسوان من الجهل أنني إذا جئت إياهنّ كنت أريد

فأقسم طرفي بينهنّ فيستوي وفي الصدر بون بينهنّ بعيد
ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بوادي القرى اني إذاً لسعيد
وهل اهبطن ارضاً تظل رياحها لها بالثنايا الثـاويات وئيـد
وهل القين سعدي من الدهر مرة ومـا من حبل الوصال حديد
فقد تلتقي الأهواء من بعد يأسها وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
وهل ازجرن حرفاً علاة شملة بخرق تباريها سواهم قـود
على ظهر سرحوب كأن نسوره إذا حار هلاك الطريق رقـود
سبتني بعيني جؤذر وسط ربرب وصدر حكى لون اللجين وجيد
تزيف كما زافت الى سلفاتها مباهيـة طيّ الوشاح ميود
إذا جئتها يوماً من الدهر زائراً تعرّض منقوص اليدين صدود
يصد ويغضي عن هواي ويجتني ذنوباً علينـا انـه لعنـود
فاصرمها خوفاً كأني مجانب ويغفـل عنـا مرّة فنعـود
فمن يعط في الدنيا قريناً كمثلها فذلك في عيش الحيـاة رشيد
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتهـا فيعود
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأيّ جهـاد غيرهنّ أريـد
لكل حديث بينهنّ بشاشـة وكـل قتيـل بينهنّ شهيد
إذ فكرت قالت أدركت ودّه وما ضرّني بخـلي ففيم أجـود
ومن كان في حبي بثينة يمتري فبرقاء ذي ضـال عليّ شهيد
ألم تعلمي يا أم ذا الودع انني أضاحك ذكراكم وأنت صلود

ومما كان يلهج بهذه القصيدة لرصانتها ولطفها معبد وكان من أشهر الناس بالدخول وضرب العود والغناء والغريض ، وكان أعظم منه حكى عنه في الأغاني ان الجنّ افتتنت به فأخرجوه الى مكة فأقام بها لا يفتح بابه وان معبداً اراد الاجتماع به فقصده وأقام يطرق الباب فلم يجب فهجس له انه لا يخرجه إلا الغناء فأنشد علقت الهوى منها وليداً البيت فلم يشعر إلا وقـد

فتح الباب وأذن له فدخل عليه فتحادثا وأنشده (وما انس ما الأشياء لا انس قولها) الى خمسة ابيات ثم قال إنما غنيتك ذلك لأني علمت انك تريد ان اغنيك

وما انس ما الأشياء لا انس شادنا بمكة مكحول لا اسيلا مدامعه

وان الجنّ قد نهتني عنه ، قال معبد فقلت لم تعد ما اريد ثم فارقته حين رأيته يستثقل المجالسة وطلبت ان يكمل لي السرور بأن أضم إلى اجتماعي به اجتماعي بمن رأى جميلاً لا آخذ عنه القصيدة فنعت لي شيخ في بني عذرة فجئته فسألته عن جميل فحدّث انه كان في إبل له وإذا رجل غشاه فنزل به فلما ائتلفا قال له هل لك ان تصنع معي من الخير ما لو كانت لك الدنيا ذهباً وانفقتها عليّ لم تبلغ معشاره قلت وما هذا قال تمضي الى وراء السفح فتنشد لي بكرة صفتها كذا قلت نعم ومضيت فوجدت العرب مجتمعين على جزور ينحر فاستطلعتهم عنها ثم استأذنتهم في البيوت وقلت لهم انّ النساء أدرى بالمارة فأذنوا فانصرفت اتصفح الحي الى ان احتدم النهار ولم اظفر بطلبة وإذا انا بثلاث بنات فقلت لا انصرف اليه وأدع هذا اليسير فجئتهن فسلمت فرددن ثم استنشدتهن البكرة فقالت إحداهن قد أصبت حاجتك ثم أدخلتني بيتاً وأتتني بقدح مفضض فيه تمر وصحفة شامية مفضضة فيها لبن فتناولت كفايتي ثم قالت ان بكرتك تأتي هذه الشجرة فتطوف بها الليل فرجعت اليه وحدثته القصة فابتهج كالذي أصاب بغيته وأنا لا أدري

فلما جاء الليل وآنس ان قد نمت عمد إلى رحله فاستخرج بردين ملوكيين من برود الخلافة فأتزر بأحدهما واتشح بالآخر ومضى فتبعته بحيث لم يشعر حتى تلاقيا فلم يكن بينهما إلا ما يرضي الوشاة الى ان رأيا الصبح فلما أزمعا الفراق سبقته ونمت وجاء فصلى ثم نبهني وهو مسرور فأكل معي وشرب ثم أخبرني انه جميل وانها بثينة ثم أعطاني برداً واعتذر وودعني بعد ان قال هل لك ان تمضي فتنشدها أبياتاً قلتها بعد منصرفي عنها قلت نعم فانشدني وما انس ما الأشياء الأبيات الخمسة فمضيت اليها فقلت قد جئت بالأمس طالباً واليوم

مسلماً وذكرت تناءه ووجده ثم قلت هل أنت بارزة إليّ قالت نعم فسمعت جارية تقول لها يا بثينة ان عليه برد جميل ثم خرجت في زينة وقالت يا أخا تميم ان بردك لا يشبه ما عليك واستخرجت ملاءة مصبغة بالعصفر واقسمت ان اتشح بها ففعلت وانشدتها ما قال ورجعت بملحفة بثينة وبرد جميل وحكي الشيخ لمعبد ان جميلاً لما اجتمع ببثينة قالت له هل قلت شيئاً فأنشدها

علقت الهوى منها وليداً ولم يزل	الى اليوم ينمي حبها ويزيد
وافنيت عمري في انتظاري نوالها	وافنت بذاك الدهر وهو جديد

قال معبد فرجعت جذلان بما اجتمع لي مما طلبت ، وعن أبي زيد حين قرئت عليه هذه القصيدة ان هذين البيتين يليهما قوله فلا انا مردود البيت وفي نسخة ان قوله فما انس ما الأشياء بعد قوله فما انا مردود ومنه برواية مغلطاي :

وكأن طارقها على علل الكرى	والنجم وهناً قد دنا التغوّر
نشوان ريح مدامة معلولة	بذكيّ مسك او سحيق العنبر
اني لأحفظ غيبكم ويسرني	لو تعلمين بصالح ان تذكري
ويكون يوماً لا أرى لك مرسلاً	أو نلتقي فيه عليّ كأشهر
يا ليتني أخشى المنية بغتة	ان كان يوم لقائكم لم يقدر
لو استطيع تجلداً عن ذكركم	فأفيق بعد صبابتي وتفكري
لو تعلمين بما أجن من الهوى	لعذرت أو لظلمت ان لم تعذري
فلتبكين الباكيات ولم أبح	يوماً بسرك معلناً لم أغدر

ومنه

منع النوم شدة الاشتياق	وادكار الحبيب يوم الفراق
ليت شعري اذا بثينة بانت	هل لنا بعد بينها من تلاق

ولقد قلت يوم نادى المنادي مستحثاً برحلة وانطلاق
ليت لي اليوم يا بثينة منكم مجلساً للوداع قبل الفراق
حيث ما كنتم وكنت فاني غير ناس للعهد والميثاق

وعن ابن عياش قال لقيت عجوزاً من بني عذرة فقلت لها هل تروي شيئاً عن جميل ومحبوبته قالت نعم كنت يوماً وبثينة قد انفردت تبرم غزلاً والعرب قد اعتزلت الطريق خوف المارة الى الشام واذا برجل قد اقبل الينا فاستثبتناه فاذا هو جميل فقلت له قد عرضتنا ونفسك شراً فمن أين جئت، قال من هذه الهضبة ولي بها ثلاثة انتظر الفرصة لاحدث بكم عهداً فاني ذاهب الى مصر فحدثنا ساعة وهو لا يتماسك فجئته بقدح فيه تمر واقط فنال منه يسيراً ثم ودع ومضى فلم نلبث ان جاء اهل الحي ومنه

أرى كل معشوقين غيري وغيرها يلذان في الدنيا ويغتبطان
وامشي وتمشي في البلاد كأننا أسيران للأعداء مرتهنان
أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها لي الويل مما يكتب الملكان
ضمنت لها ان لا أهيم بغيرها وقد وثقت مني بغير ضمان
الا يا عباد الله قوموا لتسمعوا خصومة معشوقين يختصمان
وفي كل عام يستجدان مرة عتاباً وهجراً ثم يصطلحان
يعيشان في الدنيا غريبين أينما أقاما وفي الأعوام يلتقيان

وعن سهل الساعدي قال قال لي رجل هل تعود جميلاً فانه مريض، فدخلنا عليه فاذا هو يجود بنفسه، فنظر إليّ وقال ما تقول في رجل لم يزن قط ولم يشرب خمراً ولم يسفك دماً ويشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله منذ خمسين سنة . قلت من هذا فاني اظنه ناج قال انا قلت عجيب منك تشبب ببثينة هذه المدة وانت كذلك قال انا في آخر يوم من الدنيا لأنالتني شفاعة محمد ان كنت وضعت يدي عليها بريبة واكثر ما كان مني ان اسند يدها الى فؤادي استريح ساعة ثم أغمي عليه فلما افاق انشد

صرح النعي وما كني بجميل　　وثوى بمصر ثواء غير قفول
قومي بثينة فاندبي بعويل　　وابكي خليلك دون كلّ خليل

ولما حضرته الوفاة قال من ينعاني الى بثينة قال رجل انا فأعطاه حلته فراح حتى جاء الحي فأنشد

بكر النعي وما كني بجميل　　وثوى بمصر ثواء غير قفول
بكر النعي بفارس ذي همة　　بطل اذا حمّ اللقاء مذيل

فسمعته بثينة فخرجت مكشوفة تقول

وان سلوي عن جميل لساعة　　من الدهر لا حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر　　اذا مت بأساء الحياة ولينها

ثم قالت للناعي يا هذا ان كنت صادقاً فقد قتلتني وان كنت كاذباً فقد فضحتني فقلت لها والله إني لصادق واخرجت الحلة فلما رأتها صرخت وصكت وجهها واقبل النساء يبكين معها حتى خرت مغشياً عليها ، ثم افاقت وانشدت وان سلوي البيتين فلم يسمع منها غيرها حتى قضت .

اخبار كثير عزة

هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الشهير بأبي جمعة قد أوصله الكلبي في جمهرة النسب إلى مـاء السماء بن حارثة بن ثعلبة المشهور أحـد اولاد الأزد ومن اجداده عمرو بن ربيعة الذي دعا العرب عن دين ابراهيم إلى عبادةالأصنام واقترح السوائب والبحيرة فرآه رسول الله ﷺ ليلةالمعراج يجر قصبه في النار وهو من خزاعة سموا بذلـك لانقطاعهم عن الأزد أيام سيل العرم وجاؤا إلى الشام وهو صاحب عزة بنت جميل ابن حفص بن اياس بن عبد العزى يتصل نسبها الى عبد مناف علقهـــا جارية قد كعبت نهودها بدليل قوله

نظرت اليها نظرة وهي عاتق   على حين ان شبت وبان نهودها
نظرت اليها نظرة مـا يسرني   بها حمر انعـــام البلاد وسودها

وكان سبب دخول الهوى بينهما ان كثيراً مرّ بغنم له ترد الماء على نسوة من ضمرة بوادي الخبت فأرسلن له عزة بدريهمات تشتري بها كبشاً لهنّ منه فنظرها نظرة متأمل فداخله منها ما كان ، فردّ الدراهم واعطاها الكبش ، وقال ان رجعت أخذت حقي فلما عاد سألته ذلك فقال لا أقتضي إلا من عزة فقلن له ليس فيها كفاءة فاختر إحدانا ، فأبى وأنشد البيتين ، فجعلن يبرزنها له كارهة ثم داخلها ما داخله وانه خرج يوماً ومعه اداوة ماء فجفت من الحر ورفعت له نار فأمها وإذا بعجوز فناشدته من الرجل فقال صاحب عزه فقالت له انت القائل

إذا ما أتينا خلة كي تزيلنا ابين وقلن الحاجبية أول
سنوليك عرفا ان أردت وصالنا ونحن لتلك الحاجبية أوصل

هلا قلت كما قال جميل

يا رب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تأمل حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في قلبي كقدر قلامة فضلاً لغيرك ما أتتك رسائلي

والله لأسقيتك شيئاً فتركها وانصرف ولما اشتدت حالته انشد

يزهدني في حب مية معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الآذان إلا من القلب

هكذا رواه ابن اسحاق ، وقال الشهاب محمود بذلك ونقل في الطبقات الأبيات إلا انه قال يزهدني في حب عزة معشر

ثم قال هذه الأبيات لكثير وقد توهم قوم انها لذي الرمة بدليل قوله : يزهدني في حب مية معشر ، وليس كذلك وإنما كان سهواً ، ودخل كثير على عبد الملك ابن مروان فقال له وقد كان يتهمه بالتشيع بحق علي هل رأيت أعشق منك ، فقال لو أقسمت عليّ بحقك لأخبرتك فقال بحقي إلا ما أخبرتني فقال يا أمير المؤمنين خرجت يوماً واذا انا بصياد قد نصب شبكته ليصطاد ما يسدّ به رمقه فقلت له ان ساعدتك شاركني فيما يكون قال نعم فجاءت ظبية فوقعت في الأحبولة فسبقني اليها فحلها ثم مسح وجهها وقبلها وأطلقها وأنشد

أيا شبه ليلى لا تراعى فانني لك اليوم من وحشية لصديق
أقول وقد أطلقتها من وثائقها فأنت لليلى ما حييت طليق
فعينك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

ودخلت عزة على أم البنين بنت عبد العزيز فقالت لها مـــا الحق الذي مطلته كثيراً إذ قال

قضى كل ذي حق فوفى حقوقه وعزة ممطـول معنى غريمهـــا

فقالت وعدته قبلة فقانت نجزيها وعليَّ اثمها وفي رواية ان الحكاية مع سكينة بنت الحسين . وفي الذيل من روايـــة الفارسي قضى كل ذي دين فوفى ديونه . وفي أخرى غريمه ، وللبيت حكاية من عجيب الاتفاق هي ان كثيراً كان له غلام يتجر على العرب فأعطى النساء الى أجل ، فلمـا اقتضى ما له منهن ماطلته عزة فقال لها يوماً وقد حضرت في نساء اما آن ان تفي بما عندك فقالت كرامة لم يبق الا الوفاء . فقال صدق مولاي حيث يقول قضى كل ذي دين وأنشد البيت فقلن له أتدري من غريمتك فقال لا نلن هي والله عزه فقال أشهدكنّ عليَّ انها في حل مما عندها ومضى فأخبر مولاه بالحكاية فقال له وأنت حر وما عندك لك ، ورأيت في روضة الدولتين لأبي شامة ان الذي وهبه كثير ألف دينار وأنشد حين أعتق الغلام

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم إذا غاله من حادث الدهر غائله
يودّ بأن يمسي سقيماً لعلـــها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلا لتحمد يوماً عند عز شمـــائله

ودخلت عزة على عبد الملك فقال لها أتروين قول كثير

لقد زعمت اني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
تغير جسمي والخليقة كالتي عهدت ولم يخبر بسرك مخبر

فقالت لا أدري هذا ولكن أروي قوله

كأني أنادي صخرة حين اعرضت من الصم لو يمشي بها العصم زلت
صفوحاً فما تلقـــاك الا بخيلة فمن سلّ منها ذلك الوصل ملت

فضحك من ذلك وقيل أنه سألها عن قوله قضى كل ذي دين وهــذان البيتان من قصيدة طويلة رواها في الذيل عن ابن دريد عن عمه عن حماد عن كثير وقال انها من عجائب شعره وهي :

خليليّ هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم أبكيا حيث حلت
وما كنت أدرِي قبل عزة ما البكا ولا موجعات الحزن حتى تولت

وفي رواية ولا موجعات القلب البيت

فقد حلفت جهداً بما نحرت له قريش غداة المازمين وصلت
أناديك ما حج الحجيج وكبرت بفيفاً غزال رفقــة وأهلت
وكانت لقطع الحبل بيني وبينهـا كنا ذرة نذراً فأوفت وحلت
فقلت لهـــا يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
ولم يلـق انسان من الحب ميتــة تغم ولا غمـــاء إلا تجلت

كأني أنادي البيتين

أباحت حمى لم يرعه الناس قبلها وحلت تلاعاً لم تكن قبل حلت
فليت قلوصي عند عزة قيدت بحبل ضعيف حزمنهـا فضلت
وغودر في الحي المقيمين رحلهـا وكان لهـــا باغ سواي! فدلت
وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت
وكنت كذات الظلع لما تحاملت على ظلعها بعد العثـار استقلت
أريد التواء عندها وأظنهـــا اذا ما أطلنا عندها المكث ملت
فما انصفت اما النساء فبغضت إلي وامـــا بالنـوال فضنت
يكلفها الخنزير شتمي ومـا بهـا هــواني ولكن للمليك استذلت
هنيئاً مريئاً غـــير داء مخامر لعزة من أعراضنا مـا استحلت

ومن أول القصيدة الى قوله فما أنصفت لزوم ما لا يلزم ولم يخالفه إلا في البيت المذكور ، وللبيتين اللذين بعده حكاية هي ان كثيراً سافر مع جماعة

الى مكة فاتفق ان خرجت عزة وزوجها في ذلك العير ، فلما كان في أثناء الطريق مرت بجمل له فسلمت على الجمال فبلغ كثيراً ذلك فجاء الى الجمل فحله وأطلقه من الحمل وانشد

حيتك عزة بعد الهجر وانصرفت   فحي ويحك من حياك يا جمل
ليت التحية كانت لي فأرددها   مكان يا جمل حييت يا رجل

زاد أبو علي بيتاً بين هذين وهو

لو كنت حييتها ما زلت ذامقة   عندي ولا مسك الادلاج والعمل

ثم اتفق ان زوجها أمرها ليلة ان تقتبس ناراً وقال في النزهة ان تستعطي سمناً فلقيها كثير فأخبرته بحاجتها فأخرج ادواة سمن وجعل يسكب في اناء عزة وهما يتحادثان فلم يشعرا حتى غرقت أرجلها ، فلما رجعت انكر زوجها كثرة السمن وأقسم عليها فأخبرته فحلف ليضربنها أو لتخرجن فتشتم كثيراً بحيث يسمعها ففعلت فأنشد يكلفها الخنزير البيتين وفي منازل الأحباب انها وقفت عليه وهو يبري سهاماً ما فجعل يبري ساعده فدخلت عليه فمسحت الدم بثوبها وان زوجها لم ينكر إلا وجود الدم ، وقيل له أنت أشعر أم جميل فقال كيف يكون أشعر مني وهو القائل

رمى الله في عيني بثينة بالقذى   وفي الغر من أنيابها بالقوادح

وأنا القائل هنيئاً مريئاً البيت وليس فيما ذكر دليل على انه اشعر منه وإنما يدل ذلك على ان كثيراً أرق قلباً وأشفق على محبوبته وأشد عشقاً فلو سبق الكلام لذلك فكان الصق بالمعنى وأولى وتمام القصيدة

ووالله ما قاربت إلا تباعدت   بصرم ولا أكثرت الا أقلت
فان تكن العتبى فأهلاً ومرحبا   وحققت لها العتبى لدينا وقلت
وان تكن الأخرى فان وراءنا   مناويح لوسارت بها العيس كلت
فلا يبعدن وصل لعزة أصبحت   بعافية أسبابه قد تولت

خليليَّ ان الحاجبية طلحت قلوصيكما اذ ناقتي قد أكلت

أسيئي بنا أو احسني لا ملومة لدينـــا ولا مقلية ان تقلت

ولكن انيلي واذكري من مودة بناخلة كانت لديـــك فضلت

واني وان صدت لمثن وصـادق عليهـــا بما كانت علينا أدلت

فما أنا بالداعي لعزة بالجـوى ولا شامتاً ان نعـــل عزة زلت

فلا يحسب الواشون ان صبابتي بعـــزة كانت غمرة فتجلت

واصبحت قد أبليت من دنف بها ولا بعدها من خلة حيث خلت

وما مر من يوم عليَّ كيومها وان عظمت أيام أخرى وجلت

وأضحت بأعلى شاهق من فؤاده فلا القلب يسلاها ولا العين ملت

فيا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس اذ وطنتها كيف زلت

واني وتهيـــامي بعزة بعد ما تخليت ممـــا بيننـــا وتخلت

لكالمرتجى ظـل الغمامـة كلما تبوأ منهـــا للمقيم اضمحلت

كأني وإياهـــا سحـــابة ممحل رجاهـــا فلمـــا جاوزته استهلت

وخرج يوماً من عند عبد الملك فاعترضته عجوز معها نار في روثة فقالت من أنت قال صاحب عزة فقالت أنت القائل

وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها

يا طيب من أردان عزة موهنا اذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

قال نعم قالت ويحك اذا أوقد المندل الرطب على هذه الروضة أو بخرت به أمك العجوز الشنناء كانت كذلك فهلا قلت كما قال امرؤ القيس بن حجر الكندي

ألم ترياني كلمـــا جئت زائـراً وجدت بها طيباً وان لم تطيب

فناولها مطرف خز كان معه وقال استري عليَّ ذلك وهذه الحكاية نقلها قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخـه ، ثم قال ان بعض مشـــايخ

الأدب قال ليس على كثير شيء فان قوله اذا أوقدت بالمندل الرطب نارها نعت للروضة المذكورة انتهى وهذا جيد لو لم يطلب كثير من العجوز الستر فانه عرفنا انه ما أراد الا المعنى المعترض فيكون هذا تصحيحاً لإثبات قصده ، وتوفي كثير سنة خمس ومائة في اليوم الذي مات فيه عكرمة مولى ابن عباس وقبر في مقابر المدينة وله في عزة اشعار كثيرة من محاسنها قوله

يقولون سوداء العيون مريضة فأقبلت من أهلي اليها أعودها
فوالله ما أدرى إذا انا جئتها أأبرئها من دائها أم أزيدها
إذا جئتها وسط النساء منحتها صدوداً كان النفس ليس تريدها
ولي نظرة بعد الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قدأصيب وحيدها

وقيل ان هذه الأبيات لذي الرمة لأنه بعد ما ذكر يقول :

وكنت اذا ما جئت ميا أزورها أرى الأرض تطوي لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها اذا ما انقضت احدوثة لو تعيدها

ومنها وقد سأل عبد العزيز ان يرشده الى قبر عزة فلما وقف عليه أنشد:

وقفت على ربع لعزة ناقتي وفي البر رشاش من الدمع يسفح
فيا عز أنت البدر قد حال دونه رجيع تراب والصفيح المضرح
وقد كنت أبكي من فراقك خفية فهذا لعمري اليوم أنأى وأنزح
فهلا فداك الموت من ان ترينه بمن هو أسوأ منك حالاً وأقبح
ألا لا أرى بعد ابنة النضر لذة لشيء ولا ملجأ لمن يتملح
فلا زال رمس ضم عزة سائلاً به نعمة من رحمة الله تسفح
فان التي أحببت قد حال دونها طوال الليالي والضريح الموجح
أرب بعيني البكا كل ليلة فقد كاد مجرى الدمع عيني يقرح
اذا لم يكن ما تسفح العين لي دماً وشر البكاء المستعار المسيح

ومنها

ألا حيا ليلى اجد رحيلي وآذن أصحابي غدا بقفولي
تبدت له ليلى لتذهب عقله وشاقتك أم الصلت بعد ذهول
أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل
إذا ذكرت ليلى تغشتك عبرة تعل بها العينان بعد نهول

ومنها

حلفت برب الراقصات إلى منى خلال الملا يمددن كل جديل
يمين امرىء مستغلظ من ألية يكذب قيلا قد ألح بقيل
لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بليلى ولا راسلتهم برسول
فان جاءك الواشون عني بكذبة فروها ولم يأتوا لها بحويل
فلا تعجلي يا ليل ان تتفهمي بنصح أتى الواشون أم بحول

ومنها

تذكرت اترابا لعزة كالمهى حبين بلفظ ناعم وقبول
وكنت إذا لاقيتهن كأنني مخالطة عقلي سلاف شمول

ومنها

كفى حزناً للعين ان رد طرفها لعزة عير آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكى فقلت البكى أشفى إذن لغليلي
توليت محزوناً وقلت لصاحبي أقاتلتي ليلى بغير قتيل
لعزة إذ ما حل بالخيف أهلها فأوحش منها الخيف بعد حلول
وبدل منها بعد طول إقامة تبعث نكباء العنى جفول
لقد أكثر الواشون فينا وفيكم ومال بنا الواشون كل مميل
وما زلت من ليلى لدن طر شاربي إلى اليوم كالمقصي بكل سبيل

ومنها

لا تغدرن بوصل عزة بعد ما أخذت عليك مواثقاً وعهـــودا
ان المحب إذا أحب حبيبـــه صدق الصفـــاء وأنجز الموعودا
الله يعـــلم لو أردت زيادة في حب عزة ما وجدت مزيدا
رهبـــان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خرو العزة خـــاشعين سجودا
والميت ينشر ان تمس عظامه مساو يخلدان يراك خـــلودا

وهذا الشعر رواه الحافظ مغلطاي كما هو عن جميل وقد رأيته في النزهة منسوباً اليه وبعدمـــا ذكر بيتاً استشهد به على مجيء التوكيد بالحرف قال وكثيراً ما نقله النحاة هكذا

لا لا أبوح بحب بثنة انها أخذت عليّ مواثقا وعهودا

قال القالي هو لكثير وذكر بثنة سبق قلم والأصل عزة أو ان الشعراء كثيراً ما يعدلون عن اسم من يريدون إلى ما لا يريدون تورية وغيرة وسيأتي لذلك ايضاح

ومنها

تفرق أنواع الحجيج على منى وفرقهم شعب النوى بين أربع
فلم أر داراً مثلها دار غبطة وملقى إذا التف الحجيج لمجمع
أقـــل مقيماً راضياً بمقـــامه واكثر جـــاراً ظاعناً لم يودع
فشاقوك لمـــا وجهوا كل وجهة سراعاً وأخلوا عن منازل بلقع
فريقان منهم سالك بطن نخلة وآخر منهم سالك خبت يفرع

أخبار قيس ولبنى

هو قيس بن ذريح بن سنة ، وفي رواية ابن الحباب يتصل نسمه ببكر بن عبد مناة عذري وهو من خزاعة واسم أبيه علي او هو جده ، وكان ينزل بظاهر المدينة وهو رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب ، وسبب علاقته بلبنى بنت الحباب الكعبية انه ذهب ببعض حاجاته فمر ببني كعب وقد احتدم الحر فاستسقى الماء من خيمة منهم فبرزت اليه امرأة مديدة القامة بهية الطلعة عذبة الكلام سهلة المنطق فناولته اداوة ماء ، فلما صدر قالت له ألا تبرد عندنا ، وقد تمكنت من فؤاده فقال نعم ، فمهدت له وطاء واستحضرت ما يحتاج اليه وإن أباها جاء .

فلما وجده رحب به ونحر له جزوراً وأقام عندهم بياض اليوم ثم انصرف وهو أشغف الناس بها فجعل يكتم ذلك إلى ان غلب عليه فنطق فيها بالأشعار وشاع ذلك عنه وانه مرّ بها ثانياً فنزل عندهم وشكا اليها حين تخاليا ما نزل به من حبها فوجد عندها أضعاف ذلك فانصرف وقد علم كل واحد ما عند الآخر .

فمضى إلى أبيه فشكا اليه ذلك فقال له دع هذه وتزوج بإحدى بنات عمك ، ففهم منه وجاء إلى أمه فكان منها ما كان من أبيه فتركها وجاء إلى الحسين بن علي وأخبره بالقصة فرثى له والتزم له أن يكفيه هذا الشان

فمضى معه إلى أبي لبنى فسأله في ذلك فأجابه بالطاعة ، وقال يا ابن رسول الله لو أرسلت لكفيت ، بيد ان هذا من أبيه أليق كما هو عند العرب فشكره ومضى إلى أبي قيس

ونقل السيوطي في شرح الشواهد عن ابن عساكر، ان الحسين بن علي لما بلغه انقباض أبي قيس عن ذلك ، جاء اليه حافياً على حر الرمل فقام ومرغ وجهه على أقدامـــه ، وكان ذريح ملياً فمضى مع الحسين حتى زوّج قيساً بلبنى ونقل الجلال السيوطي ان الحسين أدى المهر من عنده ، ولما تزوجها أقام مدة مديدة على أرفع ما يكون من احسن الأحوال ومراتب الاقبال ، وفنون المحبة، وان قيساً على أبلغ ما يكون من أنواع البر بأمه فشغله الانهاك مع لبنى عن بعض ذلك فحسنت لأبيه التفريق بينهما فقالت له يوماً او زوجته بمن تحمل لتجيء بولد كان أبقى لنسبك واحفظ لبيتك ومالك ، وانهما عرضا على قيس ذلك فامتنع امتناعاً يؤذن باستحالة ذلك ، وقال لا أسيبها قط وأقام يدافعهما عشر سنين إلى أن أقسم أبوه أو هي أمه لا يكنه سقف أو يطلق قيس لبنى فكان اذا اشتد الهجير يجيئه فيظله بردائه ويصطلي هو حتى يجيء الفيء فيدخل إلى لبنى فيتعانقـــان ويتباكيان وهي تقول له لا تفعل فتهلك إلى ان قدر ان طلقها ، فلما أزمعت الرحيل بعد العدة جاء وقد قوض فسطاطها فسأل الجارية عن امرهم فقالت سل لبنى فأتى اليها فمنعه أهلها واخبروه انهـــا غداة غد ترحل إلى أهلها فسقط مغشياً عليه ، فلما أفاق وأنشد

واني لمفن دمـــع عيني بالبكى	حذار الذي قد كان او هو كائن
وقالوا غداً او بعد ذاك بليلة	فراق حبيب لم يبن وهو بائن
وما كنت اخشى ان تكون منيتي	بكفيك الا ان ما حان حائن

وقال ايضاً

يقولون لبنى فتنة كنت قبلهـــا	بخير فلا تندم عليهـــا وطلق
فطاوعت أعدائي وعاصيت ناصحي	واقررت عين الشامت المتملق
وددت وبيت الله اني عصيـــتم	وحملت في رضوانها كل موثق
وكلفت خوض البحر والبحر زاخر	ابيت على اثبـــاج موج مفرق

كأني ارى الناس المحبين بعدها عصارة مــاء الحنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كل منظر ويكره سمعي بعدها كل منطق

وسقط غراب بحيث ينظره فنعق حين رحيلها فأنشد

لقــد نادى الغراب ببين لبنى فطار القلب من حذر الغراب
وقال غداً تبــاعد دار لبنى وتنأى بعد ود واقــتراب
فقلت تعست ويحك من غراب وكان الدهر سعيك في تبــاب

وتبعها حين ارتحلت ينظر اليها ، فلما غابت رجع يقبل أثر بعيرها ، فليم على ذلك فأنشد

وما أحببت ارضكم ولكن أقبل أثر من وطىء الترابا
لقد لاقيت من كلف بلبنى بلاء مــا أسيغ له الشرابا
إذا نادى المنادي باسم لبنى عييت فلا أطيق له جوابا

ولما أجنه الليل أوى إلى مضجعه فلم يطق قرار فجعل يتململ ويتمرغ في موضعه ويقول

بت والهم يا لبينى ضجيعي وجرت مذ نأيت عني دموعي
وتنفست إذ ذكرتك حتى زالت اليوم عن فؤادي ضلوعي
يا لبينى فدتك نفسي وأهلي هل لدهر مضى لنا من رجوع

وقال ايضاً

قد قلت للقلب لا لبناك فاعترف قضت لبانة ما قضيت فانصرف
قد كنت أحلف جهدي لا أفارقها أُف لكثرة زيف القيل والحلف
حتى تكنفني الواشون فافتلتت لا تأمنن أبداً من غش مكتنف
هيهات هيهات قد أمست مجاورة أهل العقيق وأمسينا على سرف
حيّ يمــانون والبطحاء منزلها هذا لعمرك شكل غير مؤتلف

وأرسلت اليه يوماً أمـه بنات يعبن لبنى عنـده ويلهينه بالتعرض إلى وصلهن فأنشد

يقر لعيني قربها ويزيدني بها عجباً من كان عندي يعيبها
وكم قائل قد قال تب فعصيته وتلك لعمري توبة لا أتوبها
فيانفس صبراً لست والله فاعلمي بأول نفس غاب عنها حبيبها

فلم ينصرفن ودمن على ما كن فيه فنادى يا لبنى فقلن ما لك قال خدرت رجلي وكان من المعلوم عند العرب انه إذا خدرت رجل الرجل وذكر لها أحب الناس اليها سكنت ثم قال

إذا خدرت رجلي تذكرت من لها فناديت لبنى باسمها ودعوت
دعوت التي لو ان نفسي تطيعني لفارقتهـا في حبهـا فقضيت
برت نبلها للصيد لبنى عشية وريشت بأخرى مثلها وبريت
فلمـا رمتني أقصدتني بنبلهـا وأخطأتهم بالسهم حين رميت
وفارقت لبنى ضـلة فكأنني قرنت إلى العيوق ثم هويت
فيا ليت اني مت قبل فراقها وهل يرجعن قول المفرط ليت
فوطن لنفسي منك هلكاً فانني كأنك بي قد يا ذريح قضيت

ورأيت الأبيات في كتاب لا أعرف جامعه وفيها يقول

فيا ليت اني مت قبل فراقها وهل ينفعن بعد التفرق ليت
فان يك تهيامي بلبنى غواية فقد يا ذريح بن الحباب غويت

فوطن البيت ، ولما اشتد شوقه وزاد غرامه أفضى به الحال إلى مرض الزمه الوساد واختلال العقل واشتغال البال ، فلام الناس أباه على سوء فعله فجزع وندم وجعل يتلطف به ، فأرسل له طبيباً وقينات يسألون عن حاله ويلهونه ، فلما أطالو عليه أنشد

عند قيس من حب لبنى ولبنى داء قيس والحب صعب شديد

فاذا عـــادني العوائــد يوماً قالت العين لا أرى من أريد
ليت لبنى تعـــودني ثم أقضي انهـــا لا تعود فيمن يعـــود
ويح قيس لقـــد تضمن منها داء خبل فالقلب منه عميـــد

فقال له الطبيب مذ كم هذه العلة بك ومذ كم وجدت بهذه المرأة مـا وجدت فقال

تعلق روحي روحها قبل خلقنا وليس إذا متنا بمنفصم العقد
فزاد كما زدنا واصبح نامياً وليس إذا متنا بمنصرم المهد
ولكنه باق على كل حـادث وزائرتي في ظلمة القبر واللحد

فقال إنما يسليك عنها تذكر مـا فيها من المساوي والمعايب ومـا تعافه النفس فقال

إذا عبتها شبهتها البدر طالعاً وحسبك من عيب لها شبه البدر
لقد فضلت لبنى على الناس مثل ما على ألف شهر فضلت ليلة القدر
إذا ما مشت شبراً من الأرض ارجفت من البهر حتى ما تزيد على شبر
لها كفل يرتج منها إذا مشت ومتن كغصن البان منضمر الخصر

وان أباه دخل وهو يخاطب الطبيب بذلك فجعل يؤنبه ويلومه ، فلما لم يفد ذلك عرض عليه التزويج فأنشد

لقد خفت ان لا تقنع النفس بعدها بشيء من الدنيا وان كان مقنعا
وازجر عنها النفس ان حيل دونها وتأبى اليهـا النفس الا تطلعـا

فلما أيس منـه استشار قومه في دائـه فاتفقت آراؤهم على أن يأمروه بتصفح احياء العرب فلعل ان تقع عينه على امرأة تستميل عقله فاقسموا عليه ان يفعل ففعل وانه اتفق ان نزل بحي من فزارة فرأى جارية قد حسرت عن وجهها برقع خز وهي كالبدر حسناً وبهجة فسأل عن اسمها فقالت لبنى

فسقط مغشياً عليه فارتاعت منه ونضحت وجهه بالماء وقالت ان لم تكن قيساً فمجنون

فلما أفاق استنسبته فاذا هو قيس فأقسمت عليه ان ينال من طعامها ، فتناول قليلاً وركب فجاء أخوها على أثره فاعلمته القصة فركب حتى استرده وأقسم عليه أن يقيم عنده شهراً ، فقال شفقت عليّ وأجاب فكان الفزاري يعجب به ويعرض عليه الصهارة حتى لامته العرب وقالوا نخشى أن يصير فعلك سنة فيقول دعوني ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام وقيس يقول له ان فيكم الكفاية ولكني في شغل لا ينتفع بي معه فألح عليه حتى عقد له على أخته ودخل بها فأقام معها أياماً لا تهش نفسه اليها ولا يكلمها ثم استأذن في الخروج الى اهله فأذنوا له فخرج الى المدينة وكان له بها صديق فأعلمه ان لبنى قد بلغها تزويجه فغمت لذلك وقالت انه لغدار واني طالما خطبت فأبيت والآن أجيب هذا وان أبا لبنى قد اشتكى قيساً الى معاوية وانه يشبب بابنته فكتب الى مروان بهدر دمه وأمره أن يزوّج ابنته بخالد بن خلدة الغطفاني وهو كندي حليف قريش فجعل النساء ليلة زفافها يغنينها:

لبينى زوجها أصبح لا حر يوازيه
له فضل على الناس وقد باتت تناجيه
وقيس ميت حقاً صريع في بواكيه
فلا يبعده الله وبعداً لنواعيه

ولما بلغ ذلك قيساً اشتد به الغرام فركب حتى أتى محلة قومها فقالت له النساء ما تصنع هنا وقد رحلت مع زوجها فلم يلتفت حتى أتى موضع خبائها فتمرّغ به وأنشد

الى الله أشكوا فقد لبنى كما شكا الى الله بعد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فجسمه نحيل وعهد الوالدين قديم

وأنشد حين بلغه هدر دمه

فان يحجبوها أو يحل دون وصلها مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عينيّ من دائم البكا ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري
الى الله أشكو ما ألاقي من الهوى ومن كرب تعتادني وزفير
ومن حرق للحب في باطن الحشا وليل طويل الحزن غير قصير
سأبكي على نفسي بعين غزيرة بكاء حزين في الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن يظهر النوى يا نعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنا بطون الهوى مقلوبة بظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ولكنها الدنيا متاع غرور

وقال ايضاً

وان تك لبنى قد أتى دون قربها حجاب منيع ما اليه سبيل
فان نسيم الجو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل في الحين تلتقي ونعلم أنا بالنهار نقيل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول
الى أن يعود الدهر سلما وتنقضي ترات يراها عندنا وذحول

وحجت لبنى في تلك السنة فاتفق خروجه ايضاً فتلاقيا فأبهت وأرسلت اليه مع امرأة تستخبر عن حاله وتسلم عليه فأعاد السلام والسؤال وأنشد

إذا طلعت شمس النهار فسلمي فاني يسليني عليك طلوعها
بعشر تحيات اذا الشمس أشرقت وعشر اذا اصفرت وحان رجوعها
ولو أبلغتها جارة قولي اسلمي طوت حزناً وارفض منها دموعها

وحين انقضى الحج مرض مرضاً أنهكه فأكثر الناس من عيادته فجعل يتفكر لبنى وعدم رؤيته لها فأنشد

ألبنى لقد جلت عليك مصيبتي غداة غد اذ حل ما أتوقع

تمنيني نيلا وتلويني به فنفسي شوقاً كل يوم تقطع
ألومك في شأني وأنت مليمة لعمري واجفى للمحب واقطع
وأخبرت اني فيك مت بحسرة فما فاض من عينيك للوجد مدمع
إذا أنت لم تبكي عليّ جنازة لديك فلا تبكي غدا حين أرفع

فحين بلغتها الأبيات جزعت جزعاً شديداً وخرجت اليه خفية على ميعاد فاعتذرت عن الانقطاع واعلمته انها إنما تترك زيارته خوفاً عليه ان يهلك والا فعندها ما عنده ولكنها جلدة (وفي منازل الأحباب) يرفعه الى ابن عباس قال مررت بربع عفا رسمه واذا بشخص فسلمت عليه فلم يرد فمضيت واذا هو يناديني فرجعت فردّ عليّ السلام واعتذر ثم ذكر انه تعتريه غيبة العقل أطواراً هذا ودمعه يسفح كالغيث فقلت له من أنت قـــال قيس ابن ذريح وأنشد

أمانيه لبنى ولم يقطع المدى بوصل ولا هجر فييأس طامع
أبى الله ان يلقي الرشاد متيم الا كل شيء حمّ لا شك واقع
هما برحـــابي معولين كلاهما فؤاد وعين ماقها الدهر دامع
اذا نحن أفنينـــا البكاء عشية فموعدنا قرن من الشمس طالع

قال الحافظ مغلطاي واخبرت لبنى بمرضه في حبها فقالت دفعاً للوهم مم يتمارض فبلغته القصة فأنشد

تكذبني بالودّ لبنى وليتها تكلف مني مثله فتذوق
ولو تعلمين الغيب أيقنت انني لكم والهدايا المشعرات صديق
تتوق اليك النفس ثم أردّها حياء ومثلي بالحياء حقيق
إذ ود سوام النفس عنك وماله على أحد إلا عليك طريق
شهدت على نفسي بأنك غادة رداح وان الوجه منك عتيق
وانك لا تجزين مني صحابة ولا أنا للهجران منك أطيق

وانك قسمت الفؤاد فنصفه رهين ونصف في الحبال وثيق
كأن الهوى بين الحيازيم والحشا وبين التراقي واللهـــاة حريق
فان كنت لما تعلمي العلم فاسألي وبعض لبعض في الفعال يفوق
سلي هل قلاني من خليل صحبته وهل ذمّ رحلي في الرفاق رفيق
وهل يجتوي القوم الكرام صحابتي اذا اغبرّ مخشيّ الفجاج عميق
واكتم أسرار الهوى فأميتهـــا إذا باح مـــزاح بهن يروق
هل الصبر الا أن أصدّ فلا أرى بأرضك الا ان يكون طريق

وروى ان قيساً انتقى ناقة من إبله وقصد المدينة ليبيعها فاشتراها زوج لبنى وهو لا يعرفه ، ثم قال له ائتني غداً في دار كثير بن الصلت أقبضك الثمن ، فجاء وطرق الباب فادخله وقد صنع له طعاماً وقام لبعض حاجاته ، فقالت المرأة لخادمتها سليه ما بال وجهه متغيراً شاحباً فتنفس الصعداء ، ثم قال هكذا حال من فارق الأحبة فقالت استخبريه عن قصته فاستخبرته فشرع يحكي أمره فرفعت الحجاب وقالت حسبك قد عرفنا حالك فبهت حين عرفها لا ينطق ساعة ، ثم خرج لوجهه فاعترضه الرجل وقال ما بالك عدلت قبض مالك وان شئت زدناك ، فلم يكلمه ومضى فدخل الرجل فقالت له ما هذا الذي فعلت انه لقيس فحلف انه لا يعرفه ، وأنشد قيس معاتباً لنفسه

أتبكي على لبنى وأنت تركتها وكنت عليها بالملا أنت أقدر
فان تكن الدنيا بلبنى تقلبت فللدهر والدنيا بطون وأظهر
كأني في أرجوحة بين أحبـل اذا فكرة منها على القلب تخطر

وقيل انه حين جاء ليقبض ثمن المطية رأى لبنى فعاد مبهوتاً فسأله الرجل فقال له لا تركب لي مطيتين فقال أنت قيس قال نعم قال ارجع لنخيرهـا فان اختارتك طلقتها وظن الرجل انها تبغض قيساً فخيرها فاختارت قيساً فطلقها لوقته

وحكي ان سبب طلاقها ان قيساً قصد ابن أبي عتيق وكان أكثر أهل زمانه مروءة في ذلك ، فجاء الى الحسن والحسين واعلمها ان له حاجة عند زوج لبنى وطلب أن ينجداه عليه فمضيا معه حتى اجتمعوا به وكلموه في ذلك فقال سلوا ما شئتم فقال له ابن أبي عتيق أهلاً كان أو مالاً قال نعم ، فقال أريد أن تطلق لبنى ولك ما شئت عندي فقال أشهدكم انها طالق ثلاثاً فاستحيوا منه وعوّضه الحسن مائة ألف درهم وقال له لو علمت الحاجة ما جئت

وروى ان لبنى عاتبت قيساً على تزويج الفزارية فحلف لها ان عينيه لم تكتحل برؤيتها ولم يكلمها لفظة واحدة وانه لو رآها لم يعرفها واخبرته لبنى انها كارهة زوجها وأعلمته انها لم تتزوجه رغبة فيه بل شفقة على قيس حين أهدر دمه ليخلي عنها فطلقها حين علم ما بينهما وأرسل أخو الفزارية الى قيس حين أبطا عنه يسأله الرجوع فأعاد الرسول بالخيار في أمر اخته فاختار الرجل عدم الفرقة وقصد قيس معاوية فمدحه فرق له وكان ذلك قبل طلاق لبنى فقال له ان شئت كتبت الى زوجها بطلاقها فقال لا ولكن ائذن لي أن أكون ببلدها ففعل فنزل قيس حين زال هدر دمه بحبها وتظافرت مدائحه فيها حتى غنى بها معبد والغريض واضرابها فرق الناس له هذا ولما طلقت نقلت الى العدة بأمر ابن ابي عتيق فمن ذاهب الى انها أكملت عدتها وتزوجها وأقاما الى الموت بدليل مدحه لابن أبي عتيق حيث قال

جزى الرحمن أفضل ما يجازى على الاحسان خيراً من صديق
فقد جربت اخواني جميعاً فما ألفيت كابن أبي عتيق
سعى في جمع شملي بعد صدع ورأى حدت فيه عن الطريق
وأطفأ لوعة كانت بقلبي اغصتني حرارتها بريقي

ومن ذاهب وهم الأكثر الى انها ماتت في العدة وان مدحه لابن ابي عتيق حين لم يشك في عودها اليه وقد نهاه عن مدحه وقال له من سمع بهذا

يعدّني قواداً والقائلون بموت لبنى في العدة أجمعوا ان قيساً خرج حين بلغه ذلك حتى وقف على قبرها وأنشد :

ماتت لبينى فموتها موتي　　هل ينفعن حسرة على الفوت
إني سأبكي بكاء مكتئب　　قضى حياة وجداً على ميت

ثم بكى حتى أغمي عليه فحمل ومات بعد ثلاث ودفن الى جانبها وكان ذلك في سنة 　　 وله أشعار كثيرة منها حكاه الشهاب في منازل الأحباب عن أبي العباس على تردد في أنه لابن الدمينة

وفي عروة العذري ان مت أسوة　　وعمرو بن عجلات الذي قتلت هند
وبي مثل ما قد نابه غير انني　　الى أجل لم يأتني وقته بعد
وفيض دموع العين بالليل كلما　　بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

ومنها

لقد عنيتني يا حب لبنى　　فقع إما بموت أو حياة
فان الموت أيسر من حياة　　منغصة لها طعم الشتات
وقال الآمرون تعز عنها　　فقلت ولا إذا حانت وفاتي

ومنها

فما وجدت وجدي بها أم واحد　　ولا وجد النهدي وجدي على هند
ولا وجد العذرى عروة في الهوى　　كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي

ومنها

لو أن امرأ اخفي الهوى عن ضميره　　لمت ولم يعلم بذاك ضمـــير
ولكن سألقي الله والنفس لم تبح　　بسرّك والمستخبرون كثير

ومنها

عفـــا سرف من أهله فشوارع　　فجنبا أريك فالبلاد الدواقع

فمكة فالأخياف أخياف طيبة ... بها من لبينى مخرف فمرابع
لعلَّ لبينى أن يحم لقاؤهـــا ... ببعض بلادي ان ما حم واقع
بجذع من الوادي خلا عن أنيسه ... عفا وتخطته العيون الجوازع
ولما بـــدا منها الفراق كما بدا ... بظهر الصفا الصلد الشقوق الشوائع
تمنيت أن تلقي لبينـــاك والمنى ... تعاصيك أحياناً وحيناً تطاوع
ومـــا من حبيب وامق لحبيبه ... ولاذى هوى الإله الدهر فاجع
وطار غراب البين وانشقت العصا ... لبين كما شق الأديم الصواقع
ألا يا غراب البين قد طرت بالذي ... أحاذر من لبنى فهل أنت واقع
وانك لو أبلغتهـــا قيلي اسلمي ... طوت حزناً وارفض منها المدامع
أتبكي على لبنى وأنت تركتها ... وكنت كآت غيه وهو طائع
فـــلا تبكين في اثر شيء ندامة ... إذا نزعته عن يديك النوازع
فليس لأمر حـــاول الله جمعه ... مشت ولا ما فرّق الله جامع
كأنك لم تقنع إذا لم تلاقهـــا ... وان تلقها فالقلب راض وقانع
فيا قلب خبرني اذا شطت النوى ... بلبنى وصدت عنك ما أنت صانع
أتصبر للبـــين المشت مع الجوى ... أم أنت امرؤ ناسي الحياة فجازع
فما أنا ان بانت سليمى بهاجع ... اذا ما استقلت بالنيام المضاجع
وكيف ينام المرء مستشعر الجوى ... ضجيع الأسى فيه نكاس روادع
فلا خير في الدنيا إذا لم تزورنا ... لبينى ولم يجمع لنا الشمل جامع
أليست لبينى تحت سقف يكنها ... وإياي هذا ان نأت لي نافع
ويلبسنا الليـــل البهيم إذا دجا ... ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطع
تطأ تحت رجليها بساطاً وبعضه ... أطأه برجلي ليس يطويه مانع
وافرح ان تمسي بخير وان يكن ... بها الحدث العادي ترعني الروائع
كأنك بدع لم تر الناس قبلهـــا ... ولن يطلعنك الدهر فيمن يطالع
وقد كنت أبكي والنوى لا أظنه ... بنا وبكم لم ندر ما البين صانع

واهجركم هجر البغيض وحبكم　　على كبدي منه كلوم صوادع
فواكبدي من شدة الشوق والأسى　　وواكبدي اني الى الله راجع
واعجل للاشفاق حتى يشفني　　مخافة شحط الدار والشمل جامع
واعمد للارض التي من ورائكم　　لترجعني يوماً اليك الرواجع
فيا قلب صبراً واعترافاً لما ترى　　ويا حبها قع بالذي أنت واقع
لعمري لمن أمسى وأنت ضجيعه　　من الناس ما اختيرت اليه المضاجع
ألا تلك لبنى قد تراخى مزارها　　وللبين غمّ مـــا يزال ينازع
إذا لم يكن إلا الجوى فكفى به　　جوى حرق قد ضمنتها الأضالع
أبائنـــة لبنى ولم تقطع المدى　　بوصل ولا صرم فييأس طـامع
نهاري نهـــار الواهين صبابة　　وليلى تنبو فيه عني المضاجع
وقد كنت قبل اليوم خلوا وإنما　　تقسم بين الهالكين المصـــارع

وهذان البيتان في غير رواية أبي علي

ولولا رجاء القلب أن يعطف النوى　　لمـــا حملته بينهنّ الأضـــالع
له وجبات اثر لبنى كأنها　　شقائق برق في السحاب لوامع
نهاري نهار الناس حتى إذا بدى　　لي الليل هزتني اليك المضـاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى　　ويجمعني باللــيـــل والهم جامع
اذا نحن انفـــدنا البكاء عشية　　فموعدنا قرن من الشمس طالع
وللحب آيات تبـــين للفتى　　شحوب وتبري من يديه الأشاجع
وما كل ما منيت نفسك خالياً　　تـلاقي ولا كل الذي أنت تابـع
تداعت له الأحزان من كل وجهة　　فحن كما حن الطيور السواجع
وجانب قرب الناس يخلو بهمه　　وعاوده فيهـــا هيـــام مراجع
أراك اجتنبت الحي من غير بغضة　　ولو شئت لم تجنح اليك الأصابع
كأن بلاد الله ما لم تكن بهـــا　　وان كان فيها الناس قفر بلاقع

ألا إنما أبكي لمـــا هو واقع وهل جزع من وشك بينك نافع
أحال عليَّ الدهر من كل جانب ودامت ولم تقلع على الفجـــائع
فمن كان محروقاً غـدا لفراقنا مذ الآن فليك لمـــا هو واقع

وقد انتهت أخباره كما وجدت وكأني بغبي يعترض على نقلي له من مراتب من حظي بالتلاق الى مراتب من مات دونه من العشاق ولم يدر ان الحيثيات توجب بالتأمل الصائب والفهم الذكي الثاقب ما لم يدركه الغافل الغبي أمـا تقدم هذه الأربعة فقد علم واما ذكر هذا هنا فقد قال في النزهة والبدور المسافرة وطوالع الأزهار وغالب شراح ديوان الاستاذ ومن بحث عن أحوال العشاق انه رأس أهل الهوى ولكن وقوعه في فرقة المحبوب وقعة في هذه المرتبة وقال المتكلمون على الديوان المذكور ان سلطـــان العشاق واستاذ العارفين على الاطلاق قد أشار الى تفضيله على الكل حيث شبه غرامه بغرامه وحسن لبنى ببهجة الحضرة الممدوحة حيث قال

بفرط غرامي ذكر قيس بوجده وبهجتهـــا لبنى أمت وأمت

لا يقال قد افرد غيره بالذكر ايضاً الآن أساليب دقائق كلامه وأفـانين مطاوي نظامه تجل عن ان تنال الأبشق الأنفس والله يؤتي فضله من يشاء فان قوله فان كنت ليلى ان قلبي عامر ونحوه ليس تمويهاً بعظم الشأن كما في البيت السابق اه قلت وقد يقال لا تفضيل القيس في البيت على غيره فيجاب بأن قوله رضي الله عنه

بها قيس لبنى هام بل كل عاشق كمجنون ليـــلى أو كثير عزة

صريح في جعله في مقابلة المجموع حيث ذكرهم بالحرف الدال على الانتقال عن الأرفع ومثل بالأمثل وذلك يقتضي التفضيل على الجميع وحكمة ذلك والله أعلم كونه قد عرف لذة الوصل والتلاق ثم رمي بغصة البعد والفراق وذلك عند العقلاء أبلغ واعظم وأرفع في مقاسات الغرام وأفخم وفيه تلميح بما ذكر في التفضيل بين البشر والملائكة

اخبار المجنون وصاحبته ليلى

قد اختلف في اسمه هل هو عامر أو مهدي او الأقرع أو معاذاً وقيس ابنه أو ابن الملوّح أو البحتري بن الجعد ، والصحيح الأول لإشارة عارف الوقت في البيت السابق وفي نسبه عامريّ أو كلابيّ أو جعديّ أو قشيريّ أو المجانين متعددة أو هما اثنان في بني عامر أو لم يكن احد وإنما امرؤ تعشق واستكتم عن ان يصرح باسمه واسم محبوبته فموّه بالمجنون وليلى والصحيح انه من بني عامر وهو عامر بن ملوّح بن مزاحم يتصل نسبه عند صاحب الأغاني إلى كعب بن ربيعة بن صعصعة كان مديد القامة جعد الشعر أبيض اللون ولم ينله الهزال والجنون وتغير اللون إلا من العشق ، وصاحبته هي ليلى بنت مهدي بن سعد تتصل بنسبه في كعب بن ربيعة وكنيتها أم مالك وهذا أخذ من قوله ذلك في شعره كثيراً نحو قوله

تكاد بلاد الله يا أم مالك   بما رحبت يوماً علي تضيق

وهذا كاستدلالهم بأن اسم أبيه ملوّح بن مزاحم وانه مات قبل اختلاط عقله فعقر عليه ناقة بقوله

عقرت على قبر الملوّح ناقتي   بذي السرح لما أن جفاه أقاربه

وقلت لها كوني عقيراً فانني   غداة غد ماش وبالأمس راكبه

فلا يبعدنك الله يا ابن مزاحم   فكل امرىء للموت لا بد شاربه

وروى باسقاط هاء السكت وحذف البيت الأخير وذكروا ان سبب عشقه لليلى انه مر يوماً على ناقة له وعليه حلتان من حلل الملوك بامرأة من

قومه وعندها نسوة يتحدثن فأعجبهن فاستنزلنه المنادمة فنزل وعقر لهن ناقته وأقام معهن بياض اليوم فأقبل فتى اسمه منازل يسوق غنماً فانصرفن اليه وتركن المجنون فقام مغضباً وأنشد

أأعقر من جرّا كرائم ناقتي ووصلي مقرون بوصل منازل
إذا جاء قعقعن الحليّ ولم أكن إذا جئت اخفوا صوت تلك الخلاخل

فقوله من جرا وكرائم يعني من أجلها وكرائم اسم المرأة التي كن عندها وروى ووصلي مفضول أي دون وصل منازل وهو أليق بالمقام وفي النزهة

إذا جاء قعقعن الحليّ ولم يكن إذا جئت بل اخفين صوت الخلاخل

يقول قد أظهرن صوت الحليّ حين جاء منازل وهذه كناية عن قيامهن له ولم يكن ذلك عند مجيئي وهذا هو اللائق ولم يؤخذ من المدت السابق وقيل تداعيا المناضلة أو الصراع فقال له المجنون قم الى حيث يرينك ولا تراهن فافعل ما تقول وأنشد في ذلك

إذا ما انتضلنا في الخلاء نضلته وأن يرم رشقاً عندها فهو ناضلي

فعلى هذا يكون ضمير عندها عائداً على النسوة وهـذا دليل على شدة استحيائه فانه يقول له ما دمت تنظر اليهن فانك تشجع فتغلبني وهذا على حد قوله

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

يقول جدي في السجع فان سعاد تنظرك وتسمعك قلت هذا ما نقل في الأصل عن ابن الكلبي ولا دليل فيه على تعلقه بليلى ، وإنما الدليل فيما رواه صاحب نزهة المشتاق قال لما دعته النسوة إلى النزول نزل وجعـل يحادثهن ويقلب طرفه حتى وقعت عينه على ليلى فلم يصرف عنها طرفاً وشاغلته ، فلم يشتغل ثم قال لها هل عندكن ما تأكلن قالت لا ، فعمد الى الناقة فنحرها وقطعها وجاءته لتمسك معه اللحم فجعل يحز بالمدية في كفه وهو شاخص فيها حتى

اعرق كفه فجذبتها من يده ولم يدر ، ثم قال لها ألا تأكلين الشواء قالت نعم فطرح من اللحم شيأ على الغضى وأقبل يحادثها ، فقالت له أنظر الى اللحم هل استوى أم لا فمد يده الى الجمر وجعل يقلب بهـــا اللحم فاحترقت ولم يشعر فلما علمت ما داخله صرفته عن ذلـك ثم شدّت يده بهدب قناعها ثم ذهب وقد تحكم عشقها من قلبه وقيل انها بعد هذا المجلس استدعته للمحادثة وقد داخلها الحب فقالت له هـل لك في محادثة من لا يصرفه عنك صارف فقال ومن لي بذلك ثم نزل وعقر ناقته كما مر وانهـا كانت مغرمه بأحاديث الناس والاشعار وكان هو أروى الناس لذلك فكانت تستدعيه لتسمع منــه وكان يجيبهـــا الى ذلك فتداخلت بينهما المحبة وفي نديم المسامرة انهما انتشئا صغيرين يرعيان الغنم بدليل قوله

تعلقت ليلى وهي دات تمائم ولم يبد للاتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت اننا الى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

فتحابا وانها حجبت عنه فداخله جنون وعلى كل الطرق لما عرف كل منهما ما عند الآخر وتمكنت المحبة منهما جعل يأتيها نهاراً قبل الحجب ويذهب ليلاً وفي ذلك يقول

نهاري نهار الناس حتى اذا بدا لي الليل هزتني اليك المضاجع
أقضي نهـاري بالحديث وبالمنى ويجمعني بالليل والهم جـــامع

قلت وقد تقدم ان البيتين لقيس بن ذريح وصرح في نزهة العشاق بذلك وقال ان المجنون كان يتمثل بهما وهذا هو الصحيح فانهما كان متعاصرين حتى نقل في الأغاني ان قيساً مر بالمجنون وهو في مبادي مخالطة العقل والانفراد وكان كل منهما يشتهي لقاء صاحبه فسلم عليه فلم يرد فعرفه بنفسه فقام اليه واعتنقه وتباكيا واشتكى كل الى الآخر ما عنده فقال المجنون لقيس ان حيّ ليلى قريب فهل لك ان تبلغهـــا سلامي فمضى حتى وقف بها ونسب

نفسه فتعارفا وبلغها فأخبرته ان وجدها به أعظم ، ولكن قالت أنا عاتبة عليه حيث يقول

أتت ليلة بالغيـــل يا أم مالك   لكم خير حب صادق ليس يكذب
الا إنمـــا أبقيت يا أم مالك   صدى اينما تذهب به الريح يذهب

فأي ليلة كانت ومتى اختليت معه بالغيل أو غيره فقال لها لا تحمليه على ما تقول الناس فلم يرد سوأ وانصرف قيس ليخبره فلم يجده وكان المجنون عند أبيه أعظم منزلة من اخوتـــه وكان أبوه ذا ثروة فدفع له خمسين بعيراً وراعيها في مهر ليلى فلم يقبل أبوها مع انه دونهم لما مر من ان العرب كانت تكره تزويج اثنين انتشرت أخبارهما بالمحبة فخيروها بينه وبين رجل اسمه ورد وهددوها على ان تختاره ففعلت كارهة وفي ذلك يقول المجنون

ألا يا ليل ان ملكت فينا   خيارك فانظري لمن الخيار
ولا تستبدلي منـــا دنيـا   ولا بر ما اذا حث القتـار
يهرول في الصغـير اذا رآه   وتعجزه ملمـــات كبار
فمثل تأيم منـــه نكـــاح   ومثل تمـــوّل منه افتقار

وأبصر يوماً في طريقه الى زيارتها جارية عسراء فتطير وأنشد

وكيف يرجى وصل ليلى وقد جرى   بجد القوى من ليل أعسر حاسر
صريع العصا جدب الزمان اذا انتحى   لوصل امرىء لم تقض منه الأواطر

وشكا ذلك اليها فقالت لا بأس عليك والله لا اجتمعت بغيرك الا كارهة وكانت قبل هذا القول قد امتحنته لتنظر ما عنده من المحبة لما فدعت شخصاً بحضرته فسايرته أو صرفت وجهها عنه الى غيره ثم نظرته قد تغير حتى كاد ان يتقطر فأنشدت تقول

كلانا مظهر للناس بغضاً   وكل عند صاحبه مكين

وفي رواية وكل مظهر في الناس وبعده .

وأسرار الملاحظ ليس تخفى   وقد تغري بذي اللحظ العيون

وبهذين البيتين تظافرت الروايات وجاء في رواية

وقد تغري بذي اللحظ الظنون

وبعده

وكيف يفوت هذا الناس شيء   وما في الناس تظهره العيون

فسر بذلك حتى كاد ان يذهب عقله فانصرف وهو يقول

أظن هواهـــا تاركي بمضلة   من الأرض لا مال لدي ولا أهل

ولا أحـــد أفضى اليه وصيتي   ولا صاحب الا المطية والرحـل

محا حبها حب الأولى كن قبلها   وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

وفي رواية ولا وارث المطية والأولى أصح وأنسب لأن المطيـــة لا ترث وتستصحب كما جاء في كلام العرب

ان الحمار مع الحمار مطية   واذا خلوت به فبئس الصاحب

وأصل ذلك ان الصحبة في الأصـــل مجرد الاجتماع وأما شدة المخالطة والمداخلة فصداقة (وخرج يوماً) في سفر مع قوم فافضت به الطريق الى مسلكين أحدهما يمر برهط ليلى ولكنه يزيد مرحلة فتقدم الى القوم وسألهم أن يسلكوها أو يمكثوا له حتى يرجع فأبوا عليه فقال أنشدكم الله لو أنَّ شخصاً تحرَّم بكم فضل بعيره أكنتم تسعفونه قالوا نعم فقال ان ليلى لأعظم من ذلك وأنشد

أأترك ليلى ليس بيني وبينها   سوى ليلة إني إذن لصبور

هبوني امرأ منكم أضل بعيره   له ذمة ان الذمام كبير

وللصاحب المبرور أعظم حرمة   على صاحب من أن يضل بعير

عفا الله عن ليلى الغداة فانها إذا وليت حكماً عليَّ تجور

(واستشهد شخصاً) عن عروة بن حزام فأخبره بحاله وانه مات براحة فتعجب من كثرة ذكر الناس له مع حسن حاله في العشق وأنشد

عجبت لعروة العذري أمسى أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً وها أنذا أموت كل يوم

ولما اشتهر أمرهما في العرب وشاع شعره فيها منعه أهلها الزيارة وكان في حي ليلى امرأة من بني عامر قد تزوجها رجل من حريش ومات عنها وقد ترك لها صبية فكان يأتيها المجنون يتعرف منها أخبار ليلى فبلغ أهلها ذلك فزجروا المرأة وجاء المجنون فأخبرته فأنشد متمثلاً بيت امرىء القيس وضم اليه ثانياً له

أجارتنا انا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب
فلا تزجريني عنك خيفة كاشح إذا قال شراً أو أخيف لبيب

ثم تركها وكان يأتي غفلات الحي فلما علموا بذلك شكوه إلى مروان فكتب الى عامله بهدر دمه إذا وجد عند ليلى فقرؤا عليه ذلك فأنشد

لئن حجبت ليلى وآلى أميرها عليَّ يميناً جاهداً لا أزورها
وأوعدني فيها رجال أبوهم أبي وأبوها خشنت لي صدورها
على غير شيء غير إني أحبها وان فؤادي عند ليلى سميرها

ولما يئس من زيارتها قلق لذلك قلقاً أدى لزوال عقله فهام على وجهه يلعب بالتراب والعظام لا يعقل غير ذكرها وانها جزعت لذلك جزعا أدى الى سقمها فحج بها أهلها فرآها ثقفي فخطبها اليهم فأجابوا بعد ان ردوا جماعة ونمى الى المجنون ذلك فأنشد

الا ان ليلى العامرية أصبحت تقطع الا من ثقيف حبالها

هم حبسوها محبس البدن وأبتغي　　بها المال أقوام ألا قل مالهـــا
إذا ما التقت والعيس صفر من الثرى　　من العين جــلى عبرة العين حالها

هذا ما تظافرت به الأخبار وفي رواية الا تلك ليــلى العامرية أصبحت وفيها والعيس صفر من البكا وقد حرف هــذا البيت وفي رواية الأغاني لقد حبسوها محبس البدن وفي أخرى بعده

خليلي هل من حيلة تعلمانها　　فيدنى بها تكليم ليلى احتيالها
فان أنتما لم تعلمـــاها فلستما　　بأول باغ حاجة لا ينالهـــا
كان مع الركب الذين اغتدوا بها　　غمامة صيف زعزعتها شمالها
نظرت بمفضى سيل حوضين والضحى　　تحث بأطراف المحارم آلها
بمنهلة الأجفان هيج شوقها　　مجامعة الآلاف ثم رآلهـــا
إذا التفتت من خلفها وهي تعتلي　　على العيس جلى عبرة العين حالها

وحين تحقق عنده تزويجها أنشد

دعوت إلهي دعوة مـــا جهلتها　　وربي بمـــا تخفي الصدور خبير
لئن كان يهدي برد انيابها العــلا　　لا فقر مني انـــني لفقـــير
فقد شاعت الأخبار ان قد تزوجت　　فهل يأتيني بالطـــلاق بشير

وجعل يمر ببيتها فلا ينظر اليه فأنشد

ألا أيهـــا البيت الذي لا أزوره　　وان حـــله شخص إليّ حبيب
هجرتك اشفاقاً وزرتك خائفاً　　وفيك عليّ الدهر منك رقيب
سأستعتب الأيام فيك لعلهـــا　　بيوم سرور في الزمـــان تؤب
وأفردت افراد الطريد وباعدت　　بي النفس حاجات وهن قريب
لئن حال واش دون ليلى لربمـــا　　أتى اليأس دون الأمر فهو عصيب
ومنيتني حتى إذا مـــا رأيتني　　على شرف للنـــاظرين يريب

صددت وأشمت العدوّ بصرمنا   أثابك يا ليــلى الجزاء مثيب

والبيتان الأولان لمحمد بن أمية هذا مـا نقله والصحيح ان البيت الأول للمجنون ذكر ذلك في النزهة وأقره في تسريح الناظر غير انه قال في الثاني والثالث انهما ليسا للمجنون وفيه وفي رواية هنا بيوم سرور وفي الزمان تثوب . والمعنى واحد وبقي أبيات من هذه القصيدة آخرتها الآن لها حكاية وحين بلغه نقلها الى الثقفي أنشد

كان القلب ليلة قيل يغــدى   بليلى العــامرية أو يراح

قطاة غرّهـــا شرك فباتت   تجاذبه وقد علق الجنـــاح

فلا في الليل نالت ما ترجى   ولا في الصبح كان لها براح

وفي تسريح الناظر عن الامالي قال اجتمع الى المجنون عزوة من قومه ممن كان ينادمه حال صحته وقد ذهبوا به حين بني الثقفي بليلى فعزموا على أن يسافروا به متنزهين في أحياء العرب ليذهب ما به فساروا وهو معهم تعاوده الصحة دوراً والجنون دوراً وهم يردون كل منتزه ويعرضون عليه من بنـات العرب كل من أجمع على حسنها وانهم غفلوا عنه ليلـة ثم افتقدوه فرأوه قد ذهب فركب ابن عم له في طلبه فرآه عنده مشرعة وبين يديه ظبية لا حراك بها وهو يمسح عنها التراب ويقبلها ويبكي هذا ما في تسريح الناظر زاد في نزهة المشتاق انه كان ينشد

أيا شبه ليلى لا تخافين إنني   لك اليوم من وحشية لصديق

فقال له اذهب بنا فلم يجب فقال اذهب لنمر بليلى فقام معه فلما جاء الى أصحابه جلس متفكراً لا يخاطبهم حتى جاء الليل فلما كان السحر هبة نسمة وأبرق برق مما يلي حي ثقيف فأنشد

طربت وشاقتك الهمول الدوامع   غداة دعـــا بالبين اسفع نازع

شجـــاه نعياً بالفراق كأنه   حريب سليب نازح الدار جازع

فقلت الا قد بين الامر فانصرف   فقد راعنا بالبـــين قبلك رائع

سقيت سماما من غراب فانني تبينت مـــا أخبرت أذهو واقع
ألم تر أني لا محب ألومه ولا ببديـــل بعدهم أنا قانـــع
ألم تر دار الحي في رونق الضحى بحيث انحنت للهضبتين الاجـارع
وقد يتناءى الالف من بعد صحبة ويصدع مـــا بين الخليلين صادع
وكم من هوى أو جيرة قد ألفتهم زمـــاناً فلم يمنعهم البـــين مانع
كأني غـــداة البين ميت حوية آخر ظما سدت عليـــه المشارع
يخلص من أوصال مـــاء صبابة فلا الشرب مبذول ولا هو نافع
وبيض تطلى بالعبير كأنهـــا نعاج الفلا جيبت عليهـا البراقع
تحملن من وادي الاراك وأومضت لهن بأطراف العيون المراتع
فما جئن ربع الدار حتى تشابهت هجائنها والجون منها الجوامع
وحتى حملن الجور من كل جانب وخاضت صدور الرقم منها الاكارع
فلما استوت تحت الخدود وقد جرى عبـــير ومسك بالعرانين رادع
أشرن بأن حثوا الجمال فقد بدا من الصيف يوم لافح الظل مانع
فلـــا لحقنا بالحمول تباشرت بنا مقصرات عاب عنها المطالع
يعرضن بالدل المليـح وأن يرد خبـــاهن مشغوف فهن موانع
فقلت لاصحابي ودمعي مسبل وقد صدع الشمل المشتت صادع
أليلى بأبواب الخدور تعرضت لعينيَّ أم قرن من الشمس طالع

ومرض قبل الاختلاط فقلق قلقاً شديداً ودخل عليه جماعة أو هو أبوه للعيادة فسمعوه ينتحب بأشد تحرق وتوجع وينشد

ألا أيها القلب الذي لج هائماً بليلى وليداً لم تقطع تمائمه
أفق قد أفاق العاشقون وقد أبى لما بك ان تلقى طبيباً تلائمه
فما لك مسلوب العزاء كأنما ترى نأي ليلى مغرماً انت غارمه
أجدك لا ينسيك ليلى ملمة تلم ولا ينتسيك عهداً تقادمه

فاستتروا حتى أتم نشيده ودخلوا عليه فحادثوه في السلو فزاد في الهيام ولما عوفي جعل يعاود موضعها ويتمرغ في التراب ويبكي الى الليل وعزم على التوحش والخروج فراجع ابن عم له في ذلك فكان يعزم عليه ان لا يفعل ويشاغله إلى أن بلغه ان ليلى دخلت الى جارة لها فنضت أثوابها واغتسلت ونظرت الى نفسها وقالت ويح ابن الملوح لقد علق بي عظيماً على غير استحقاق فانشدك الله أصادق هو في وصفي أم كاذب فقالت بل صادق ثم خرجت من عندها وعادت لأخذ سواك نسيته فلما صار في يدها قالت سقى الله من اعطانيه فقالت لها جارتها ومن أعطاكيه قالت قيس فخرج هائماً وأنشد

نبئت ليلى وقد كنا نبخلها ... قالت سقى الله منه منزلاً خربا

قالت لجارتها يوماً تسائلها ... لما استحمت والقت عندها السلبا

يا حبذا راكباً كنا نهش له ... يهدي لنا من أراك الموسم القضبا

ناشدتك الله ألا قلت صادقة ... أصادق وصفه المجنون أم كذبا

وقيل إنما كان خروجه من نظره اليها يوم رحلها زوجها أو قومها حين بلغهم زيارته لها وكان حضوره يوم رحيلها على خفية رجاء أن يسكن ما به فزاغ واختشى قومه أن يفتضح فيقتل لما تقدم من انه كان قد هدر دمه ان دخل الحي وحذر فقال الموت أولى وخرج على وجهه

وعن الهذلي عن رجل من بني عامراً وهو رباح بن سعد بن اثالة قال خرجت أثر سماء اربعنا بها وأحيت الأرض بعد الجدب فبينا أنا بوادي القرى أو الغيل إذ لاح لي شخص الى جانب حجر يبكي فقصدته وسلمت عليه وإذا هو المجنون فقلت ما يبكيك فقال هذا السيل ثم تنفس الصعداء ثم أنشد الأبيات التي وعدنا بها وهي تمام القصيدة التي أولها الا أيها البيت وقيل انه أنشد القصيدة كاملة في هذا الوقت ، وفي النزهة ان خالد بن كلثوم ضم هذه الى تلك من عند نفسه والا فالمجنون لم ينشدها الا متفرقة وهي

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى ... وفاضت له من مقلتيّ غروب

ومـــا ذاك الا حين أيقنت انـــه ... يكون بـــواد أنت منه قريب
يكون أجـاجا دونكم فاذا انتهى ... اليكم تلقى طيبكم فيطيـــب
فيا ساكني أكنـــاف نخلة كلكم ... الى القلب من أجل الحبيب حبيب
أظـــل غريب الدار في أرض عامر ... الى كل مهجور هنـــاك غريب
وان الكثيب الفرد من أيمـــن الحمى ... إليّ وان لم آته لحبيب
ولا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر ... حبيباً ولم يطرق اليـــك حبيب

وقيل ان آخر مجلس للمجنون من ليلى انه لما اختلط عقله ومزق ما عليه وتوحش جاءت أمه اليها فأخبرتها بذلك وسألتها أن تزوره فعساها ان تخفف ما به فقالت اما نهاراً فمتعذر خيفة أهلي وسآتيه ليلاً فلما أمكنتها الفرصة أتته وهو مطرق يهذي فسلمت عليه ثم قالت له

أخبرت انك من أجلي جننت وقد ... فارقت أهلك لم تعقل ولم تفق

فرفع رأسه اليها وأنشد

قالت جننت على رأسي فقلت لها ... الحب أعظم ممـــا بالمجـــانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع الانســان في الحين

زاد عليها في نديم المسامرة

لو تعلمين اذا ما غبت ما سقمي ... وكيف تسهر عيني لم تلوميني

ثم فارقته فهـــام من ثم مع الوحش وقيل سئل عن سبب خروجه فقال لقيتها يوماً فشكيت اليها ما نزل بي من حبها وقلت ان لم ترحميني ذهب عقلي فقالت هو المطلوب فهمت لمرادها وقيل كان هيمانه مقاصة لقوله :

قضاها لغيري وابتلاني بحبها ... فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

ثم ان الأسانيد الصحيحة والآثار المتظافرة دلت على انها كانت من الغرام به والميل اليه أيضاً بمنزلة عظيمة

حكى رباح بن عامر وكان من الجريشيين قال دخلت من نجد أريد الشام فأصابني مطر عظيم فقصدت خيمة رفعت لي فاذا بامرأة فسألتهـــا التظليل فأشارت الى ناحية فدخلت وقد أقبل رعاة وإبل وغنم كثيرة ثم قالت للعبيد سلوه من أين الرجل فقلت من نجد فتنفست الصعداء ثم قالت نزلت بمن فيها فقلت ببني الجريش .

وفي رواية ببني جعدة فرفعت ستارة كانت بيننا وإذا بامرأة كأنها القمر ثم قالت أتعرف رجلاً فيهم يقـــال له قيس ويلقب بالمجنون قلت أي والله سرت مع أبيه حتى أوقفني عليه وهو مع الوحش لا يعقل إلا ان ذكرت له ليلى فبكت حتى أغمي عليها فقلت مم تبكين ولم أقل إلا خيراً فقالت أنا والله ليلى المشؤومة عليه غير المساعدة له أو قالت غير المكافئة أو المواسية له ثم أنشدت

ألا ليت شعري والخطوب كثيرة ... متى رحل قيس مستقل فراجع
بنفسي من لا يستقل برحـــله ... ومن هو ان لم يحفظ الله ضـائع

ولما أيس من ليلى حين ارتحلت مع زوجها واشتد هيمانه أجمع قومه أن يتقدموا إلى أبيه في حمله الى مكة فلعل الله أن يخفف عنه ، ففعل وسار معه ابن عمه زياد بن كعب فمروا بحمامة على دوحة تنوح فوقف المجنون صاغياً لها ويخلف معه ابن عمه فقال له سر بنا فقـد أبعد الرفاق فتنفس الصعداء وأنشد

أأن هتفت يوماً بواد حمامـــة ... بكيت ولم يعـذرك بالجهل عاذر
دعت ساق حر بعدما غلت الضحى ... فهاج لك الاحزان ان ناح طائر
تغنى الضحى والصبح في مرججنة ... كثاف الأعالي تحتها المـــاء حائر
كان لم يكن بالغيل أو بطن ايكة ... أو الجزع من قول الاشاءة حاضر
يقول زياد إذ رأى الحي هجروا ... أرى الحي قد ساروا فهل أنت سائر
واني وان غال التقدم حاجتي ... ملم على أوطان ليـــلى فناظر

ودخل مكة فنظر الى الناس وهم يدعون ربهم محرمين فأنشد

دعا المحرمون الله يستغفرونه بمكة وهنا ان تمحى ذنوبها
وناديت ان يا رب أول سؤلتي لنفسي ليلى ثم أنت حسيبها
فان أعط ليلى في حياتي لا يتب الى الله خلق توبة لا أتوبها

فزجره أبوه عن ذلك وأمره أن يدعو الله أن ينسيه ذكرها وأخذه حتى أمسكه أستار الكعبة ثم قال له قل اللهم انسني ذكرها وامح من قلبي حبها فقال اللهم اجمعني بها وارزقني حبها وزدني بها كلفاً وفيها تلفاً وأنشد مكملاً للأبيات السابقة

يقر لعيني قربها ويزيدني بها عجباً من كان عندي يعيبها
فكم قائل قد قال تب فعصيته وتلك لعمري توبة لا أتوبها
فيا نفس صبراً لست والله فاعلمي بأول نفس غاب عنها حبيبها

ولما اجتمع الناس بمنى سمع هاتفاً يهتف بليلى فخر مغشياً عليه الى الصباح ثم أفاق متغيراً حائل اللون وأنشد :

عرضت على نفسي العزاء فقيل لي من الآن فايأس لا أعزك من صبر
اذا بان من تهوى وأصبح نائياً فلا شيء أجدى من حلولك في القبر
وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري
دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه وليلى بأرض عنه نازحة قفر

ثم انساب منهم وكانت هذه سياحته الكاملة فجعل يقتات بعشب البر حتى طالت أظفاره وغطاه شعره فألفته الوحوش فكان يرد الماء معها ثم يهيم على وجهه حتى يقع بالشام فيرى أقواماً وأرضاً ينكرها فيقول أين جبل توباد من بني عامر وهو جبل كان يرعى هو وليلى عنده الغنم فيقولون له أين

أنت من توباد ويعرضون عليه الثياب والطعـــام فيأبى ويقول دلوني عليه فيرحمونه ويقولون له اتبع نجم كذا يوصلك اليـه فيمضي حتى يقع باليمن فيكون له مثل ذلك الى ان يظفر أحياناً بالجبل فينشد حين ينظره :

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآني
وأذريت دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له قد كان حولك جيرة وعهدي بذاك الصرم منذ زمان
وقلت له أين الذين عهـدتهم بقربك في حفظ وطيب أمان
فقال مضوا واستودعوني ديارهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان
واني لابكي اليوم من حذري غداً فراقك والحيان مؤتلفان
سجالاً وتهتاناً ووبلا وديمة وسحـاً وتسجالاً وتنهملان

وعن فتى من قيس أو هو رباح بن مالك قال لما أخذ المجنون الى مكة للاستشفاء كما مر مررت يوماً واذا أنا بجماعة قد تعلقوا بشخص متغير اللون ناحل البدن وقد همّ ان يلقي نفسه من جبل فسألت عنه فاذا هـو المجنون خرج ليتنسم صبا نجد فقلت علام تحبسونه قالوا نخاف ان يجني على نفسه ولو تقدمت اليه فأخبرته انك من نجد اسكنت روعه ففعلت فجعل يسألني عن موضع موضع ويبكي أحرّ بكاء ثم أنشد

ألا حبذا نجد وطيب ترابهـــا وأرواحها ان كان نجد على العهد
ألا ليت شعري عن عو يرضي قبا لطول الليـالي قد تغيرتا بعدي
وعن جارتينا بالنخيل الى الحمى على عهدنا أم لم يدوما على العهد
وعن علويات الرياح اذا جرت بريح الخزامى هل تهب على نجد
وعن أقحوان الرمل ما هو صانع اذا هو اثري ليلة بثرى جعـــد
وهل اسمعن الدهر اصوات هجمة تطالع من وهد خصيب الى وهد
وهل انفضن الدهر افنان لمتي على لاحق المتنين مندلد الوخد

ومر يوماً على جبلي نعمان وهو موضع من نجد به جبلان ليسا بالعظيمين بينهما فاصل يسير فقال لرفقة معه هذا مكان يقرب من منزل كانت تنزل به ليلى قال فأي الرياح تهب منه قالوا الصبا فحلف لا يبرح من مكانه حتى تهب فمضوا وتركوه ثم عادوا بعد ثلاث فأقاموا معه حتى هبت فأنشد :

أيا جبلي نعمان بالله خليا ... سبيل الصبا يخلص إليّ نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها
فان الصبا ريح إذا ما تنسمت ... على نفس مهموم تجلت همومها

قلت قال في النزهة بعد ذكر هذه الأبيات ان أبا الفرج بن الجوزي تزوج امرأة اسمها نسيم الصبا فأقام معها مدة ثم وقعت بينهما وحشة ففارقها فاشتد بها كلفه وزاد غرامه وراسلها فأبت عليه وطال بينهما الأمر وانها حضرت مجلس وعظه يوماً فلاحت منه نظرة فرآها وقد استترت بجاريتين فتنفس الصعداء وأنشد أيا جبلي نعمان الأبيات فاستحيت ثم ذهبت وقد داخلتها الرقة له فحكت لبعض النساء ذلك فمضين فأخبرنه فراسلها فأجابت فتزوج بها ومر يوماً بعد ما تمكن منه التوحش بليلى ظاعنة فلما رآها سقط مغشياً عليه فأخذه بعض قومها فمسح عنه التراب وسألوها أن تكلمه رقة عليه فاستعذرت من الخوف فأرسلت امرأة تأمنها بالسلام والاستعطاف والاستعذار وانها لولا الخوف لأتته ، فلما بلغته المرأة ذلك ثاب اليه عقله وأنشد

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها ... قريب ولكن في تناولها بعد
لقد عارضتنا ريح ليلى بنفحة ... على كبدي من طيب أرواحها برد
فما زلت مغشياً علي وقد مضت ... اناة ولا عندي جواب ولا رد
أقلب بالأيدي وأهلي تعولني ... يفدونني لو يستطيعون أن يفدوا
ولم يبق الا الجلد والعظم عارياً ... ولا عظم لي ان دام ما بي ولا جلد
أدنياي ما لي في انقطاعي وغربتي ... اليك ثواباً منك دين ولا نقد
عديني بنفسي انت وعداً فربما ... جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد

وقـــد يبتلي قوم ولا كبليتي ولا مثل وجدي في الشقاء بكم وجد
غزتني جنود الحب من كل جانب اذا حان من جند قفول اتى جند

وسئل يوماً وهو حاضر من الغمرة ما أحسن ما رأيت قال ليلى فقيل له ذلك معلوم وإنما نعني غيرها فقال ما رأيت شيئاً غيرها وذكرتها الاسقط من عيني الا ظبياً رأيته يوماً فذكرت ليلى فزاد في عيني حسناً فانطلقت أعدو خلفه حتى كلت رجلاي وغاب عن عيني فأخذت راحتي ثم انطلقت حتى وجدته وقد فتك به ذئب فأخذت سهماً وضربت بـه الذئب فلم يخط قلبه ، فشققت بطنه وأخرجت ما أكل فضممته الى مـــا بقي من الظبي ودفنته ، وأنشد

أبى الله ان يبقـى لحي بشاشـة فصبراً على ما شاء الله بي صبرا
رأيت غزالاً يرتعي وسط روضة فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا
فيا ظبي كل رغد هنيئاً ولا تخف فانك لي جار ولا ترهب الدهرا
وعندي لكم حصن حصين وصارم حسام اذا اعلمته احسن العبرا
فما راعني الأذويب قـد انتحى فأعلق في أحشائه الناب والظفرا
فبوأت سهمي في كتوم غمزتهـا فخالط سهمي مهجة الذئب والنحرا
فاذهب غيظي قتله وشفى جوى بقلبي الحر قـــد يدرك الوطرا

واجتمع اليه النساء يوماً فقلن له أما آن لك ان تصرف عنك هوى ليلى ليرد اليك عقلك فانها امرأة من النساء وفينا عنها كفاية فاختر إحدانا فقال لو ملكت لفعلت ولكني مغلوب فقلن ما أعجبك منها قال كل شيء رأيته وسمعته فقلن صفها فأنشد

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جنح ليل مبرد
موسومة بالحسن ذات حواسد ان الجمـال مظنـة للحسد

وترى مدامعها ترقرق مقلة سوداء تعرب عن سواد الاثمد
خو اذا ذكر الكرام رأيتها تحمي الحمى واذا تكلم تقصد

وقال له رجل من قومه إني قاصد حي ليلى فهل عندك شيء تقوله لها ، قال نعم أنشدها إذا وقفت بحيث تسمعك هذه الأبيات

الله يعلم ان النفس قد هلكت باليأس منك ولكني امنيها
منيتك النفس حتى قد أضر بها وأبصرت خلفاً مما أمنيها
وساعة منك ألهوها ولو قصرت أشهى إلي من الدنيا وما فيها

قال الرجل فمضيت حتى وقفت بخيامها فلما أمكنتني الفرصة أنشدت بحيث تسمع الأبيات فبكت حتى غشى عليها ثم قالت ابلغه عني السلام وأنشده

نفسي فداؤك لو نفسي ملكت إذا ما كان غيرك يجزيها ويرضيها
صبراً على ما قضاه الله فيك على مرارة في اصطباري عنك اخفيها

قال الرجل فلما بلغته ذلك بكى حتى غشي عليه ثم أفاق وهو يقول عجبت لعروة العذري البيتين السابقين في صدر القصة ولما أيس أهله منه وخالط الوحوش أخذوا يحتالون على إصلاحه فقال أبوه يوماً لشخص أريد أن تمر به فتذكر له ليلى وانك من عندها وانها تذكره كثيراً فاذا أعطاك سمعه وتمكنت منه فاذكر له انها تشتمه وتنقصه فعساه أن يداخلة كرهها قال الرجل فمضيت حتى اجتمعت به وأعلمته بذلك حتى ذكرت انها تشتمه فأنشد

تمر الصبا صفحا بساكن ذي الغضى ويصدع قلبي أن يهب هبوبها
اذا هبت الريح الشمال فانما جوابي بما يهدي إليّ جنوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كل نفس حيث كان حبيبها
وحسب الليالي ان طرحنك مطرحاً بدار قلى تمسي وأنت غريبها
حلال لليلى شتمنا وانتقاصنا هنيئاً ومغفور لليلى ذنوبها

هذا ما ذكر في الأصل وانكر في النزهة ذلك وقال ان أبا المجنون مات قبل اختلاط عقله كما سبق وفي تسريح الناظر ان الذي أمر الرجل بذلك زياد بن كعب أحد بني عم المجنون وهو الأوجـــه وقيل للمجنون يوماً أتحب ليلى قال نعم حباً خالط الدم ومازج الأعضاء قيل فما يغني حبك لها وهي مريضة وأنت لا تعودها فتنفس الصعداء وأنشد

يقولون ليلى بالصفاح مريضة فهاذا اذا يغني وأنت صديق
شفى الله مرضي بالصفاح فانني على كل شاك بالصفاح شفيق

وعن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن المسور بن مخرمة وكان والياً على الصدقات من قبل مروان أو عبد الملك وله صحبة عند الذهبي قال قدمت على بني عامر لأخذ أموال الصدقة فرأيت شخصاً عارياً يلعب بالتراب فأمرت له بثوب فقيل لي لو كان يلبس لكان في مال أبيه كفاية فانه سيد الحي ، ولكنه تولع بحب امرأة فصيرته هكذا قال فقمت اليه وكلمته فلم يعقل فقيل لي ان أردت أن يفهم مـــا تقول فاذكر له ليلى فقلت أتحب ليلى قال نعم فقلت له أتريد أن أزوجك بها قال أو ممكن ذلك قلت نعم فقال يا له من جميل لو أن أهل الأرض شكروك معي لم يفوا فعند ذلك قام فلبس ثيابه وأقام معه بوعد منه الى يوم يجتمع لهم فيهم ليأخذه فأخبروه باهدار السلطان دمه فصرفه وقيل هموا بقتاله فصرفه إنما كان خوف الفتنة فقال المجنون له والله انك لم تف بالوعد ثم مزق ما عليه وانصرف وفي الكتاب ما يشعر بأن القصة مع محمد بن نوفل وليس كذلك لما ستعرفه من ان نوفلاً لم يزل من ذلك اليوم متطلباً لأخبار المجنون جامعاً لأشعاره وانه قدم سنة من السنين يسأل عنه فقالوا لم نعرف له خبراً فركب في طلبه حتى لاح له وراء اراكة بين قطيع من الغزلان وقد غطاه شعره فصعد نوفل الشجرة مستخفياً وشربت الظباء وانصرفت فوقف المجنون يرعى هذا ما في الأصل وفي نزهة المشتاق انه انصرف معهم ولم يمكنه الاجتماع به فرجع متأسفاً وشكا ما به الى شيخ كبير في بني سعد فقال له الشيخ ان للمجنون داية يألفهـــا وانها تحمل له

الطعام والخبز أحياناً فيأكل منها ولو صحبتها لأمكن أن تظفر به ففعل ، فهرب المجنون منها فرجع وأخبر الشيخ فقال له الشيخ قد قرأت في سالف الأخبار ان سلطاناً قال لوزيره أخبرني عن أعظم رائحة وأقوى لذة وأشد حافر على الأرض وقد أمهلتك ثلاثاً فان لم تجب جللتك بالسيف

فمضى مهموماً وكان له ابنة قد اتخذت قصراً مفتوحاً الى الأربع جهات على قارعة الطريق للنزهة فلما رأت ما بأبيها استعطفته حتى أخبرها فاستسهلت الأمر وقالت له اذا عدت اليه من الغد فأخبره ان أقوى رائحة رائحة الخبز وأعظم الأشياء لذة الجماع وأشد حافر على الأرض البغال فلما أعلمه قال له اخبرني من أين لك ذلك فصدقه الأمر فاستحضر البنت وقال لها لئن لم تخبريني عن تعليل ذلك والا ضربت عنقك فانك بكر لم تعلمي أحوال النساء ولا لذة الجماع فقالت أيد الله الملك ان قصري منفتح للاهوية فلم أجد من لدن قطنت به رائحة يتكيف بها الهواء أعظم من الخبز ولم يتحرك جدار القصر من شيء غير البغال وأما الجماع فانني أخذته من شدة ألم الوضع وما شاهدت من مقاساة النساء فمه فلو لم يكن الجماع أعظم لذة ما عدن اليه والرأي عندي ان تصنع خبزاً وتجعله في طابق يضم بخاره وتفتحه حيث يشمه فانه يقف لبعد عهده به فتذكر له ليلى فيزداد أنساً قال الرجل فمضيت وعملت برأي الشيخ وطيبت الخبز بالأفاويه حتى اذا أقبل ولحته من خلال الأواكة كشفت الخبز وصعدت لتشرب الظباء فشربن وسرن ووقف يشم الرائحة فأنشدته من الشجرة

أتبكي على ليلى ونفسك باعدت مزارك من ليلى وشعبا كما معا

فاندفع يقول

فما حسن أن يأتي الأمر طائعاً وتجزع أن داعي الصبابة أجزعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها على الجهل بعد الحلم اسبلتا معا
واذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن يصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع اليك ولكن خل عينيك تدمعا

معي كل عز قد عصى عاذلاته بوصل الغواني من لدن أن ترعرعا
اذا راح يمشي في الرداءين أسرعت اليه العيــون الناظرات التطلعا

ثم سقط مغشياً عليه فتمثلت بقوله :

يا دار ليلى بسقط الحي قد درست الا الثمام والا موقد النـــار
ابلى عظامك بعد اللحم ذكركها كما ينحت قدح الشوحط الباري
ما تفتئوا الدهر من ليلى تموت كذا في موقف وقفته أو على داري

فرفع رأسه وقال من أنت حياك الله فقلت له نوفل أخبرني ما صنعت بعدي فأنشد الا حجبت ليلى الأبيات ثم أخذ يفاوضني في الكلام حتى سنح له قطيع ظباء فطفق يعدو حتى اختلط بها وفارقته فلم أره بعد قلت وفي النزهة انه تطلبه مرة أخرى غير هذه فوجده بين حجرين ميتاً فأخذه ودفنه وسيجيء ذكر ما رأى له من الأشعار منقوشاً في التراب أورده آخر القصة على النمط السابق في غيره ومر برجلين قد اصطادا ظبية وربطاها فعزم عليهما أن يطلقاها فأبيا عليه فأطلقها بشاة من غنمه وأنشد

شريت بكبش شبه ليلى ولو أبوا لأعطيت مالي من طريف وتالد
فيا بائعي شبهاً لليــلى قتلتما وجنبتما مـــا ناله كل عابد
فلو كنتما حرين مـــا بعتما فتى شبيهاً لليلى بيعـــة المتزايـــد
واعتقتماها رغبة في ثوابهـــا ولم ترغبـــا في ناقص غير زائد

وقيل ان الرجلين أخوه وابن عمه وانه أنشدهما متعرضاً لبخلهما

يا اخوى اللذين اليوم قد أخـذا شبهاً لليلى بجبـــل ثم غلاها
اني أرى اليوم في أعطاف شاتكما مشابهاً أشبهت ليـــلى فحلاها

وانه عرض عليهما القتل حين أبيا افلاتها لأنه كان أجلد منهما وفي رواية فداها بقلوص ولما ذهبت تعدو وأنشد أيا شبه ليلى الابيات وزاد هنا

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك رقيق

وقد وردت هذه الرواية من طرق كثيرة وفي إحداها يا صاحبي اللذان وهو أسلم من الزحاف هذا ما تلخص من صحيح أخباره وأما ما قيل من أنه مر بزوج ليلى وهو في حي بني عامر عند ابن عم له يصطلي فوقف على رأسه وأنشد

بربك هـــل ضممت اليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاهـــا
وهل زفت عليك قرون ليلى زفيف الأقحوانـــة في نداها

فقال أما إذ حلفتني فنعم فصرح المجنون وقبض الجمر بكلتا يديه وسقط مغشياً عليه فأكل الجمر لحم راحتيه وقام زوج ليلى مغموماً وما قيل أيضاً من أن ابا المجنون طرقه ضيوف ليلاً فأرسله الى ابي ليـــلى ليقترض منه سمناً فأمرها أبوها أن تخرج اليه بنحى فتملأ وعاءه فجعلت تسكب فيه ويتحاثان حتى غرقت أرجلهما

وانه جاء ليلة أخرى يستقبسها ناراً فخرجت اليه بقضبة فكان يتحدث معها ويقطع من برد عليه يغلف به النار ، وكلما احترقت قطعة أخذ أخرى حتى صار عرياناً فلم يصح اسناده عندنا كصحة غيره ومثل ذلك ما قيل من ان جنونه كان مجازاة لقوله قضاها لغيري او لسماع هاتف أنشده

كلانا مغرم في حب ليلى بفيّ وفيك من ليلى التراب

فاختلط عقله ، وأما حال موته فالصحيح مـــا قدمناه وقيل ان رجلاً شامياً كان مغرماً بأشعاره وأشعار قيس بن ذريح قدم للاجتماع به او الرجل من بني جعدة أو مرة او هو الصباح بن عامر الكفاني أقوال فسأل اهله عنه فأخبروه انه متوحش من الانس الا صديقاً له يذهب اليـــه في كل يوم يكتب ما يقول من الأشعار وداية تذهب اليـــه بطعام فمضى اليهما يسألهما الحيلة في الاجتماع عليه فقـــالا له اقصده في موضع كذا فستجده جالساً عند خط حوله التراب وهو يعبث بأصابعه فيه فاذا رآك أخذ الأحجار وهمّ

بضربك فاصرف بصرك عنه وأطل الجلوس ثم أنشد مـــا يحضرك من شعر قيس فانه مغرم به فاذا فعلت بلغت ما تريد منه فمضى الرجل يقتفي أثره حتى وجده على ما وصف فلما أنس به قال رحم الله قيساً حيث يقول

نبيت ونضحي كل يوم وليـــلة على منهج تبكي عليه القبـــائل
قتيـــل للبنى صدع الحب قلبه وفي الحب شغل للمحبين شاغل

فقال انا والله أشعر منه حيث أقول

سلبت عظامى لحمهــا فتركتها معرّقة تضحى اليـــه وتضجر
وأخليتهـــا من منحها وكأنها قوارير في أجوافها الريح تصفر
اذا سمعت ذكر الفراق تقطعت علائقهـــا مما تخـــاف وتحذر
خذي بيدي ثم انهضي بي تبيني بي الضر إلا انـــني أتســـتر

ثم انساب يعدو وفارقته فلما كان اليوم الثاني جئت على العادة وأنشدت قول قيس

تبادر أم تروح غداً رداحا ولن يستطيع مرتهن براحا
سقيم لا يصاب له دواء أصاب الحب مقلته فباحـــا
وعذبـــه الهوى حتى براه كما القيت بالسفن القـــداحا
فكاد يذيقه جرع المنـــايا ولو أسقـــاه ذلك لاستراحا

فقال أشعر منه حيث أقول

فما وجدمغلوب بصنعاء موثق لساقيه من ثقل الحديد كبول
قليل الموالي مستهام مروّع له بعد نومات العشاء عويل
يقول له الحـداد أنت معذب غداة غـــداً ومسلم فقتيل
بأعظم مني روعة يوم راعني فراق حبيب ما اليه سبيل

ثم فعل فعلته بالأمس وعاودته فقلت أحسن والله قيس حيث يقول

ألا يا غراب البين ويحك أنبني بعلمك في لبنى وانت خبير
فان أنت لم تخبر بشيء علمته فلا طرت الا والجناح كسير
ودرت بأعداء حبيبك بينهم كما قد تراني بالحبيب أدور

وفي رواية ابن الاعرابي

ألا يا غراب البين هل أنت مخبري بخير كما خبرت بالنأي والشر
وخبرت ان قد جدَّ بين وقربوا جمالاً للبنى مثقلات من الغدر
وهجت فدى عين للبنى مريضة اذا ذكرت فاضت مدامعها تجري
وقلت لذاك الدهر ما زال فاجعاً صدقت وهل شيء بباق على الدهر

فقال له المجنون أحسن والله ولكني أشعر منه حيث اقول كان القلب البيتين فامهلته حتى فرغ ثم قلت واحسن قيس ايضاً حيث يقول واني لمفن دمع عيني بالبكا

الأبيات السابقة في قصة قيس قال فبكى حتى ظننت انه فاضت نفسه ثم قال احسن والله وانا أشعر منه حيث أقول

وادنيتني حتى اذا ما سبيتني بقول يحل العصم سهل الأباطح
تنـــاءيت عني حين لالى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

قال ولم أزل أعاوده أكتب ما يقول الى ان تطلبته فوجدته بين أحجار ميتاً وفي رواية ان هذا الرجل لم يجتمع بـــه وأخرى رآه ميتاً محمولاً قد دلت عليه دابته وانه لم يكتب اشعاراً الا من عند صديقه المقدم ذكره بالجملة فمحل الاجماع انه وجد ميتاً فاحتمل وغسل ودفن وحضر جنازته جميع بني جعدة وسعد والحريش وحضر أبو ليلى فأظهر جزعاً شديداً وتنصل واعتذر بأنه لم يعلم ان أمره يقضي الى هذه الحالة ولو يعلم لاحتمل العار وزوّجه ، ولما غسل وجدوا الرقعة مكتوباً فيها

ألا ايها الشيخ الذي ما بنا يرضى شقيت لا هنئت من عيشك الخفضا
شقيت كما اشقيتني وتركتـــني أهيم مع الهلاك لا أطعم الغمضا
كأن فؤادي في مخاليب طـــائر إذ اذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم على فما تزداد طولاً ولا عرضـا

وقيل ان ليلى توفيت قبله وانه سمع هاتفاً يقول

أمنعية بالموت ليلى ولم تمت كأنك عمد أظلك غافل

فسقط ميتاً وهذا أمر يتعذر الوصول الى تحقيقه وله أشعار كثيرة بلا أسباب من محاسنها قوله

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصـــادف قلباً فارغاً فتمكنا

ومنها

تقول العدا لا بارك الله في العـدا تقاصر عن ليلى ورثت رسائله
ولو أصبحت ليلى تدب على العصا لكان هوى ليلى جديداً أوائله

ومنها

فلو تلتقي في الموت روحي وروحها ومن بين رمسينا من الأرض منكب
لظل صدى رمسي وان كنت رمه لصوت صدى ليلى يهش ويطرب

قلت قال في النزهة وشتان ما بين هذا وما بين قول ثوبة في ليلى الأخيلية:

ولو انَّ ليلى الأخيلية سلمت عليّ ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا اليها صدى من جانب القبر صائح

قول وفحوى الكلام ان قول المجنون أبلغ لأن تلاقي روحي ميتين أعظم في جانب المبالغة من تلاقي حي وميت وكلام ثوبة من الثاني ويمكن نقل هذا الى مبحث حكمي وعكس كلام صاحب النزهـــة فقد أجمعت الحكماء بل

وأصحاب الشرع بأن استلذاذ الأرواح وادراكها بعد مفارقة اليها كل الجسمية أشد وأقوى فتأمله

ومنها :

فلو زرت بيت الله ثم رأيتهـــا بأبوابه حيث استجـــار حماها
لمست ثيـــابي ان قدرت ثيابها ولم ينهني عن مسهن حمامهـــا
ولو شهدتني حـــين تأتي منيتي جلا سكرات الموت عني ابتسامها

ومنها :

أقول لالف ذات يوم لقيتـــه بمكة والانضـــاء ملقى رحالها
بربك أخـــبرني ألم تأثم التي أضر بجسمي من زمان خيالها
فقـــال بلى والله سوف يمسها عذاب وبلوى في الحياة تنالهـا
فقلت ولم أملك سوابق عبرة سريع الى جيب القميص انهمالها
عفا الله عنها ذنبها واقالهـــا وان كان في الدنيـا قليلاً نوالها

ومنها

وأحبس عنك النفس والنفس صبة بذكراك والممشى اليك قريب
مخـــافة أن يسعى الوشاة بظنة واحرسكم ان يستريب مريب
لقد جعلت نفسي وأنت اخترمتها وكنت أعز الناس عنك تطيب
فلو شئت لم أغضب عليك ولم يزل لك الدهر مني ما حييت نصيب
أمـــا والذي يبلوا السرائر كلها ويعلم مـــا تبدي به وتغيب
لقد كنت ممن تصطفى النفس خلة لها دون خلان الصفاء حجوب

ومنها .

الا ليت ليـــلى اطفأت حر زفرة أعالجها لا استطيع لهـــا ردا
اذا الريح من نحو الحمى نسمت لنا وجدت لمسراها ومنسمها بردا

على كبد قد كاد يبدي بها الهوى ندوباً وبعض القوم يحسبني جلدا
واني يماني الهوى منجد النـوى سبيلان القي من خلافهما جهدا
سقى الله نجداً من ربيع وصيف وما ترجى من ربيع سقى نجدا
بلى انه قـــد كان للعيش مدة وللعيس والركبان منزلة حمدا
أبى القلب ان ينفك من ذكر نسوة رقائق لم يخلقن شوها ولا نكدا
اذا رحن يسحبن الذيول عشية ويقتلن بالالحـــاظ أنفسنا عمدا
مشا عيطلات رجح بحضورهـا روادف وعثات ترد الخطا ردا
وتهتز ليلى العـــامرية إذ مشت ولاثت بثوب القز ذا غدر جعدا
اذا حرك المدرى ضفائرها العلا مزجن بذي الريحان والعنبر الوردا

ومنها

أبى القلب الأحبـــة عامرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو
تـكاد يدي تندى اذ مـــا لمستها وتنبت في أطرافها الورق الخضر

ومنها وقد ضعف فعاده الناس ولم تعده ليلى فأنشد

الا ما لليلى لا ترى عند مضجعي بليـــل ولا يجري بذلك طائر
بلى ان عجم الطير تجري اذا جرت بليلى ولكن ليس للطير زاجر
أزالت عن العهد الذي كان بيننا بذي الأيك أم قد غيرتها المقادر
فوالله ما في القرب لي منك راحة ولا البعد يسليني ولا أنا صابر
ووالله ما أدرى بأية حيـــلة وأي مرام أو خطـــار أخاطر
وتالله ان الدهر في ذات بيننـــا عليّ لهـــا في كل حال لجائر
فلو كنت إذ أزمعت هجري تركت لي جميع القوى والعقل مني وافر
ولكن أيامي بحقـــل عنيزة وبالردم أيام حبـــاها التجاور
وقد أصبح الود الذي كان بيننا أمـــانيّ نفس والمؤمـــل حـــائر
لعمري لقد كدرت يا أم مالك حياتي وساقتني اليك المقـــادر

ومنها

فوا كبدي من حب من لا يحبني ... ومن زفرات ما لهن فناء
أريتك ان لم أعطك الحب عن يد ... ولم يك عندي إذ أبيت اباء
أتاركتي للموت أنت فميت ... وما للنفوس الخائفات لقاء

ومنها

وجاءوا اليه بالتعاويذ والرقي ... وصبوا عليه الماء من ألم النكس
وقالو به من أعين الجن نظرة ... ولو عقلوا قالوا به نظرة الأنس

ومنها

وشغلت عن فهم الحديث سوى ... ما كان فيك فأنتم شغلي
وأرى جليسي إذ يحدثني ... ان قد فهمت وعندكم عقلي

ومنها

سرت في سواد القلب حتى اذا انتهى ... بها السير وارتادت حمى القلب حلت
فللعين تهمال اذا القلب ملها ... وللقلب وسواس اذا العين ملت
ووالله ما في القلب شيء من الهوى ... لأخرى سواها أكثرت أم أقلت

ومنها

ذكرت عشية الصدفين ليلى ... وكل الدهر ذكراها جديد
عليّ ألية ان كنت أدرى ... أينقص حب ليلى أم يزيد

ومنها

يا ويح من أمسى تخلس عقله ... فأصبح مذهوباً به كل مذهب
خلياً من الخلان الا معذرا ... يضاحكني من كان يهوى تجنبي
اذا ذكرت ليلى عقلت وأرجعت ... روائع عقلي من هوى متشعب
وقالوا صحيح ما به طيف جنة ... رلا الهم الا بافتراء التكذب

تجنبت ليلى إذ يلح بك الهوى — وهيهات كان الحب قبل التجنب
ألا إنما غادرت يا أم مالك — صدى أينما يذهب به الريح يذهب
ولم أر ليلى بعد موقف ساعة — بخيف منى ترمي جمار المحصب
وتبدي الحصا منها إذا قذفت بها — من البرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر — مع الصبح في أعقاب نجم مغرّب

ومنها

واني لمجنون بليلى موكل — ولست عزوفاً عن هواها ولا جلدا
اذا ذكرت ليلى بكيت صبابة — لتذكارها حتى يبل البكا الخدّا

ومنها

ألا يا حمام الأيك مالك باكياً — أفارقت الفاً أم جفاك حبيب
دعاك الهوى والشوق لما ترنمت — هتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوب ورقا قد أذن لصوتها — فكل لكل مسعد ومجيب

ومنها

لقد غردت في جنح ليل حمامة — على إلفها تبكي وإني لنائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقاً — لما سبقتني بالبكاء الحمائم

ومنها :

اذا قربت داري كلفت وان تأت — أسفت فلا بالقرب أسلو ولا البعد
وان وعدت زاد الهوى لانتظارها — وان بخلت بالوعد مت على الوعد
ففي كل حب لا محالة فرحة — وحبك ما فيه سوى محكم الجهد

ومنها ، وهو كما قال في النزهة من الأشعار التي قيلت على الأوهام قال لما حضروا به في مكة بات ليلة فجعل يحدث نفسه كالذي في النوم ويعاتب

امرأة حاضرة فقيل له في ذلك فحلف ان ليلى كانت الى جانبه في هذا الوقت ثم أنشد

طرقتك بين مسبح ومكبر بحطيم مكة حيث كان الأبطح
فحسبت مكة والمشاعر كلها وجبالها باتت بمسك تنفح

ومنها

لئن نزحت دار بليلى لربما عنينا بخير والزمان جميع
وفي النفس من شوقي اليك حرارة وفي القلب من وجدي عليك صدوع

وأما قصيدته الموسومة بالمؤنسة فهي أطول قصيدة أنشدها وواظب عليها قيل انه كان يحفظها دون اشعاره وانه كان لا يخلو بنفسه الا وينشدها وهي من محاسن الاشعار وأرقها لفظاً وأعذبها سبكاً وألطفها شجواً وأبلغها نسيباً وغزلاً تهيج الشجون وتعين المحزون وللناس في الاقتصار على بعضها والاستصفاء منها اختلاف كثير أحسنه

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وأيام لا أعدى على الدهر عاديا
ويوم كظل الرمح قصرت ظله بليلى فلهاني وما كنت لاهيا
فيا ليل كم من حاجة لي مهمة اذا جئتكم بالليل لم ادر ماهيا
خليليَّ ألا تبكي لي التمس خليلا اذا أنزفت دمعي بكى ليا
فما أشرف الايفاع الا صبابة ولا أنشد الأشعار الا تداويا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا
لحي الله أقوا ما يقولون اننا وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
وعهدي بليلى وهي ذات مؤصد ترد علينا بالعشي المواشيا
فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها واعلاق ليلى في فؤادي كما هيا
اذا ما جلسنا مجلساً نستلذه تواشوا بنا حتى أمل مكانيا
سقى الله جارات لليلى تباعدت بهن النوى حيث احتللن المطاليا

بثمرين لاحت نار ليلى وصحبتي | بقرع العصا ترجى المطى الحوافيا
فقال بصير القوم لمحة كوكب | بدا في سواد الليل من ذي يمانيا
فقلت لهم بل نار ليلى توقدت | بعليا تسامى ضوءها فبدا ليا
خليلي لا والله لا أملك الذي | قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبها | فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
وخبرتماني ان تيمـاء منزل | لليلى اذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قدانقضت فما للنوى ترمي بليلى المراميا
فلو ان واش باليمامـه داره | وداري باعلى حضرموت أتى ليا
وماذا لهم لا أحسن الله حالهم | من الحظ في تصريم ليلى حباليا
وقد كنت اعلو حب ليلى فلم يزل | بي النقض والابرام حتى علانيا
فيا رب سو الحب بيني وبينها | يكون كفافاً لا عليَّ ولا ليا
فما طلع النجم الذي يهتدى به | ولا الصبح الاهيجا ذكرها ليا
ولا سرت ميلاً من دمشق ولا بدا سهيل لأهل الشام الا بدا ليا
ولا سميت عندي لها من سمية | من الناس الا بل دمعي ردائيا
ولا هبت الريح الجنوب لأرضها | من الليل الا بت للريح جانيا
فان تمنعوا ليلى وتحموا بلادها | عليّ فلن تحموا عليَّ القوافيا
فاشهد عند الله اني أحبهـا | فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا | وبالشوق مني والغرام قضى ليا
وان الذي املت يا أم مالك | أشاب فؤادي واستهان فؤاديا
أعد الليالي ليلة بعد ليـلة | وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا
واخرج من بين البيوت لعلني | أحدث عنك النفس بالليل خاليا
أراني اذا صليت يممت نحوها | بوجهي وان كان المصلي ورائيا
وما بي اشراك ولكن حبها | وعظم الحوى أعيى الطبيب المداويا

أحب من الأسماء ما وافق اسمها　　واشبهه او كان منه مدانيا
خليليَّ ليلى أكبر الحاج والمنى　　فمن لي بليلى او فمن لها بيا
لعمري لقد ابكيتني يا حمامة العقيق وابكيت العيون البواكيا
خليليَّ ما أرجو من العيش بعدما　　أرى حاجتي تشرى ولا تشترى ليا
وتجرم ليـــلى ثم تزعم انني　　سلوت ولا يخفى على الناس ما بيا
فلم أر مثلينا خليلي صبـــابة　　أشد على الرغم الاعادي تصافيا
خليلان لا نرجو اللقاء ولا ترى　　خليلين الا يرجوان تلاقيـــا
واني لاستحييك أن تعرض المنى　　توصلك او ان تعرضي في المني ليا
يقول أناس على مجنون عـــامر　　يروم سلوا قلت أنى لما بيـــا
اذا ما استطال الدهر يا أم مالك　　فشأن المنايا القاضيات وشأنيا
اذا اكتحلت عيني بعيني لم تزل　　بخير وجلت غمرة عن فؤاديـــا
فانت التي ان شئت شقيت عيشتي　　وانت التي ان شئت انعمت باليا
وانت التي ما من صديق ولا عدى　　يرى نضو ما أبقيت الارثي ليـا
أمضروبة ليلى عليَّ أزورهـــا　　ومتخـذ دين لهـا أن ترانيـا
اذا سرت في الأرض الفضاء رأيتني　　أصانع رحلي أن يميل حياليـا
يميناً اذا كانت يميناً وان تكن　　شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا
واني لاستغشى ومـا بي نعسة　　لعل خيالاً منك يلقي خياليا
هي السحر الا أن للسحر رقية　　واني لا ألقي لها الدهر راقيـا
اذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا　　كفى المطـايانا بذكراك هـاديا
ذكت نار شوقي في فؤادي فأصبحت لها وهج مستضرم في فؤاديا
ألا ايها الركب اليمانون عرّجوا　　علينا فقد أمسى هـوانا يمـانيا
أسائلكم هل سال نعمان بعدنا　　وحب الينا بطن نعمان واديـــا
ألا يا حمامي بطن نعمان هجتما　　عليَّ الهـوى لمـا تغنيتما ليـا
وأبكيتماني وسط صحبي ولم أكن　　أبالي دموع العين لو كنت خاليا

ويا أيهـا القمريتـان تجاذبا بلحنيكما ثم اسجعا علانيا

فان أنتما استطربتما أو أردتما لحاقا بأطلال الغضى فاتبعانيا

ألا ليت شعري ما للىلى وما ليا وما للصبا من بعد شيب علانيا

ألا ايها الواشي بليلى ألا ترى الى من تشيها أو لمن انت واشيا

لئن ظعن الاحباب يا أم مالك فما ظعن الحب الذي في فؤاديا

فيا رب اذ صيرت ليلى هي المنى فزنى بعينيها كما زنتها ليا

والا فغضها إلي واهلهـا فاني بليلى قد لقيت الدراهيا

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وان كنت من ليلى على اليأس طاويا

خليليّ ان ضنوا بليلى فقرّبا الى النعش والاكفان واستغفرا ليا

أخبار عروة بن حزام وصاحبته عفراء

هو عروة بن حزام بن مـالك بن حزام بن ضبة بن عبد بن عدرة شاعر لبيب حاذق متمكن في العشق. قيل انه أول عاشق مات بالهجر من المخضرمين أو من العذريين ولشدة مقاساته في العشق ضرب به المثل بين العرب والمولدين قال المجنون عجبت لعروة العذريّ البيت ، وقال أبو عيينة

فما وجد النهدي إذ مات حسرة   عشية بانت من حبـــائله هند
ولا عروةالعذريّ إذ طالوجده   بعفراء حتى شف مهجته الوجد
كوجدي غداة البين عند التقاتها   وقد طار عنهـا بين أترابها البرد

وقال آخر

وقبلك مـات من وجد بهند   أخو نهد وصاحبـه جميل
وعروة والمرقش هـام دهراً   بأسماء فـــلم يغن العويل
قتيل الريح من قبل الغواني   فـــلا قود ولا يودي قتيل

وقال جرير

هل أنت شافيـة قلباً يهيم بكم   لم يلق عروة من عفراء ما وجدا
مـــا في فؤادي من داء يخامره   الا التي لو رآها راهب سجدا
انّ الشفـــاء وان ضفنت بنائله   قرع البشام الدي تجلو به البردا

ان غير ذلك   وعفراء هي بنت هصر أخي حزام كلاهما ابنا مالك من

بطن من العذريين ، يقال له نهد قال في تسريح النواظر ان سبب عشقه لها ، أن أباه حزاماً توفي ولعروة من العمر أربع سنين وكفله هصر أبو عفراء ، فانتشئا جميعاً فكان يألفها وتألفه فلما بلغ الحلم ، سأل عروة عمه تزويجها فوعده ذلك ثم أخرجه الى الشام بعير له وجاء ابن أخ له يقال له اثالة بن سعيد بن مالك يريد الحاج فنزل بعمه هصر فبينما هو جالس يوماً تجاه البيت إذ خرجت عفراء حاسرة عن وجهها ومعصميها تحمل أدواة سمن وعليها ازار خز أخضر

فلما رآها وقعت من قلبه بمكانة عظيمة فخطبها من عمه فزوّجه بها وان عروة أقبل مع البعير وقد حمل أثالة عفراء على جمل أحمر فعرفها من البعد ، وأخبر أصحابه ، فلما التقيا وعرف الأمر بهت لا يحير جواباً حتى افترق القوم فأنشد

وانى لتعروني لذكراك رعدة لها بين جلدي والعظام دبيب
فما هو الا ان رآها فجاءة فأبهت حتى ما يكاد يجيب
فقلت لعرّاف اليمامة داوني فانك ان أبرأتني لطبيب
فما بي من حمى ولا مس جنة ولكنّ عمي الحميريّ كذوب
عشية لا عفراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب
بنا من جوى الأحزان والبعد لوعة تكاد لها نفس الشفيق تذوب
ولكنما أبقى حشاشةِ مقول على ما به عود هناك صليب
وما عجبي موت المحبين في الهوى ولكن بقاء العاشقين عجيب

وقيل انه لم ينشد في ذلك الموقف سوى البيتين الأولين ، وأما قوله فقلت لعرّاف اليمامة الى قوله وما عفراء منك قريب فانه أنشده حين أتى به الى الطبيب وسبب ذلك انه حين وصل الحي أخذه الهذيان والقلق وأقام أياماً لا يتناول قوتاً حتى شفت عظامه ولم يخبر بسره أحداً ، وانه حمل ليلة الى فضاء ليتنزه به ، فسمع رجلاً يقول لوالده على أيّ ناقة حملت الشمس ،

يعني قرب الماء ، فقال على العفراء ، فأغمي عليه ساعة ثم قام مخبولاً وكان باليمامة عرّاف يعني كاهناً له قرين من الجن يعرّفه الأخبار ودواء بعض الأدواء وكان يقال له رياح بن راشد وكنيته أبو كحلاء مولى لبني يشكر فحملوه اليه فلما رآه أخذ يعالجه بأنواع العلاج والرقي والصبّ عليه وأصل ذلك أن العرب كانت اذا تخليت بشخص سحراً جعلت على رأسه طبقاً فيه مـــاء ثم أذابت الرصاص وسكبته في ذلك الماء ودفنته في فضاء من الأرض فيزول عن الشخص ما به ، وان الكاهن فعل بعروة ذلك مراراً فلما ينجع ، أخبرهم ان ما به ليس الا من العشق

وقيل انه عرف ذلك من يوم قدومهم به ، فلمـــا أحس باليأس أنشد فقلت لعرّاف اليمامة الأبيات فحمل الى عرّاف آخر بنجد ففعل به مثل ذلك فأنشد الأبيات الآتية في نونيته وهي قوله جعلت لعراف اليمامة وأما قوله بنا من جوى الأحزان ويروي وبي من جوى الأحزان فعلى الأصح كما في النزهة انه من هذا الشعر

وقيل أنشده حين حمل الى ابن عباس ليدعو له بمكة وقد سلف أن صاحب القصة غيره وان صحح ابن عساكر خلافه ، ولمـــا أيس من الشفاء تمرض بين أهله زماناً حتى شاع انتحاله في العرب مثلاً وان ابن أبي عتيق مر به فرأى أمه تلاطف غلاماً كالخيال فسألها عن شأنه ، فقالت هو عروة فسألها نضوا الغطاء عنه ، فلما شاهده قضي عجباً ثم استنشده فأنشد جعلت لعرّاف اليمامة حكمه الأبيات ولما علم الضجر من أهله ، قال لهم احتملوني الى البلقاء فاني أرجو الشفاء

فلمـــا حلّ بها وجعل يسارق عفراء النظر في مظان مرورها ، عاودته الصحة فأقام كذلك الى أن لقيه شخص من عذرة فسلم عليه فلما أمسى دخل على زوج عفراء فقال له متى قدم هـــذا الكلب عليكم فقد فضحكم بكثرة ما يتشبب بكم فقال من قال عروة قال انت أحق بما وصفته به والله ما علمت بقدومه وكان زوج عفراء موصوفاً بالسيـــادة ومحاسن الأخلاق في

قومه فلما أصبح جعل يتصفح الأمكنة حتى لقي عروة فعـــاتبه وأقسم بالمحرجات انه لا ينزل الا عنده فوعده ذلك، فذهب مطمئناً وان عروة عزم ان لا يبيت الليل ، وقد علم به فخرج فعاوده المرض فتوفي بوادي القرى ، دون منازل قومه

وقيل وصلها لرواية ابن العاص ، قـال استعملني عمر رضي الله عنه في جباية صدقات العذريين فبينما أنا يوماً بازاء بيت إذ نظرت امرأة عند كسر البيت والى جانبها شخص لم تبق الا رسومه فجلست أنظر اليه فتموّج ساعة ثم خفق حفقة فارق الحياة فقلت لها من الرجل قالت عروة فقلت كأنه قضى فقالت نعم ، ولما بلغ عفراء وفاته قالت لزوجها قد تعلم ما بينك وبيني وبين الرجل من الرحم وما عنده من الوجد وان ذلك على الحسن الجميل فهل تأذن لي أن أخرج الى قبره فأندبه فقد بلغني انه قضي ، قال ذلك اليك فخرجت حتى أتت قبره فتمرغت عليه وبكت طويلاً ثم أنشدت

ألا أيهـا الركب المخبون ويحكم   بحق نعيتم عروة بن حـــزام
فان كان حقاً ما تقولون فاعلموا   بأن قد نعيتم بدر كل ظلام
فـــلا لقي الفتيان بعدك راحة   ولا رجعوا من غيبـــة بسلام
ولا وضعت انثى تمامـــاً بمثله   ولا فرحت من بعده بغـــلام
ولا لابلغتم حيث وجهتم لـــه   ونغصتم لذات كل طعـــام

وفي كتاب النزهة لابن داود ان ركباً شاهدوا موته ، فلما قدموا الحي أنشد رجل منهم عند بيت عروة

ألا أيهـا القصر المغفل أهله   بحق نعينـا عروة بن حزام

فجاوبته عفراء ألا أيها الركب هكذا بيتاً فبيتاً الى أربعة والباقي لعفراء وهذا غير صحيح لأن القبر في طريقها قبل منازلهم   وفي هذه الرواية بدل قوله فلا لقي الفتيان ، فلا هنىء الفتيان بعدك غادة   والأول ألطف وبدل فلا وضعت انثى . فقال للحبالى لا يرجين غائباً وفيه إضافة غير مناسبة إذ

لا مناسبة بين الحمل والغيبة الا بتأويل لا يليق بفصاحة العرب ، ولما فرغت من شعرها ألقت نفسها على القبر فحركت فوجدت ميتة وما قيل من انهـا منعت المجيء الى قبره ومن انه كان في عهد عثمان أو معاوية وان الذي شهده الحاكي أحدهما ومن ان عمر قال لو أدركتهما لجمعت بينهما غير صحيح الرواية كما في النزهة نعم حمل قول عمر على الرؤية وتمسك من قال ان عفراء لم تزر قبره بقولها

عداني أن أزورك يا خليلي معـاشر كلهم واش حسود
أشاعوا ما علمت من الدواهي وعـابونا وما فيهم رشيد
فاما إذ ثويت اليوم لحـدا فدور الناس كلهم اللحـود
فـلا طابت لي الدنيا فراقا لبعـدك لا يطيب لي العديد

ولما قضت دفنت الى جانبه فنبت من القبرين شجرتان حتى اذا صارتا على حدقامة التفتا فكانت المارة تنظر اليهما ولا يعرفان من أي ضرب من النبات وكثيراً ما أنشدت فيهما الناس فمن ذلك قول الشهاب محمود

بالله يا سرحة الوادي اذا خطرت تلك المعاطف حيث الرند والغار
فعانقيهم عن الصب الكئيب فما على معانقة الأغصـان انكار

وقول صاحب الأصل

غصنان من دوحة طال ائتلافهما فيها فجالت صروف الدهر فافترقا
فصار ذا في يـد تحويه ليس له منها براح وهذا في الفـلاة لقا
حتى إذا ذويا يومـاً وضمهما بعد التفرق بطن الأرض واتفقا
حنا على العهد في أرجائها فحنا كل على ألفـه في الترب واعتنقا

قلت وبين هذين خلاف في اللفظ والمعنى ويحتمل رجوعه الى خصوص وعموم مطلق فان الأول أرق وأعذب وألطف ولكنه قاصر عن المراد وغير دال على خصوص المقام وفيه التكرار الذي عدته البـلاغة عيباً فان الرند

والغار مترادفان وفيه عيب خفي الا على الناقد فانه لم يجمل المتعانقين المتحابين بل أمر السرحة يعني الشجرة أن تعانق تلك المعاطف يعني معاطف المعشوقة نيابة عن العاشق وعلل ذلك بالانكار على تعانق المتحابين وقد تظافرت كلمات المحبين باستسهال الذم في قضاء الوطر

وأما الثاني فقد تضمن حكاية الحال مع حسن الاستعارة المكنية ودل على المقام ولكنه غير رقيق ولا خال عن السماجة وتوفي عروة بن حزام على ما ذكر الذهبي في تاريخه في خلافة عثمان سنة ثلاثين من الهجرة ورأيت في كتاب مجهول التأليف ان وفاته كانت لعشر يقين من شوال سنة ثمان وعشرين ومن محاسن شعره قصيدته التي على حرف النون فقد ضمنها حكاية حاله بألفاظ رقيقة ومعان أنيقة وهي هذه:

خليلي من عليا هلال بن عامر	بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني
ولا تزهدا في الاجر عندي واجملا	فانكما بي اليوم مبتليان
ألم تعلما ان ليس بالمرج كله	أخ وصديق خالص فذراني
أفي كل يوم أنت رام بلادها	بعينين انساناً هما غرقان
وعيناي ما وافيت نشر فتنظرا	بما فيهما الا هما تكفان
الا فاحملاني بارك الله فيكما	الى حاضر البلقاء ثم دعاني
على جسرة الاصلاب ناجية السرى	تقطع عرض البيد بالوخدان
ألما على عفراء انكما غدا	بشحط النوى والبين مفترقان
فيا واشي عفراء ويحكما بمن	وما والي من جئتما تشيان
بمن لو أراه غائباً لفديته	ومن لو رآني عائباً لفداني
فيا واشي عفرا دعاني ونظرة	تقر بها عيناي ثم زماني
أغركما مني قميص لبسته	جديداً وبرد اليمنة زهياني

متى تكشفا عني القميص تبينا بي الضرر من عفراء يا فتيان
اذا تريا لحماً قليلاً واعظماً بلين وقلباً دائم الرجفان
على كبدي من حب عفراء قرحة وعينان من وجدي بها تكفان
فعفراء أرجى الناس عندي مودة وعفراء عني المعرض المتـــواني
أحب ابنة العذري حباً وان نأت ودانيت فيها غير مـــا متداني
اذا رام قلبي هجرها حول دونه شفيعان من قلبي لها جـــدلان
اذا قلت قـــالا بلى ثم أصبحا جميعاً على الرأي الذي يريان
فيا رب انت المستعان على الذي تحملت من عفـــراء منذ زمان
فيـــا ليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والانعام يلتقيان
فيقضي حبيب من حبيب لبـــانة ويرعـــاها ربي فـــلا يريان
فيا ليت محيـــانا جميعاً وليتنا اذا نحن متنـــا ضمنا كفنـــان
ويا ليت أنا الدهر في غير ريبة خليان نرعى القصر مؤتلفـــان
هواي أمامي ليس خلفي معرج وشوق قلوصي في الغدو يمـــاني
هواي عراقي وثنى زمامهـــا لبرق اذا لاح النجـــوم يماني
متى تجمعي شوقي وشوقك تطلعي ومالك بالعبء الثقيل يـــدان
يقول لي الاصحاب إذ يعدلونني أشوق عراقي وأنت يمـــاني
تحملت من عفراء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان
كأن قطاة علقت بجناحهـــا على كبدي من شدة الخفقان
جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعراف نجد ان همـــا شفيان
فقالا نعم تشفى من الداء كله وقاما مع العوّاد يبتدران
نعم وبلى قالا متى كنت هكذا ليستخبراني قلت منـــذ زمان
فما تركا من رقية يعلمـــانها ولا سلوة الا وقد سقيـــاني

وما شفيا الداء الذي بي كله ولا ادّخـــر نصحا ولا ألواني

فقالا شفاك الله والله مــــا لنا بما حملت منك الضلوع يدان

فرحت من العراف تسقط عمتي عن الرأس مـــا التاثها ببنان

معي صاحبا صدق اذا ملت ميلة وكانا يجنبي سرعة عـــدلاني

فيا عم يا ذا العذر لا زلت مبتلى حليفـــا لهم لازم وهوان

غدرت وكان الغدر منك سجية فألزمت قلبي دائم الخفقان

وأورثتني غما وكربا وحسرة وأورثت عيني دائم الهملان

فلا زلت ذا شوق الى هويته وقلبـــك مقسوماً بكل مكان

واني لأهوى الحشر إذ قيل انني وعفراء يوم الحشر ملتقيـــان

ألا يا غرابي دمنــة الدار بيننا أبالهجر من عفـــراء تنتحبان

فان كان حقاً ما تقولان فاذهبا بلحمي الى وكريكمــــا فكلاني

كلاني أكـــلا لم ير الناس مثله ولا تهضمـــا جنبي وازدرداني

ولا تعلمان الناس ما كان قصتي ولا يأكلنّ الطير مـــا تذراني

الا لعـــن الله الوشاة وقولهم فلانــة أضحت خـلة لفـــلان

اذا ما جلسنا مجلساً نستلذه تواشوا بنــا حتى أمــل مكاني

تكنفني الواشون من كل جانب ولو كان واش واحد لكفـــاني

ولو كان واش باليمامة أرضه أحـــاذره من شؤمه لأتـــاني

يكلفني عمي ثمانين ناقـــة ومـــالي والرحمن غير ثمان

فوالله ما حدّثت سرك صاحباً أخالي ولا فـــاهت به الشفتان

سوى انني قدقلت يوماً لصاحبي ضحى وقلوصـــانا بنــا تخدان

ضحينا ومستنا جنوب ضعيفة نسيم لرياهـــا بنـــا خفقان

تحملت زفرات الضحى فأطقتها ومـــالي بزفرات العشيّ يدان

فيا عم لاسقيت من ذي قرابة بلالا فقد زلت بك القدمان
ومنيتني عفراء حتى رجوتها وشاع الذي منيت كل مكاني
فوالله لولا حب عفراء ما التقى عليّ رواقاً بيتك الخلقان
رواقان خفاقان لا خير فيهما اذا هبت الارواح يصطفقان
ولم أتبع الاظعان في رونق الضحى ورحلي على نهاضة الخديان
لعفراء إذ في الدهر والناس غرة اذا خلقان بالصبي يسراني
لادنو من بيضاء خفاقة الحشى بنية ذي قارورة شنآن
كان وشاحيها اذا ما ارتدتها وقامت عناناً مهرة سلسان
وليس بأبدان لها ملتقاهما ومتناهما رخوان يضطربان
وتحتيها حقفان قد ضربتهما قطار من الجوزاء ملتبدان
أعفراء كم من زفرة قد أذقتني وحزن ألح العين بالهملان
وعينان ما وافيت نشراً فتنظرا بمأقيهما الا هما تكفان
فهل حاد يا عفراء ان خفت فوتها عليّ اذا ناديت مرعويان
ضروبان للتالي القطوف اذا ولى بسيحان من يعصي به حذران
فيا لكما من حاديين كسيتما سرابيل مغلاه من القطران
وما لكما من حاديين رميتما بحمى وطاعون ألا تقفان
فويلي على عفراء ويلاً كأنه على الكبد والاحشاء حدّ سنان
ألا حبذا من حب عفراء ملتقى نعم والا لا حيث يلتقيان
لو ان أشد الناس وجداً ومثله من الجن بعد الانس يلتقيان
ويشتكيان الوجد ثمة اشتكي لاضعف وجدي فوق ما يجدان
فقد تركتني ما أعي لمحدّث حديثاً وان ناجيته ونجاني
وقد تركت عفراء قلبي كأنه جناح غراب دائم الخفقان

قوله خليليّ ، خطاب بالنداء محذوف الاداة وليس بشرط أن يكونا

وجوديين ، فقد جرت عادة العرب بذلك ، حتى قيل انهم وان خاطبوا الواحد جعلوا الصيغة لاثنين ، اما ليجري مجرى التأكيد أو انهم يطلبون التعظيم أو انهما أقل الرفقة .

وقوله الى حاضر البلقاء يريد المكان الذي كانت به كما سبق في الحكاية ويروي الى حاضر الروحاء موضع بالبلقاء من طرف حوران وقوله حسرة الاصلاب صفة مشبهة كناية عن العجلة التي لم تدعه يشد كور الناقة ويروي نوّاخة السري وموّارة أي عجلة تبلغ المآرب وقوله بمن لو أراه البيت كناية عن الاتحاد وشدة المحبة حتى لم يقع تأثير بينهما من نقل شيء وقوله متى تكشفا .

روى بدله متى ترفعا ، والأول أبلغ لاخصيته ولزوم رؤية البدن منه ، وقوله اذا تريا جواب متى وروى بدله تعرفا ، والأول ألطف . وقوله كأنّ قطاة البيت قد أخذه المجنون حيث قال

قطاة غرها شرك فباتت

البيت وهذا من السرقات العامة التي تتفاوت بحسن الاختلاس والتظرف ومعنى هذا انه شبه كبده في شدة خفقاته من هياج نار العشق بقطاة علقت بجناح واحد وجعلت ترفرف بالآخر طلب الخلاص

وأما المجنون فقد تظرف ثم بالغ لأنه جعل القلب هو القطاة بعينها وجعل المعلق هو الشرك واعلم ان ابن الأثير ألف كتاباً بأسماء أعمدة المعاني للمنثور والمنظوم ذكر فيه من اقترح معنى ومن سرق منه وزاد عليه فقال في هذا الموضع ان المجنون تظرف حيث أسند الخفقان الى القلب والتعليق الى الشرك وأما أنا فأقول ان قول عروة أبلغ لأن الكبد ليس من شأنه الحركة ولا الخفقان كما هو دأب القلب فاسناد الخفقان الناشىء عن العشق اليه أبلغ ولأن حركته تستلزم حركة القلب دون العكس ولا يساوي هذا المعنى كون محل التعقل ومسكن المحبوب كما في كلماتهم اذا الملحوظ حينئذ الروح الحيواني قوله عرّاف اليمامة قد سبقت قصته والعرّاف في الأصل الكاهن واستعمله هنا

على الطبيب لاتحادهما لغة ومـــا الثأتها يعني ما رددتها وهي كناية عن شدة المرض ، وعمه المدعو عليه هو أبو عفراء وقد عرفت عذره ، وقوله فلو أن واش باليمامة قد استعاره المجنون حيث قال

ولو ان واش باليمامة داره وداري بأعلى حضرموت أتانيا

وهي سرقة شنيعة مذمومة وهو هنا أظرف وأبلغ من حيث الايهام لأن قوله أحاذره من شؤمه يحتمل ان يكون بأقصى فارس وهـــذا هو اللائق بالمبالغة . وأما حضرموت واليمامة فكلاهما في اقليم واحد فلا يعظم مجيء الواشي

اخبار عبدالله بن عجلان وصاحبته هنـــد

هو عبد الله بن عجلان بن عبد الاحب بن عامر بن كعب يتصل بقضاعة وهو فخذ من بني الحريش وسعد افترقوا من قضاعة على ما ذكر في الانساب أربعون فخذاً

وفي النزهة انه عذري وليس كذلك ، ولكن بينه وبينهم حيث لا ترمي العصا وذلك دون خمس جدود. وقال في كتاب الانساب كانت العرب تعد الرجل منها ما لم يفارقهم بخمس بطون فاذا بلغ ذلك ، قالوا قطع النسب ، ورميت العصا وكان عبد الله هذا يكنى أبا عمرة وهو شاعر مفلق وناطق مزلق رقيق أديب قال في بلغة الاشفاق في ذكر أيام العشاق وهو جزءلطيف لابن رشيق موضوعه ذكر مدة العشاق في العشق ان عبد الله هذا أقلالعشاق أياماً ، عاش مكابد المحبة وغصة العشق ثلاثين سنة وهو جـــاهلي ضرب به المثل كما ضرب بعروة فما قيل فيه قول قيس

فما وجدت وجدي بها أم واحد ولا وجد النهدي وجدي على هند
ولا وجد العذري عروة فيالهوى كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي

فقوله النهدي اشارة الى ابن عجلان هذا وقد سماه عمراً في أبيات سبقت في قصته وقوله على هند متعلق بوجدي فليحذر من فهم صاحب النزهـــة وقول البحتري

هوى لا جميل في بثينة مالـــه بمثلي ولا عبد بن عجلان في هند

وهند هي بنت كعب بن عمرو بن ليث النهدي يتصل مع عبدالله في النسب قال في الطرائف ان سبب اعتلاقه بهـــا ، انه خرج يوماً الى شعب من نجد ينشد ضالة فشارف ماء يقال له نهر غسان وكانت بنات العرب تقصده فتخلع ثيابها وتغتسل فيه

فلما علا ربوة تشرف على النهر المذكور ورآهن على تلك الحالة ، فمكث ينظر اليهن مستخفياً فصعدن حتى بقيت هند ، وكانت طويلة الشعر فأخذت تمشطه وتسبله على بدنها وهو يتأمل شفوف بياض جسمها من خـــلال سواد الشعر ، ونهض ليركب راحلته فعجز ، وأقعد ساعة وكان يقال عنـه قبل ذلك ان العرب كانت تصف له ثلاث رواحل قائمة فيحلقها ويركب الرابعة فعند ذلك داخله من الحب ما أعجزه وعطل حركاته فأنشد فوراً

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة اذا شئت لمساً للـثريا لمستهـــا
أتتنى سهام من لحاظ فأرشقت بقلبي ولو أستطيع ردّ أرددتهـــا

ثم قال هذه والله الضالة التي لا ترد ثم عاد وقد تمكن الهوى منه فأخـــبر صديقاً له ، فقال اكتم ما بك واخطبها الى أبيها فانه يزوجك بها وان أشهرت عشقها حرمتها ففعل وخطبها فأجيب وتزوج بها وأقاما على أحسن حال ، وأنعم بال لا يزداد فيها الا غراماً فمضى عليهما ثمان سنين وانهـا أقامت على ذلك تحمل ، وكان أبوه ذا ثروة ليس له غيره فأقسم عليه أن يتزوج غيرها ليولد له ولد لحفظ النسب والمال فعرض عليهـــا ذلك فأبت أن تكون مع أخرى فعاود أباه فأمره بطلاقهـا فأبى فألح عليه وهو لم يجب الى ان بلغه يوماً ان عبد الله قد تمكن السكر منه فعدّها فرصة وأرسل اليـه يدعوه ، وقد جلس مع أكابر الحي فمنعته هند وقالت والله لا يدعوك لخير وما أظنه الا عرف انك سكران فيريد أن يعرض عليك الطلاق ولئن فعلت لمت وأظن انك فاعل

قال في النزهة وكان قد خلي على هند قبل ذلك اليوم عجوز كاهنة تضرب الحصا وأخبرت هند انها ستطلق ، فأبي عبد الله الا الخروج فجاذبته ويدها

مخلقة بالزعفران فأثرت في ثوبه . فلما جلس مع أبيه وقد عرف أكابر العرب حاله فأقبلوا يعنفونه ويتناوشونه من كل مكان حتى استحى فطلقها ، فلمــا سمعت بذلك احتجبت عنه فوجد وجداً كاد أن يقضي معه وأنشد :

طلقت هنداً طائعاً فندمت بعد فراقها
فالعين يذرف دمعها كالدر من آماقهــا
متحلباً فوق الردا فتجول في رقراقهــا
خــود رداح طفلة ما الفحش من أخلاقها
ولقد ألذ حديثهــا وأسر عند عناقها
ان كنت ساقية ببز ل الادم أو بحقاقها
فاسقي بني نهد اذا شربوا خيار زقاقها
فالخيــل تعلم ألحقهــا غداة لحاقهــا
بأسنة زرق منحن القــوم حد رقاقهــا
حتى ترى قصد القنا والبيض في أعناقها

ولم يزل شوقه ينمو ووجده يسمو حتى لزم الوساد ، وتوفي على ما ذكر في النزهة قبل عام الفيل بأربعة أعوام ، وكان سبب وفـــاته على الأصح انه قصد هنداً وقد تزوجت في نمير وهي قبيلة من عامر ، وكان بينهم وبين بني نهد ثارات ودماء كثيرة ، فحذره أبوه من ذلك ومنــاه الاجتماع بعكاظ في الأشهر الحرم حيث تكف الجاهلية عن الحرب .

فأبى وخرج سراً حتى أتاها ، فرآها جالسة على حوض وزوجها يسقي إبلاً له ، فلما تعارفا شدّ كل منهما على صاحبه ودنا منه حتى اعتنقا وسقطا الى الأرض . فجاء زوجها فوجدهما ميتين .

وقيل ان عجوزاً دخلت عليه في مرضه فأخبرتهم انه عاشق وان يطبخوا له شاة ويرفعوا قلبها ويقدّموها اليه ، ففعلوا فجعل يحاولها بضعة بضعة فقال

أما لشاتكم قلب فقال له أخوه أعاشق أنت ولم تدر ، فتأوه ومات . وقيل رأى زوج هند يطوف وعليه ثوب فيه كف بالخلوق كالذي في ثوبه ، حين جاذبته فمات ، وقيل انه ترنم بهذه الأبيات يوماً ومدّ بها صوته فمات وهي :

ألا ان هند أصبحت منك محرما وأصبحت من أدنى حموتها حما
فأصبحت كالمقمور جفن سلاحه يقلب بالكفين قوساً وأسهما

وقيل ان هذه الأبيات لمسافر بن عمرو أنشدها حين ولع بهند بنت عتبة وأراد زواجها ، فخرج الى النعمان بن المنذر بالحيرة ليطلب مهرها، وقيل انها حملت منه فخرج هارباً ، وأصابه من عشقها مرض كبر معه فاستحضر له النعمان أطباء العرب فأجمعوا على كيه فكوي وبرىء ، فقدم أبو سفيان أو هو غيره فسأله عن مكة

فلما انتهى الى زواج هند شهق فمات ، وقيل خرج فمات في الطريق ، وقيل هي يعني الأبيات للمغيرة في اسماء النهشلية والصحيح ان أبيات المغيرة هذه

تحدثنا أسماء ان سوف نلتقي أحاديث طسم إنما كنت حالما
ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً وأصبحت من أدنى حموّتها حما

ولابن عجلان أشعار كثيرة من محاسنها قوله

قد طال شوقي وعاد لي طربي من ذكر خود كريمة الحسب
غرّاء مثل الهلال صورتها أو مثل تمثال صورة الذهب

ومنها :

ألا بلغا هنداً سلامي وان نأت فنلبي منشطت بها الدار مدنف
ولم أر هنداً بعد موقف ساعة بأنعم من أهل الديار تطوّف
أتت بين أتراب تمايسن إذ مشت دبيب القطا أوهن منهن ألطف

يباركن مرات خليـــاً وداده ذكياً وبالأيـــدي مدال ومسوف
أشارت الينا في حياء وراعها سراة الضحى مني على الحي موقف
وقال تبـــاعد يا ابن عم فانني منيت بذي صول يغار ويعنف

ومنها

خليلي زورا قبل شحط النوى هنداً ولا تأمنا من دار ذي لطف بعدا
ولا تعجلا لم يدر صاحب حاجة أغيا يلاقي في التعجل أم رشدا
ومر عليها بارك الله فيكمـــا وان لم تكن هند لوجهيكما قصدا
وقولا لها ليس الضـــلال أجازنا ولكننا جزنا لنلقاكم عمـــدا
غداً يكثر الباكون منا ومنكم وتزداد داري من دياركم بعدا

أخبار ذي الرمة وصاحبته مي

هو غيلان بن معدى بن عمرو الكنـاني القحطاني أو هو سعدى وقيل إبن عقبة بن يهوس ابن ربيعة يتصل من عبد مناف بالياس بن مضر وهو الأصح أديب شاعر رقيق النظام جزل الكلام وافر الحظ من الفصاحة والشعر ورقة المزاج خبير بأحوال العشق والرمة بالضم وتكسر قطعة حبل تجعل في عنق البعير ووهب طريف بن غطفان بعير الشخص بالحبل الذي في عنقه فقيـل أعطاه برمته فضرب مثلاً لمن يعطي الشيء جميعه وبالكسر العظام البالية ، وسمي بذلك لأنه كان كثيراً ما يحمل في عنقه أو علىعاتقه الحبل أو انه سمي بذلك لشدة نحوله في العشق .

وميّ هي بنت طلابة بن قيس بن عاصم الغساني أحـد ملوك العرب ووالده قيس نظير المنذر بن ماء السماء كان ذا حظ في الملك تميل اليه العرب ويعطي القياد حتى ضربت به الأمثال ، قال طرفة بن العبد بعد اشتكاء سوء حظه

ولو شاء ربي كنت قيس بن عاصم . يعني في ارتفاع الجد وسعة الملك قال في النزهة وكان ذو الرمة لطيف المنظر حسن الهيئة طويلاً الى رقة وبيـاض واسع الصدر عجل المشية

وكانت ميّ جارية الى القصر ما هي سمراء بدينة إلا أن في كلامها عذوبة

وفي طرفها تغزل قال في الظرائف ان سبب اعتلاقه بها انه مر يوماً بالحي وقد أدركه الأوام فنظر الى بيت قد شرع رواقه وارتفعت أطباقه وعـــلا عموده وأطنابه ومدت أوتاده وأسبابـه ، فقصده حتى وقف بازائه ، واذا هو بامرأة تتمشط حاسرة الرأس وقد أسبلت شعرها كأنه عثاكيل النخل ، ووجهها يشف من خلاله فناداها هل من اداوة تبرد الغليل ، فأبرزت اليه ماء قد شيب بلبن ، فشرب ثم ناشدته الراحة ، وقدمت اليه طعاماً فأكل ولم تزل تنادمه وهو يعجب بها ويحترك لها قلبه الى ان انصرف بعد بياض النهار وقد علق من قلبه بحبها الأعج عجز عن إطفائه وغرام كل عن اخفـــائه فجعل يماودها الزيارة ، فقيل له في تقليل ذلك وان بلادها بعيدة عن بلاده وان ذلك يوجب له نصباً ومشقة فأنشد

وكنت اذا ما جئت ميا أزورها أرى الأرض تطوي لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

وجلس قوم يتحادثون فأفضوا الى حديث ذي الرمة وفيهم عقبة بن مالك الفزاري وهو يومئذ شيخ قد جاوز المائة فقال منى خذوا خبره أتاني يوماً ، فقال ان حي مية خلوف فهل تسعدني في الزيارة فركبنا حتى أتيناها ، فلما نظر النساء الى ذي الرمه عرفنه فجئن حتى جلس عنده وتفـــاوضوا في الحديث فقالت ظريفة من النساء أسمعنا يا ذا الرمة مـــا قلت فالتفت إليّ وقال لي قل فأنشدت قوله

وقفت على ربـع لمية ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

فلما انتهيت الى قوله

نظرت الى أظعان مي كأنهـــا ذرا النخل او أثل تميل ذوائبه
فأسبلت العينان والقلب كاتم بمغرورق نمت عليه سواكبـــه

بكى وامق حال الفراق ولم تخل   حوائلهـــا أسراره ومعـــاتبه
هو الالف قد حان الفراق ولم تحل   محـــاولها أسراره ومقـــانبه

قالت الظريفة لكن اليوم فلتحل ثم مضيت فلما انتهيت الى قوله

وقد حلفت بالله مية مـــا الذي   أحدثهـــا الا الذي أنا كاذبه
اذاً فرماني الله من حيث لا أرى   ولا زال في أرضي عدوّ أحاربه

قالت مي ويحك يا ذا الرمة خف عواقب الله عز وجل ثم مضيت حتى انتهيت الى قوله :

اذا سرحت من حب مي سوارح   على القلب أمته جميعاً غواربه

فقالت الظريفة قتلته قتلك الله ، فقالت مية ما أصحه وهنيئاً له قـال فتنفس ذو الرمة تنفيسة كاد حرهـا يذهب بلحيتـه ثم مضيب حتى انتهت الى قوله

اذا نازعتك القول مية أو بدا   لك الوجه منها او نضى الدرع سالبه
فيا لك من خد أسيل ومنطق   رخيم ومرحوق تعـــال شاربه

وفي رواية القالي اذا راجعتك بدل اذا نازعتك فقالت الظريفة هذا القول قد تتوزع والوجه بـدافن لنا بان ينضى الدرع سالبه فقالت مي ماذا تريدين وتضاحكا فقالت الظريفة ان لهذين لشأناً فقم بنا فقمت وجلست بحيث اراهما فتعاتبا طويلاً ولن يبرح من هكانه ولم اسمع منهما غير ان قالت كذبت والله لم أعلم علام كذبته ثم جاءني ومعـه قارورة دهن قد اتحفته بها فقال لي شأنك وهي ثم قال وهذا قلائد قد اعطتنيها فوالله لا قلدتها بعيراً وعقدها في سيفه وانصرفنا ، فلما ظعن الحي جاءني فقـال امض بنا نودّع الآثار فجئنا حتى وقفنا على أطلال مية فأنشد

ألا فاسلمي يا دارمي على البـــلا   ولا زال منهـــا بجرعائك القطر
وان لم تكوني غـــير شام بقفرة   تجر بهـــا الأذيال صيفية كدر

وانفضحت عيناه بالعبرة فقلت مه فقال اني جلد وان كان مني ما ترى ثم انصرفنا فوالله ما رأيت أشد صبابة ولا أحسن صبراً منه وكان آخر العهد به وله أشعار كثيرة فمن ألطفها القصيدة الحائية التي أولها

أمنزلتي مي سلام عليكما   على النأي والنأي يودّ وينصح

ومنها

ذكرتك إذ مرت بنا أم شادن   أمام المطايا تشرئب وتنصح
من المؤلفات الرمل أدما بحرّة   شعاع الضحى في متنها يتوضح
رأينا كأنا عامدون لصيدها   ضحى فهي تنبو تارة وتزحزح
هي الشبه اعطافاً وجيداً ومقلة   ومية أبهى بعد منها وأملح

ومنها

على حين راهقت الثلاثين وارعوت   لذاتي فكاد الحلم بالجهل يرجح
اذا خطرت من ذكر مية خطرة   على القلب كادت في فؤادي تجرح
تصرف أهوى القلب مني ولا أرى   نصيبك من قلبي لغيرك يمنح
فبعض الهوى بالهجر يمحي فينمحي   وحبك عندي يستجد ويرجح
ولما شكوت الحب كيما تثيبني   بوجدي قالت إنما أنت تمزح
بعاداً وادلالاً علي وقد رأت   ضمير الهوى قد كاد بالجسم يبرح
لئن كانت الدنيا عليّ كما أرى   تباريح من ذكراك فالموت أروح

ومنها

خليلي عدا حاجتي من هواكما   ومن ذا يواسي النفس إلا خليلها
ألما بي قبل ان تطرح النوى   بنا مطرحاً أو قبل بين يزيلها
وان لم يكن الا تعلل ساعة   قليلاً فاني نافع لي قليلها

ومنها

خليلي عوجا من صدور الرواحل بمجهود حزوي فابكيا في المنازل
لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي وحيّ البلابل

ومنها

ولما تلاقينا جرت من عيوننا دموع كففنا غربها بالأصابع
ونلنا سقاطاً من حديث كأنه جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائع

ومنها

إذا هبت الأرياح من نحو جانب به آل مي زاد قلبي هبوبها
هوى تذرف العينان منه وإنما هوى كل نفس أين حل حبيبها

أخبار مالك وصاحبته جنوب

هو مالك بن الحرث بن الصمصامة بن أخرش الجعـدي من بني أخرش أخو ذي الرمة قال في الأنساب هم أكبر فخذ من قحطـان ولم يعقب أخو ذي الرمة غيره وغير مسعود وهمام وهم قبائل معروفة

وكان مالك شجاعاً جلداً ذا نجدة ولكنه مات بالعشق على نحو ثمـــان وعشرين من عمره .

و (جنوب) هي بنت قيس بن أصبغ بن محصن بن أخرش الجعدي ، علقها شابين وسبب ذلك انه جاء يوماً الى أخيهـا الأصبغ يسترفقه الى حي من كنانة لحاجة عرضت لمالك عندهم لما بينهما من الصحبة والقرابة فرأى جنوب وقد ألقت ما عليها خلاسب أخضر شفاف فرآها على بغتة فوقعت من قلبه فعاد وقد تمكن حبها منه فأفضى بذلك الى رجل من أصحابه فوشى به الى أخيها ، وكان معروفاً بالشجاعة فحلف ليقتلنه ان تيقن ذلك فضمها يوماً مجلس وقد قبلت جنوب فلم يستطع أن يكلمها وأخذته رعدة فضمه شخص الى صدره ، وفطن الأصبغ فقام خجلاً وبقي مالك مغشياً عليه ، فلما أفاق أنشد

خليلي ان حانت وفـــاتي فادفنا برابية بـــين المقـــابر فالنفر
لكيما تقول العبدلية كلمـــا رأت جدثي سقيت يا قبر من قبر

وفي النزهة فادفنا عظامي ما بين الربية فالنفر قال والربية طريق بين نجد وتهامة تسلكه العرب ، والنفر تربة مشهورة وهـذه الرواية أصح وأنسب بالمعنى ، وفيها بدل سقيت حييت ثم ان العرب نجعوا نجعة وسيمة يعني مكاناً أمطر وأعشب سابقاً ، فوقف مالك يتصفح الظعن متخفياً حتى مرت جنوب فأخذ بخطام بعيرها وأنشد

رأيتك ان ازمعتم اليوم نيـة وغالك مصطاف الحمى ومرابعه
أترعين ما استودعت أم أنت كالذي إذا ما نأى هانت عليه ودائعه

فبكت ثم قالت أرعى والله ولا تهون عندي ودائعه فأطلقها ومضى في نشيده يقول

الا ان ورداً دونه قـلة الحمى مني النفس لو كانت تنال شرائعه
فـلا أنا فيما صدني عنه طامع ولا ارتجى وصل الذي هو قاطعه
وكيف ومن دون الورد عوائق واجنح حال ما أحب ومانعه

ثم انصرف فبات ليلة قلقاً ، فلما أصبح ركب وضرب الفضاء لينزه نفسه فبينا هو على ماء يستريح إذ سمع شخصاً يشتكي الى شخص ثقل رأسة وقلة سمعه قال له منذ كم أصابك قال من أمس ، فقال هذا من الهواء الذي كان بارحة أمس فانه جنوب وهواء الجنوب ضار

فلما طرق الكلام رأسه قال أي والله ولا أضر من هواها أجد وسقط كالمصروع فجاؤوا اليه واحتملوه بعد ان قارب الفراق ، ثم مضـوا به الى الحي فقام ليلتين ثم قضى

وفي (النزهة) انهم دعوا له طبيباً فلما أبصره أنكر حاله فدعا بشراب وسقاه ، فلما تمكن منه أنشد

خليلي ان العبدلية أزمعت على الصدو الهجران فاستدينا عنسي
فلا صبر لي بعد الفراق على الجفا ولا راحة الا التوسد في رمسي
فصبر محب عن حبيب يحبه محال وهل جسم يعيش بلا نفس

ثم شهق شهقة خرجت نفسه ، قلت وهذه الأبيات قد نقلتها من جزء لطيف سماه صاحبه جلاء الأذهان في منتخب شعر قتلى الحسان .

وفي النزهة نقله عن ذي الرمة ، ورواه بلفظ ان المنقرية يعني مية ، وفي لطائف الفوائد وظرائف الشوارد لابن عبد ربه ، أن مالكاً هذا لما قضى اتصل نعيه بجنوب وقد قدم اليها لبن ، فلما امتصته ووقع الكلام في أذنها اضطربت خفيفاً ، ثم اضطجعت فاذا هي ميتة

اخبار عبد الله بن علقمة وصاحبته حبيش

هو عبد الله بن علقمة بن زرارة من قحطان

وصاحبته (حبيش) بنت سعد بن أسلم من خريمة قبيلة من اليمن ، ولم يذكره في النزهة ولكني رأيت في ظرائف الأخبار ان سبب اعتلاقه بها انه أضاف أهلها ، فأجلسوه في متحدث لهم ، فخرجت حبيش وعلى وجهها سب أخضر فوقفت تحلب ناقة وهو ينظر ، فضرب الهواء السب فكشف وجهها ويديها وكانت طويلة الى الرقة واسعة الصدر كان وجهها البدر ، فلما عاينها غاب عن حسه ساعة ثم عاوده الشعور فسكت خيفة ان يظهروا على حالة ، ثم جاءت اليه باللبن ليشرب ، فلما تناوله ارتعد حتى سقط من يده ففطنت لما به ، وكان شاباً كأنه القمر فداخلها ما داخله ولم يكونا متقاربين في المنزل لأنهما من فخذين فافترقا على ما داخلهما من الهوى

وان الغلام أرسل أمه بهدية اليها وتبعها وأقاما عندها فلم يزل كذلك يذهب مع أمه ويعود اليها أياماً ، وكان في أوائل الهجرة ، فأرسل رسول الله ﷺ سرية الى جذيمة وعليهم خالد بن الوليد فصادفوا العرب ظاعنين ، ورأوا عبد الله وراء القوم يسوق قلوصاً له ، فأمسكوه وعرضوا عليه الاسلام فقال وما هو ، فقالوا كذا وكذا . فقال أرأيتم ان أنا لم أسلم فما أنتم صانعون قالوا نضرب عنقك فقال هل لكم أن تتركوني أمضي الى الظعن قالوا بلى ونحن في أثرك فمضى يتصفح الهوادج حتى وقف على هودج حبيش ، فناداها أسلمي ، فقد نفد العيش

وفي رواية انقطع فقالت حبيش أو أسلم عشراً أو تسعاً وتراً أو ثماناً أو ثلاثاً تترأ على الخلاف في السيرة والمستدرك والتهذيب ثم أنشد :

أريتك ان طالبتكم فوجدتكم ببرزة أو أدركتم بالخوانق
أما كان حقاً أن ينوّل عاشق تكلف ادلاج السرى والودائق
فاني لاسر لدي أضعته ولا راق عيني بعدوجهك رائق
على ان ما ناب العشيرة شاغل ولا ذكر إلا أن يكون توامق
فها أنا ما سور لديك مكبل وما ان رآني بعدها اليوم ناطق

فأجابته

أرى لك أسباباً أظنك مخرجاً بها النفس من جنبي والروح زاهق

فأجابها

فان يقتلوني يا حبيش فلم يدع هواك لهم مني سوى غلة الصدر
فأنت التي قفلت جلدي على دمي وعظمي واسبلت الدموع على النحر

فأجابته

ونحن بكينا من فراقك مرة وأخرى وقاسينا لك العسر باليسر
فأنت ولا تبعد فنعم أخو الندى جميل المحيا في المروأة والبشر

وفي رواية بعد قوله تكلف ادلاج السرى والودائق

فلا ذنب لي قد قلت انا هنا معاً أثيبي بود قبل أخذ الصفائق
أثيبي بود قبل أن يشحط النوى وتنأى الليالي بالحبيب المفارق

ثم ضربه غلام فأطار يده وقدم فضربت عنقه ، وقيل أوثقوه أولاً حين أدركوه ، وانه رأى رجلاً منهم فقال له أما تستطيع أن تعرضني على النساء

قبل أن تقتلوني ، فقال سهل ما طلبت وعلى كلا الأحوال أنهم قتلوه وانهـا نزلت حين رأت ذلك فقبلته وشهقت شهقة أو شهقتين فماتت

ولما أخبروا رسول الله ﷺ بذلك قال أمـا كان فيكم رجل رحيم . وفي نديم المسامرة للمقدسي أن عبد الله هذا ، حين فشا أمره مع حبيش قالوا لأمه ان ولدك قد تولع بهذه وليست من حيلكم فاعرضي عليه نساءكم لعله يشتغل بواحدة منهن عنها ، ففعلت فقيل له ما ترى فيهن قال حسناً وجمالاً ، فقيل أيما أحسن هنّ أم حبيش فتنفس الصعداء ثم قال ماء ولا كصدّاء ، ومرعى ولا كالسعدان فمضى مثلاً في العرب .

اخبار نصيب وصاحبته زينب

هو ابن محجن نصيب بضم النون وفتح الصاد المهملة الشهير بالشاعر الزنجي مولى راشد ابن عبد العزى من كنانة

وصاحبته أم بكر زينب بنت صفوان بن غاوي كنانية في الأصح وليست زنجية كما زعم وسبب الوصلة بينهما.

أن نصيباً كان يرعى ابلاً لمولاه وكانت رعاة مولاه تخالط رعاة صفوان ، في المبروك بوادي البوار ، وكانت زينب تأتي رعاة أبيها فتأخذ لبناً ، وان نصيباً تولع ببري القسيّ واراشة السهام وحجز الأوتار فبرع في ذلك حتى اشتهر في أحياء العرب ، وكان يجلس لفعل ذلك وتذهب الرعاة فتقوم عنه بالخدمة وتتخلف الحلوب من النوق في المعاطن فتأتي زينب وهي جارية صغيرة فتأخذ اللبن ، فينظرها وكان حاذقاً حسن التأمل في دقائق المحاسن ولطائف الشمائل ، وهي من ذلك في أرفع المراتب ، فنشأ عنده من حبها ما غير باله ، وأشغل حاله فشبب بها وفشا ذلك فأتت العرب مولاة فقالت ان عبدك هذا قد برع في الشعر ، ونخشى أن يهجو أحدنا ويشبب بنسائنا ، وليس لنا في أحد الخليتين سيرة ، فقال له مولاه اني بائعك فانظر لنفسك ، فأقبل حتى دخل على الأمير وهو يومئذ عبد العزيز بن مروان فأنشد

لعبد العزيز على عترته ... وغـيرهم منن ظـاهره
فبـــابك أسهل أبوابهم ... ودارك مأهولة عامره
وكلبك أرأف بالزائرين ... من الأم بالابنة الزائره

وكفك حين تري السائلين لأثرى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنا الثناء بكل محبرة سائره

فأمر له بألف دينار . فقال أصلحك الله اني عبد لا آخذ الجوائز ولكن أباع فقال لخادمه امض به الى باب الجامع فاذا انتهت الرغبات فيه فأخبرني فمضى فلما نودي عليه بذل فيه شخص خمسين ديناراً فقال نصيب قولوا يحسن كذا وجعل يعدد صنائعه وهو يوفي بها حتى انتهى الى ألف دينار .

فأخذه الأمير فكان في خدمته الى ان توفي فأوصى به سليمان بعد ان اعتقه على ما ذكر بعض المعتنين بذكر محاسن الحبش والزنج ، فكان من أكبر سماره وكان يلهج بالعشق وقال ابن فاتك في محاسن العبيد .

ان سليمان استخفى ليلة فسمع نصيباً وقد استخلي بنفسه يبكي ويقول متمثلاً بكلام المجنون قضاها لغيري البيت فاستحضره فقال ما هذه التي قضاها لغيرك وابتلاك بحبها أو عاشق انت قال أي والله جعلت فداك من العشق فقال ولمن قال لجارية في كنانة علقتها فمنعت منها القلة حسبي وحقارة نسبي عند العرب فكنت أجلس في ممرّها لأخالسها النظر وفي ذلك أقول :

جلست لها كيما تمرّ لعلني أخالسها التسليم ان لم تسلم
فلما رأتني والوشاة تحذرت مدامعها خوفاً ولم تتكلم
مساكين أهل العشق ماكنت اشتري حياة جميع العاشقين بدرهم

فوعده سليمان بتزويجها ففي النزهة ومحاسن العبيد لابن فاتك انه زوجه بها وأقام معها وانها توفيت عنده في خلافة سليمان

وقيل انه تزوج بها على يد اليزيد بن الوليد وما ذكره هنا من أن يزيد استخبره هل عشقت فقال نعم عشقت جارية حمراء يعني من البيض ومنعت منها مدة فلما توفي من كان يمنعها كتبت اليها

فان أك حالكاً فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء

وبي كرم عن الفحشـاء ناء　　كبعد الأرض عن جوّ السماء
ومثلي في رجالكم قليـل　　ومثـلي لا يردّ عن النساء
فان ترضى فردّي قول راض　　وان تأبى فنحن على السواء

فقالت المال والعقل يغطيان غيرهما لو تزوجتني يدل على أن ليس ليزيد في تزويجها شيء . وقيل انه تزوجها على يد ابن أبي عتيق . وفي تسريح النواظر انه لم يتزوجها وانها اعتذرت حين أرسل اليهـا بأن العرب تعيرهـا بزواج الزنجي والمتواتر خلاف ذلك أخبر التنوخي والتوزي كلاهما عن ابن الجزار بسنده الى العتبي

قال شهدت هوادج مزينة حين نزلنا الى مكة ، فلما نزل الحاج خرج من أعظمها هودجا امرأة وقد مهد لها مهاد فجلست وأقبل زنجي حتى جلس الى جانبها فمرّ سائق ابل وهو يقول

بزينب ألمم قبل أن يدخل الركب　　وقل ان تملينا فما ملك القلب

فوثبت المرأة فضربت الذي الى جانبها وقالت قد فضحتنا فسألنا عنها فقيل هي زينب وهو نصيب ونحو هـذا عن الزبير عن الخزامي وعن ابن خلف وابن الجوهرى في أخبار السودان وكل يصف المرأة بالبياض مـا عدا الأول فانه قال انها زنجية

وعن ابن خلف من طريق آخر بينا نحن في الركب اذا بزنجي يمشي والى جانبه امرأة كأنها البدر والمسك يسطع منها فقالت له من أنت قـال انا الذي أقول

ألا ليت شعري ما الذي هو حادث　　غدا غربة النأي المفرّق والبعد
لدى أم بكر حين يقذفها النوى　　بنا ثم يخلو الكاشحون بها بعدي
أتصرم مني عند الذين هم العـدا　　فتشمتهم بي أم تدوم على العهد

فصاحت المرأة لا والله بل ندوم على العهـد ، وتوفي نصيب سنة ثلاث

عشرة ومائة وقيل إحدى عشر . وفي كتاب ابن الجوهري كانت وفاته تاسع شوال من السنة المذكورة ، وقيل توفيت قبله وروُي باكياً عليها وهو يقول:

أيا دهر ما هذا لنا منك مرة   عثرت فأقصيت الحبيب المحببا
وأبدلتني من لا أحب دنوّه   وأسقيتني صاباً من العذب مشربا

ومن لطائف شعره:

كسيت ولم أملك سواداً وتحته   قميص من الصوهيّ بيض بنائقه
وما ضرّ أثوابي سواد وانني   لكالمسك لا يخلو عن المسك ناشقه
ولا خير في ودّ امرىء متكاره   عليك ولا في صاحب لا توافقه
اذا المرء لم يبذل من الود مثله   بعافية فاعلم بأني مفارقه

ومنها

وما في الأرض أشقى من محب   وان وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً أبداً حزيناً   مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي ان نأوا شوقاً اليهم   ويبكي ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائي   وتسخن عينه عند التلاقي

اخبار المرقش وصاحبته اسماء

هو عمرو أو عوف بن سعد بن مالك بن قيس بن ثعلبة بن ربيعة أعلى قبائل طيء ، ولد باليمن قبل خروج ربيعة ثم انتقلوا الى العراق فنشأ بها وله اخوان أنس وحرملة رفعهم أبوهم الى نصرانيّ ببغداد يتعلمون الكتابة ، وكان سعد والده يرى دين النصرانية ، ومات فقام عمرو مقامه في العرب ، فكان شجاعاً مهاباً في العرب

خرج يوماً وقد قطع وادي نجران بأسد ونمر فلم يطق أحد أن يمر منهما فلما رأى عمرو الأسد وثب عليه فزاوغه ووثب فصار على ظهره فأمسك أذنيه مستثبتاً ثم دق رأسه وسلخ جلده، فلما أحس بالنمر الفّ في جلد الأسد وناماً سيفه فوثب النمر لينزل عليه فتلقاه بالسيف ثم سلخه،وأخذ جلده عليه وأقبل على العرب فسموه المرقش ، وقيل سمي بذلك لقوله:

الدار قفر والرسوم كما   رقش في ظهر الأدني قلم

ومن ولد أخيه حرملة رجل دعته العرب بالمرقش الاصغر لشبهه ذاك .

وأسماء هي بنت عوف بن سعد بن مالك ايضاً ، وكان عمرو قد ألفها من التربية صغيرين فخطبها الى عمه فأنعم ومضى عمرو الى جار الفلاة فمدحه وحظى عنده فأمسكه مدة وان الغلاء وقع بالبادية وطرقها جدب فقدم مراديّ على عوف فخطب اسماء فزوّجه بها على مائة ناقة واحتملها الى قومه وعمدوا الي عظام كيس فذبحوه ودفنوا عظامه وصيروها قبراً ، فلما قدم

عمرو أخبروه أنها ماتت وأروه القبر فلزمة حتى ضني وتغير حاله فبينما هو يوماً منتحباً إذ سمع ولدا قد اقتتل مع آخر على كعب يقول هذا أخذته من عظام الكبش الذي دفن وقيل لعمرو انها أسماء فدعاه وسأله الخبر فحين عرف ذلك دعا بزوج ابنته وسارا في طلب المرادي

فقيل ان اخوته شعروا به فردّوه فمات وتظافرت الأخبار بأنه وصل الى واد بقرب مراد وقد ثقل في المرض فقال زوج ابنته لها اتركيه واذهبي بنا فقد أجهدنا ، فلما سمع ذلك كتب على مؤخر الرحل

يا صاحبيّ تلبثا لا تعجلا ... ان الرواح رهين أن لا تفعلا
فلعل لبثكما يقرّب بيننا ... أو بسبق الاسراع سيئا مقبلا
يا راكباً ما عرضت فبلغن ... أنس بن سعد ان لقيت وحرملا
لله درّكما ودر أبيكما ... لا يفلت العبدان حتى يقتلا
من مبلغ الأقوام ان مرقشاً ... أضحى على الأصحاب عبا مثقلا
وكأنما ترد السباع بشلوه ... إذ غاب جمع بني ضبيعة منهلا

فلما رأى أخوته الكتابة قتلا الرجل والمرأة ، وأما عمرو فحين ذهبا عنه بقي مطروحاً فأوى الى غار هناك وكان يألفه راع من مراد فبينما هو به إذا هو بغنم وراعيها فلما بصر به الراعي قال له من أنت فأعلمه باسم الذي هو عنده فاذا هو زوج أسماء فقال له تكلم مولاتك قال لا ولكن تأتيني جارية من عندها لأخذ اللبن

قال في النزهة وكانت أسماء قد مرضت ايضاً شوقاً اليه فلم تغتذ إلا بقدح من لبن في اليوم ، فنزع عمرو خاتمه وقال للراعي ألقه في القدح فستصيب به خيراً ، فلما رأته دعت الجارية فأخبرتها أن لا علم لها فنادت زوجها وأخبرته القصة فاستحضر الراعي ، فلما عرفه ركب وأركب زوجته فأدركوا عمراً وبه رمق فاحتملوه عندهم ، فمات وقيل أنشد عند موته

سما نحوي خيال من سليمى ... فأرّقني وأصحابي هجود

فبت أدير أمري كل حال وأذكر أهلهـــا وهم بعيد
على أن قد سما طرفي لنـــار يشب لها بذي الارطي وقود
حواليها مهـــا بيض التراقي وآرام وغزلان رقـــود
نواعم لا تعالج بؤس عيش أوانس لا تروح ولا تـــرود
يرحن معاً بطاء المشي روداً عليهنّ المجـــاسد والبرود
سكنّ ببلدةوسكنت أخرى فقطعت المواثق والعهـــود
فما بالي أفي ويخـــان عهدى ومـــا بالي أصاد ولا أصيد
وربّ أسيلة الخدّين بكر منعمة لهـــا فرع وجيـــد
وذي أشر شنيب النبت عذب نقيّ اللون برّاق برود
لهوت بهـــا زماناً في شبابي وزين بها النجائب والقصيد
أناس كلمـــا أخلقت وصلاً عنـــاني منهم وصل جديد

ولـــه

أغـــالبك القلب اللجوج صبابة وشوق الى أسماء أم أنت غالبه
يهيم ولا يعـني بأسمـــاء قلبـــه لذات الهـــوى امراره وعواقبه

وعلى قوله راكباً البيتين أورد المصنف الحكاية المشهورة دليلاً على ذكاء العرب وأسندها الى مجهول وأصلها قال في روضة القلوب ان أسامة بن غسان بن حارث الكناني قتل أبو صبرا في تيم ، فخرج يستجيش له نصرة وذلك قبل يوم أوارة بأعوام يسير ، فلما طال عليه المدى وقد صحب عبدين لخدمته ولحقته علة فعزما على قتله ، فلمـــا أحس ذلك قال لهما هل أنتما مبلغا ابنتي هذين البيتين قالا وما هما قال تقولان

ألا يا بنات الحيّ ان أباكما لله در كما ودرا بيكمـــا

فلما أتيا الحيّ اخبرا بموته فقالوا هل أوصي بشيء ، فقالا لا ضرر علينا فيما ذكره وذكرا لهم القول ، فقالت إحدى بناته اقتلوا العبدين فقد قتلا أبي

فقالوا ومن أين لك ذلك قالت ان هذا الكلام سفه وهدر وقد كان مصوناً عن ذلك وإنما كتم عنهما تكملة البيتين والأصل

ألا يا بنات الحيّ ان أباكما أضحى قتيلاً في التراب مجندلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فاستخبروهما فأقرا بالقصة قلت وفي البيت خزم بالحرف الأول وهو عيب مشهور سائغ الاستعمال في الصناعة وقوله بنات الحيّ ، ثم عدل الى التثنية في قوله ان أباكما جرياً على الغالب في خطاب العرب فانهم يستعملون التثنية في موضع الجمع والأفراد

قال ابن النحاس وأصل ذلك ان البدوي كان أكثر ما يكون مع راعيه ورفيقه أو انه نزل ابنتيه منزلة الجمع تعظيماً ، ثم عاد الى أصله وقد حكى في شرح العبدونية هذه القصة عن المهلهل ، وقال في صدر البيت الأول من مبلغ الأقوام ان مهلهلاً والباقي على حكه

أخبار عتبة بن الحباب وصاحبته ريا

هو عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري

وصاحبته هي ريا بنت الغطريف السللي . علقهـا بمسجد الأحزاب يوم منتزه ، وأصل ذلك ان عبد الله بن معمر القيسي حين دخل المدينة قال بينا قد زرت رسول الله ﷺ ليلاً وجلست إذا أنا بشخص ينشد بصوت شجي ولا أراه

أشجاك نوح حمـائم السدر فاهجن منك بلابل الصدر
يا ليـلة طالت على دنف يشكو الفراق وقلة الصبر
اسلمك من تهوى لحرّ جوى متوقـد كتوقد الجمـر
ما كنت أعلم انني كلف حتى تلفت وكنت لا أدري
فالبـدر يشهد انني كلف مغري بحب شبيهة البـدر

وفي رواية صاحب الأصل تقديم هذا وصدر الذي قبله ما كنت أحسب انني شجن فتبعت الصوت فرأيت شاباً حرقت الدموع خدّه، فقال لي اجلس أحدثك أنا فلان كنت يوماً بمسجد الأحزاب اذا بنسوة يتنزهن، فيهن جارية لم أر مثلها ، وقفت عليّ وقالت مـا تقول في وصل من يطلب وصلك ، ثم مضت فلم أعرف خبرها ، ثم غشي عليه ساعة فلما أفاق أنشد

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة تراكم تروني في القلوب على البعد
فؤادي وطرفي يأسفان عليكم وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست ألذ العيش حتى أراكم ولو كنت في الفردوس أو جنة الخلد

فشرعت في تسليته ، فقال هيهات أو يؤب القارظان مثل مشهور أصله ان أخوين خرجا يجتنيان القرظ نبت معروف فلم يعلم لهما خبر ، قال عبد الله فلما طلع الصبح قلت له قم بنا الى مسجد الأحزاب فأنشد

يا للرجال ليوم الاربعاء اما   ينفك يحدث لي بعد النوى طربا
ما ان يزال غزال فيه يظلمني   يهوى الى مسجد الأحزاب منتقبا
يخبر الناس ان الاجر هيمه   أو انه طالب للاجر محتسبا
لوكان يبغي ثوابا ما أتى ظهراً   مضمخاً بفتيت المسك مختضبا

فمضينا الى المسجد فحينا صلينا الظهر أقبل النسوة ولم نر الجارية فيهن ، فقلن له ما ظنك بطالبة وصالك ، فقال وأين هي ، قلن له مضى بها أبوها الى السماوة فأنشد

خليليّ ريا قد أجدّ بكورها   وسارت الى أرض السماوة عيرها
خليليّ قد غشيت من كثرة البكا   فهل عند غيري عبرة استعيرها

فقلت له قد وردت بمال جزيل أريد به الحج ، وقد عزمت على ان ابذله في حاجتك فهل لك ان تسير معي الى قومها وأبيها ، فقال نعم فسافرنا الى ان وافينا أباها ، ففرش لنا الانطاع ونحر لنا النحائر ، فحلفنا ألا نأكل له طعاماً أو يقضي حاجتنا ، فقال اذكروها فأعلمناه بخطبة عتبة ، فقال من عتبة ، فقلنا من الأنصار ، قال ذاك اليها فقلنا له أخبرها ، فدخل عليها وأعلمها فشكرت عتبة فقال قد نمى إليّ أمرك معه وأقسم لا أزوجك به ، فقالت ان الأنصار لا يردّون رداً قبيحاً فان كان ولا بد فاغلظ عليهم المهر ، فقال نعم ما أشرت به ، ثم خرج فقال قد أجبت ولكن على ألف دينار وخمسة آلاف درهم هجرية ومائة ثوب من الابراد والخز وخمسة أكراس من العنبر ، فضمنا له ذلك وقلنا له اذا أحضرناها أجبت قال فاحضرنا ذلك ، فأولم أربعين يوماً ثم أخذناها ومضينا ، فحين قاربنا المدينة خرج علينا خيل

كثيرة حسبنا هم بأمر أبيها فقاتلناهم زماناً، فجاءت طعنة في نحر عتبة فسقط ودمه يفور ، فجاءتنا النجدة فاذا هو ميت فحين علمت الجارية بموته جاءت حتى انكبت عليه وأنشدت

تصبرت لا اني صبرت وإنما أعلل نفسي انها بك لاحقه
ولوانصفت روحي لكانت الى الردى أمامك من دون البرية سابقه
فما أحد بعدي وبعدك منصف خليلاً ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت شهقة فماتت فواريناهما معاً قال عبد الله فأقمت سبع سنين ثم رجعت الى زيارة النبي ﷺ فقلت لا أبرح أو أزور عتبة ، فجئت فاذا أنا بشجرة عليها ألوان من الورق قد نبتت على القبر ، فسألت عنها فقالوا شجرة العريسين .

أخبار الصمة وصاحبته ريا

هو أبو مالك الصمة بن عبد الله بن مسعود بن رقاش القشيري التغلبي من بني ربيعة ، كان أديباً شجاعاً عارفاً بأيام العرب ووقائعها ومواضعها وكثيراً ما يسند اليه ابن دريد والأصمعي ، قال ابن الفوّار والوزير انـه أدرك أوائل الاسلام

و (ريـا) هي بيت مسعود بن رقاش ايضاً ، كانت ذات ظرافة وفراسة ومعرفة وحسن نشأت مع الصمة صغيرين وكانا يتذاكران الأدب وملح الأشعار فأعجب بها وتمكنت منه ولم يكن عندها منه مقدار ما عنده منها ، فلمـا شكا ما يجد منها الى بعض أصدقائه أرشده الى تزوجها ، فخطبها الى عمه ، فأنعم على مائة من الابل ، فمضى الصمة الى أبيه فأعطاه تسعاً وتسعين فأبى مسعود إلا التام وعد الله إلا ذلك وحلف كل على ما قال وأقفوا الأمر فحملت الصمة الانفة على ان خرج عنها الى العراق

فقالت الريا ما رأيت رجلاً أضاعه أبوه وعمه ببعير إلا الصمة لما عندهما من العلم بحبه لها ، فلما طال عليه الأمر وتنازعه الشوق والشهامة المانعة له من العود بلا طلب مرض حتى أضناه السقم ، وقيل أتى كاهناً بالعراق فسأله عما أضمر فأخبره انه لا يتزوج بها أبداً فضعف ، والصحيح كما حكاه صاحب قوت القلوب في أخبار المحب والمحبوب انه قدم رجل يقال له غاوي بن رشيد بن طلابة المذحجي على مسعود فخطب منه ريا وأمهرها ثلثمائة ناقة برعائها ، فزوجه بها فحملها الى مذحج فبلغ الصمة ذلك فلزم الوساد وطال أمره ، فدخل عليه رجل كان يألفه فعنفه وسلاه فأنشد

أمن ذكر دار بالرقاشين أعصفت ... به بارحات الصيف بدأ ورجعا
حننت الى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وسعياً كا معا
فما حسن ان يأتي الأمر طائعاً ... وتجزع ان داعي الصبابة اسمعا
كأنك لم تسمع وداع مفارق ... ولم تر شعبي صاحبين تقطعا
بكت عيني اليمنى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا

الرقاشين اسم واد بين نجد واليمن كانت تنزله بنو ربيعة ، والبارحات رياح معلومة صيفية تستبشر بها العرب والضمير يعود على الوادي

وفي قوت القلوب اعصفت بها سانحات الصيف يريد بالدار ، والسانحات ايضاً رياح لكنها لا تخص الصيف فيشكل التعيين هنا وقوله وسعيا كا معطوف على قوله ونفسك باعدت يريدان السعي والنفس ابعداه عن المحبوبة وغلط في قوت القلوب حيث اعرب وسعييكما نصبا بالياء على انه معمول باعدت عطفاً على مزارك

وقوله فما حسن ان يأتي الأمر وبكت عيني اليمنى البيتين قد استعارهما المجنون وباقي الشعر واضح ويقال ان في القصيدة طولاً

ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وجالت بنات الشوق تحتي نزعا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني ... رجعت من الاصغاء الوي وأجزعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية ان تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا
أما وجلال الله لو تذكرينني ... كذكراك ما كففت للعين مدمعا
فقالت بلى والله ذكرى لو انه ... تضمنه صم الصفا لتصدعا

ولما طالت عليه دعا له صاحبه العراقي بطبيب حاذق ، فلما تأمله قال إنما يشكو العشق لا غيره وأرى ان يلزم النزهة والفرح بنحو البساتين ليتشاغل عما هو فيه فأخرجه صاحبه مع بعض الخدم الى الثغور ، فبينا هو يوماً على

شاطىء نهر وقد جدّ به الكرب إذ سمع امرأة تنـادي ابنتها يا ريا فسقط مغشياً عليه فاحتملوه الى بستان هناك وأضجعوه ، فلما أفاق أنشد

تعز بصبر لا وجدك لا ترى　　سنام الحمى إحدى الليالي الغوابر
كأن لساني من تذكري الحمى　　وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

ولم يزل يرددها حتى قضى ، ولما وصل خبره الى الريا داخلها من الوجد ما أمسكت معه عن الطعـام والشراب وجعلت تبكي حتى ماتت ، ومن لطيف شعره قوله

ألا من لعين لا ترى قلل الحمى　　ولا جبل الآثال الا استهلت
ألا قاتل الله الحمى من محلة　　وقاتل دنيانا بها كيف ولت
غنينا زماناً باللوى ثم أصبحت　　براق الهوى من أهلها قد تخلت
فما وجد اعرابية قذفت بها　　صروف اللوى من حيث لم تك ضنت
تمنت أحاليب الرغاء وخيمة　　بنجد ولم يقدر لها ما تمنت
إذا ذكرت نجد وطيب ترابها　　وبرد الحصى من أرض نجد أرنت

ومنـه

أرى الدهر بالتفريق والبين مولعا　　وللجمع مـا بين المحبين آبيـا
فأف عليه من زمان كأنني　　خلقت وإياه نظيل التعـاديا

أخبار كعب وصاحبته ميلاء

هـو أبو خثعم كعب بن مـالك أو عبد الله أو خثعم بن لابي بن رباح بن ضمرة طائي من عرب الحجاز يعرف بالمخبـل ، وكان جواداً سخياً شجاعاً ، مألوف الصورة

و (ميلاء) هي بنت لابي بن رباح أصغر اخواتها كانت أجمل نساءالحجاز وكان كعب قد خطب الى عمه أخت ميلاء ، وكانت تسمى أم عمرو فزوجه بها فشغف بها شديداً وألفها طويلاً وانه دخل عليها يوماً فوجدها قد نضت ما عليها وهي عريانة فسرته حين نظر اليها ، فقال أنشدك الله هل تعلمين امرأة أحسن منك فقالت نعم أختي ميلاء فقال ومن لي بأن انظرها فأخبأته وأرسلت اليها فحضرت ، فلما رآها وقعت من قلبه موقعاً أدى الى زوال عقله من العشق فانطلق في طلبها فاستمرضها وشكا اليها ما لقي من حبها ، فأعلمته انها اعظم من ذلك في حبه ، وشعرت أختها فتبعتها فرأتها يتشاكيان المحبة فمضت الى اخوتها وكانوا سبعة فأخبرتهم بذلك، وقالت اما ان تزوجوا كعباً من ميلاء ، او تغيبوها عني

فلما علم بمعرفة اخوتها به هرب الى الشام فمكث بها اياماً ، وان شامياً خرج يريد الحج فضلت بـه الطريق فاسترشد امرأة وكانت بالتقـدير المحتوم ميلاء والى جانبها اختها فأنشد الشامي متمثلا

أفي كل يوم أنت من بارح الهوى   الى الشمّ من أعلام ميلاء ناظر

بعمشاء من طول البكاء كأنما بها حرّ نار طرفها متحادر
تمنى المنى حتى اذا قلت المنى جرى واكف من دمعها متبادر
كما ارفض سلك بعد ما ضم ضمة بخيط الفتيل اللؤلؤ المتناثر

قلت وهذا الشعر قاله كعب حين علق ميلاء قبل وقوعه الى الشام والمصنف تبع الشيزري في انه قاله بالشام وأصل الحال غلط الشيزري في قوله الشم فانه قرأها الى الشام بدليل ان الشامي لما أنشد الشعر سألته ممن الرجل قال من الشام قالت أو تعرف صاحب الشعر قال هو اعرابي اسمه كعب انه يحتمل ان معرفتها من ذكر اسمها ويكون ما ذكر صحيحاً ولما اخبرها باسم الاعرابي أقسما عليه ان لا يبرح حتى بنظره اخوتها فانهم يكرمونه ثم سألاه هل تروي له غير ذلك ، قال نعم وانشد

خليليّ قد رضت الامور وقستها بنفسي وبالفتيان كل مكان
ولم أخف يوماً للرفيق ولم أجد خليا ولاذا البث يستويان
من الناس انسانان ديني عليهما مليان لولا الناس قد قضياني
منوعان ظلامان ما ينصفانني بدلها والحسن قد خلباني
يطيلان حتى يعلم الناس انني قضيت ولا والله ما قضياني
خليليّ اما أم عمرو فمنهما واما عن الأخرى فلا تسلاني
بلينا بهجران ولم ير مثلنا من الناس انسانان يهتجران
أشد مصافاة وابعد عن قلى واعصى لواش حين يكتنفان
يبين طرفانا الذي في نفوسنا اذا استعجمت بالمنطق الشفتان
فوالله ما ادري أكل ذوي هوى على شكلنا أم نحن مبتليان
فلا تعجبا مما بي اليوم من هوى فبي كل يوم مثل ما تريان
خليليّ عن أيّ الذي كان بيننا من الوصل أو ماضي الهوى تسلاني

وكنا كريمي معشر حم بيننا ... هوى فحفظناه بحسن صيان

نذود النفوس الحائمات عن الهوى ... وهن باعناق اليه ثواني

سلاه بأم العمر يشفي فقد بدا ... به السقم لا يخفى وطول هوان

فما زادنا بعد المدى نقص حده ... ولا رجعنا عن عملنا ببيان

خليلي لا والله ما لي بالذي ... تريدان من هجر الصديق يدان

ولا لي بالهجر اعتلاق إذا بدا ... كما أنتما بالبين معتلقان

ولا لاهياً يوماً الى الليل كله ... ببيض لطيفات الخصور رواني

يمنيننا حتى يرعن قلوبنا ... ويخلطن مطلا ظاهراً بليان

أعيني يا عيني حتام أنتما ... بهجران أم العمر تختلجان

فما أنتما الا علي طليعة ... على قرب اعتدائي كما تريان

فلو ان أم العمر أضحت مقيمة ... بمصر ودوني الشحر شحر عمان

إذن لرجوت الله يجمع بيننا ... وانا على ما كان ملتقيان

من البيض نجلاء العيون كلاهما ... مقيم وعيشي ضارب بجران

أفي كل يوم انت رام بلادها ... بعينين انساناً هما غرقان

اذا ذرفت عيناي قالت صحابتي ... لقد ولعت عيناك بالهملان

الا فاحملاني بارك الله فيكما ... الى حاضر الروحاء ثم ذراني

هذا ما نقله الجل ، واخرج هنا عن الأغاني من قوله ولا لاهياً يوماً الى آخر القصيدة لم ينشده الشامي قلت وقوله ففي كل يوم أنت رام وقوله الا فاحملاني البيتان مسروقان من كلام عروة بن حزام .

ثم نزل وجاء اخوتها فأكرموه ودلوه على الطريق بعد ان استخبروا منه عن كعب وموضعه ، ثم توجهوا في طلبه وضعفت ميلاء على ما رواه في نهاية الأدب بصداع أصابها

فلما حضروا بكعب نزل ناحية ، وصادف وقت وفاتها فرأى الناس عند عند البيت مجتمعين ، فأحس قلبه بالشر فقال لصبي بازاء البيت الذي هو فيه من أبوك

قال كعب وكان تركه صغيراً حين مضى الى الشام فقال له ما اجتماع الناس على طنب هذا البيت قال على خالتي ميلاء ماتت الساعة فلما سمع ذلك وضع يده على قلبه واستند الى طنب البيت ، وحرّك فوجد ميتاً فدفنوه الى جانبها رحمة الله عليهما

القسم الثاني

فيمن جهل اسمه او اسم محبوبته او شيء من سيرته
او مآل حقيقته

ختمناه بصنف لطيف القوانين في ذكر عقلاء المجانين ، ونحن وان كنا قد ذكرنا من هذا النوع فيما سلف بعضاً، لكنهم إنما نقصوا شيئاً مما ذكرنا بالنسبة الى هذا الكتاب لقلة فحصه والافهم مشهورون كثيراً بخلاف من يأتي بعد ، وستقف على كثير منهم كامل النسب

والأسباب أذكره ان شاء الله تعالى لكنه غير قوي الشهرة ولم اتبعه في التنويع بأن أقول نوع فيمن نزل به الحال ونحو ذلك اذ لا طائل فيما صنع ، ولا فائدة فيما نوع ووضع وإنما كان الأولى ان يذكر المشاهر ثم أهل الجاهلية وهكذا كما وقع ترتيبه هنا وهؤلاء القوم كثيرون

فمنهم سامة بن لؤي بن غالب القرشي مشهور

قال في النزهة نحر يوماً لضيوف مائة من الابل فأكلوا قليلاً وبقي الغالب فعاتبه أخوه كعب في ذلك وقال له لو بقيت عليها الحاجة كان أولى فغضب منه ورحل مستخفياً فنزل على أزدي فنظرت اليه زوجته فوقع من قلبها ،

وهي من قلبه وزوجها يرصدهما فلم يستطيعا أن يعرّف كل منهما الآخر ما عنده فاستاك أسامة ورمى السواك فأخذته وامتصته ففطن زوجها لذلك فعزم على قتله فسم له قدحاً من لبن وقدمه إليه فغمزته فأراقه ثم ركب وسار فهوت ناقته فى الخيلة الى عرفجة لترعاها فلما جذبتها خرجت حية فضربت ساق سامة فمات لوقته وبلغ الأزدية فلم تزل تبكيه حتى ماتت ولولا ما في هذه الحكاية من الاعتبار بمصادفاة الأقدار لم أوردها إذ لا مناسبة لها بهذا المعيار .

ومنهم عمرو بن عوف وبيا

هوى جارية اسمها بيا فشغف بها طويلاً فخطبها الى أهلها فلم يجيبوه وزوجوها من غيره فلما شعر زوجها بحال عمرو معها رحل بها حتى نزل اليمن ببني الحرث بن كعب وطال الحال على عمرو فطاش عقله وطار لبه فاشار عليه اصدقاؤه ان يقصد مكة فيتعلق بأستار الكعبة ويسأل الله أما جمعه عليها أو صرف قلبه عنها ففعل فبينما هو يطوف في الموسم إذ رآه شخص من بني الحرث فوقعت بينهما ألفة فأخبره بالحال وغياب المرأة فأعلمه بمكانها منهم فقال عمرو هل لك في صنيعة يحسن شكرها قال نعم قل فقال عمرو ليتخلف كل منا عن أصحابه بعد النفر ثم نسير الى مكان يقرب منها وتمضي أنت فتعلمها بمكاني ففعلا ومضى به الرجل حتى جعله في بيته وذهب فأعلم بيا فكانت تأتيه فيتحادثان ويتشاكيان ما لقيا من الوجد فأنكر زوجها غشيانها المنزل من غير عادة وحسن حالها بعد ما كانت فيه من الضجر فأظهر لها سفراً يتيب فيه عشراً ثم عاد بعد ليلتين وقد فرشت لعمرو بساطاً أمامالبيت وتحادثا فنام كل على طرف من البساط آمنا فنبه عمراً فثار عليه بالسيففقال من ينجيني منك يا عمرو وأنا لم أهرب هنا الا منك فقال يا ابن العم والله لم يكن بيننا اكثر من الحديث وانما غلب علي حبها من الصغر فقال زوجها

حيث تحققت ان لا ريبة فلا بأس عليك فأقاما جميعاً حتى مات عمرو من العشق والعفة والوجد .

وحكى انها عمرت بعده فسئلت على أي شيء مات عمرو وجداً بك مع انه لأحسن عندك فقالت ما كنت بالقبيحة ولقد كنت أروي الشعر وأحسن الأدب

ومنم بشير الشهير بالاشتر وجيداء

هوى جارية من قومه اسمها جيداء فاشتد بها كلفه وزاد في حبها تلفه فمنعها أهلها عنه فثار بينهم شر وخصومة عظيمة ، فلما طال شوقه واضمحل حاله جاء إلى صديق له يقال له نمير فقال له هل عندك صنيع تمن به عليّ عسى أن تعود روحي إليّ ، قال أشر بما شئت فاني فاعل قال له تمضي إلى حي جيداء فإذا صادفت جاريتها فأخبرها بحالي فعسى أن تأخذ لي موعداً ، قال نمير فمضيت حتى لقيت الجارية فأخبرتها فمضت إلى مولاتها فأخذت منها موعداً بأن تأتي بعد العشاء عند شجيرات هناك

فلما كان الليل أقبلت فقام إليها بشير وهممت بالإنصراف عنها فقالا والله ما بيننا أكثر مما ترى فمكانك فجلسنا حتى مضى شطر من الليل فعزمت على الذهاب فكادت نفس بشير أن تزهق ثم سألها الإقامة معه بقية الليلة فقالت لا سبيل إلى ذلك إلا أن يكون في صاحبك هذا خير فقلت فيم شئتم؟ فرمت بثيابها إلي وقالت إذهب إلى خدري كأنك أنا فسيجيء زوجي ويطلب القدح للحلب فلا تعطه حتى تطيل نكده ثم ارم به إليه فاني أفعل ذلك فإذا عاد باللبن فلا تأخذه حتى يضعه بنفسه أو يطول وقوفه فإنه بعد ذلك لا يأتيك بقية الليلة

قال نمير ففعلت ذلك غير أني بعد أن طال وقوفه باللبن وأراد وضعه

وأردت أخذه فاختلفنا فكب القدح وقال هذا طماح ثم عمد إلى سوط مفتول فضربني حتى زايلتني نفسي وهممت أن أوجره بالسكين فخلصوني وردوا علي الستر وجاءت امها تعنفني وتوصيني بأن لا اخالف زوجي ظناً انني ابنتها وتقول مالك وللاشتر ثم قامت عني على أن ترسل لي ابنتها الاخرى تؤنسني. فلما جاءت جعلت تبكي وتدعو على من ضربني واضطجعت إلى جانبي فوضعت يدي على فمها ثم قلت ان اختك مع بشير في موضع كذا وقد جرى لي من جهتها ما علمت وانت أولى بالستر على اختك فارتعدت ساعة ثم أنست فبت معها في أطيب ليلة من اللطف والعفة حتى إذا جاء الصباح وأقبلت اختها فأنكرت من معي فقلت هي اختك وستخبرك بما كان ثم مضيت الى بشير فأعلمته بالخبر فلما رأى تأثير السوط في بدني وخروج الدم قال لقد عظمت صنيعك ووجب شكرك

قال ابن طاهر فلم يقم بعدها بشير إلا دون شهر وجاءه شخص فقصد مما جنته فقال له وهو يتناول عنباً أتتفكه وجيداء قد قضت الساعة فلم يسمع منه إلا شهقة وحرك فإذا هو ميت فبلغ الخبر الجارية فهتكت سترها وجزت شعرها وألقت نفسها في بئر هناك فماتت

ومنهم مسعدة بن واثلة الصارمي

قال في تسريح النواظر وكان غلاماً حسن الوجه سخي الكف شجاعاً وأن أباه توفي فاختلف مع عمه على بكرات فرحل مغضباً حتى نزل على بني باهلة فأقام عندهم برهة فورد الماء يوماً فصادف جارية على بعير تشد عقاله وهمت بالنزول فلما رأته قالت هل لك في أن تكفيني كلفة التعب قال وفيم تتعبين وماذا تطلبين قالت ملء هذه السقاية ورمت بها إلي فلما ملأتها وهمت أن تتناولها شمرت عن زندين كأنما حجبت عظامهما بالبلور الصافي ثم

تناولت القربة فانكشف البرقع عن وجه كأنما تستعير منه الشمس الضياء فداخلني ما خشيت معه زهاق نفسي قال ثم مضى متغير الحال فشكا إلى صديق له ما جرى له وسأله عن اسم الجارية فقال هي رملة بنت أثيلة بن مصقع وأعلمه بمكانها فكان يمضي في كل يوم فيقف حتى يراها فيشكو إليها ما عنده من حبها قال الشيزري فداخلها من العشق ما داخله فلما علم أهلها بذلك حجبوها وبلغه علمهم فخرج حياء وخوفاً فرأى حمامات على أراكة ينحن فهاجت بلابله فأنشد

دعت فوق أغصان من الايك موهنا   مطوقة ورقاء في أثر آلف
فهاجت عقابيل الهوى إذ ترنمت   وشبت ضرام الشوق بين الشراسف

ثم أدركه الليل قريباً من حي خشي أن يكونوا من قومها فنزل قريباً منهم فسمع قائلاً يقول

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

وكان يرى الطيرة فارتابت نفسه من ذلك وراجعه القلق ثم أخذته سنة فإذا هو بقائل ينشد

ولا شيء بعد اليوم إلا تعلة   من الطيف أو تلقى بها منزلا قفرا

فزاد قلقه ثم عاودته السنة فسمع قائلاً يقول

لن يلبث القرناء أن يتفرقوا   ليل يكر عليهم ونهار
لم يبق يوماً عاشقان بحالة   إلا وقد جاءتهم الأغيار
كل وإن طال المدى متصرم   حكم الإله وسارت الاقدار

فقام فركب متفكراً وسار فلما برق الفجر إذا هو براع ينشد

كفى بالليالي مخلقات لجدة   وبالموت قطاعا حبال القرائن

فعرف صوته فقال فلان قال نعم فقال له ما دهاك ؟ قال قد ضاجعت

رملة الثرى فسقط مغشياً عليـــه فلم يفق حتى حميت الهاجرة وحمل إلى بيته فأنشد

يا راعي الضأن قد ألقيت لي كمدا ... يبقى ويقلقني يا راعي الضـان
نعيت نفسي إلى روحي فكيف إذا ... أبقى ونفسي في أثنـاء كفـاني
لو كنت تعلم ما أسررت في كبدي ... بكيت ممـا تراه اليوم أبكاني

فلم يزل يردده حتى مات

ومنهم زرعة بن خالد العذري

كان غلاماً حسن الوجه عذب المنطق سخي الكف راوية عارفـــاً بأيام العرب وأشعارها خرج يوماً للصيد فلما ورد المشرعة وجد النسـاء يغترفن الماء ودونهن جارية قد انفردت تمشط شعرها على جانب الغدير وقد أسبلته كأنه الليل المظلم ووجهها من خلاله كأنه البدر في تمـه فحين أبصرها سقط مغشيـاً عليه فقامت إليه فرشت عليه الماء فلما أفاق وأبصرها قال وهل مقتول يداويه قاتله قالت كفيت ما تشكو وحادثته فثابت نفسه إليه وقد داخله من الحب ثم رجع وهو يقول خرجنا لنصيد فاصطدنا ثم أنشد

خرجت أصيد الوحش صادفت قانصاً ... من الريم صادتني سريعاً حبائله
فلمـا رمـاني بالنبـال مسارعـاً ... رقاني وهل ميت يداويه قاتله
الا في سبيل الحب صب قد انقضى ... سريعاً ولم يبلـغ مراداً يحاولـه

قال ابن الفرات ثم انه لزم الوساد أياماً وأنامه أقسمت عليه حين سمعته يكرر الأبيات الا ما أخبرها بحاله فأظهرها على الأمر فعرفت الجارية فإذا هي ظريفة بنت صفوان بن واثلة العذري فمضت إليها وأعلمتها القصة وقبلت

رجليها على أن تزور بيتهم فعسى أن يشفى ولدها فقالت أن الوشاة كثيرون ولكن خذي هذا الشعر إليه فان أمسكه فإنه يشفى ثم جزت لها شيئاً من شعرها فلما ذهبت إليه جعل يتنشقه فتراجعت نفسه شيئاً فشيئا حتى اشتهى ما يأكل فقدم إليه فتناوله وقام فكان يأتي قريباً من الأبيات فيسارقها النظر وتخالسه هي أيضاً الى أن فطن أهلها فآلوا على قتله وبلغه فوقع إلى اليمن وكان كلما اشتد شوقه قبل الشعر وجعله على وجهه فيستريح لذلك فلما كان يوم من الأيام وقد خرج لبعض حاجاته سقط منه الشعر فلما أيس منه عزم على العود فعنف فقال دعوني فاني أرجو أن اظفر أو أموت فصحبه غلام

قال أبو شراعة فرأيته في الطريق وعليه بردان وهو يعلم الصبي الأبيات ويقول له إذا حاذيت موضع كذا فأنشدها رافعاً صوتك ولك أحد هذين البردين فتبعتهما حتى بلغ الموضع فأنشد

مريض بأفناء البيوت مطرح	به ما به من لاعج الشوق يبرح
وقالوا لأجل اليأس عودي لعل ما	تشكاه من آلام وجدك يمسح
وليس دواء الداء إلا بحيلة	أضربنا فيها غرام مبرح
إذا ما سألناها نوالاً تنيله	فصم الصفا منها بذلك اسمح

فتبعت الصبي وهو لا يشعر بي فلما حاذاها رفع عقيرته بالأبيات ينشدها فسمعت من بعض الأبيات قائلاً يقول

رعى الله من هام الفؤاد بحبه	ومن كدت من شوقي إليه أطير
لئن كثرت بالقلب أتراح لوعة	فان الوشاة الحاضرين كثير
فيمشون يستشرون غيظاً وشرة	وما منهم إلا أب وغيور
فان لم أزر بالجسم رهبة مصدر	فلاقلب آت نحوكم فيزور

وفي النزهة (فان لم أزر بالجسم خيفة معشر) وهو أحسن ثم رجع الصبي فأنشد أبياتها فأغشى عليه ساعة ثم أفاق وهو ينشد

أظن هوى الخود الغريرة قاتلي فياليت شعري ما بنو العم صنع
أرامم وللرحمـــن در صنيعهم تراكي دمي هدراً وحاب المضيع

ثم مضى متنكراً حتى دخل بيته ولزمه أياماً الى أن زفت ظريفـة الى رجل منهم يقال له ثعلب فلما بلغه الخبر اضطرب ساعة ثم اغمي عليه فحرك فإذا هو ميت وبلغها فلزمت البكاء أياماً ولم تمكن الرجل من نفسها فلما كانت ذات ليلة خرجت من بعد انتصاف الليل فتبعها حتى انتهت الى نهر فألقت بنفسها فيه فأخرجها وليس بها حراك ثم احتملها الى الخيمـــة ، فلما أصبح الصبح جاءت أمها فوجدت بها رمقاً ولكنها لم تفقه كلاماً فأشارت أن تسقى المـــاء فسقوها فقضت من وقتها وفي روضة القلوب انها غرقت ولم تخرج إلا ميتة

ومنهم شخص

قال التوزي مسنداً عن بعضهم انه رآه وقد تهيأ الى الحج فلما دخل بغداد رآه وقد أقبل تحت قصر ومعه تفاح فجعل يرشق به الى القصر وجوار تناوله بأيديها فقال له ويحك ألم ترد الحج فأنشد

ولما رأيت الحج قد آن وقتـــه وأبصرت برك العيس بالركب يعسف
رحلت مع العشاق في طلب الهوى وعرّفت من حيث المحبون عرفوا
وقد زعموا ان الجمار فريضـــة وتارك مفروض الجمار يعنـــف
* فهيأت تفاحاً ثلاثـــاً واربعاً فزعفر لي بعض وبعض مغلف
وقمت حيال القصر ثم رميتـــه فظلت له أيدي الملاح تلقف
واني لا ارجو ان تقبـــل حجتي وما ضمني للحج سعي وموقف

* (ومنهم رجل من بني كندة) فحـــد من بني عذرة أورده مجهولاً

وكذا ابن ابي الاصبع في الطبقات في ترجمة الحرث بن كلدة وفي النزهة قال لا نعلم اسمه وحكايته مشهورة وهي أن أخاه استخلفه على بيته وخرج لغرض فصادف يوماً أن دخل وزوجة أخيه سافرة فرآها فلما علمت بذلك سترت وجهها بيديها فكان ما لقيه من رؤية معصميها اضعاف ما لقيه من وجهها فخرج وقد اشتعل الحب في قلبه فأقام أياماً يكابد العناء حتى لزم الوساد وجاء أخوه فأبصره وقد ذوت اعضاؤه وذهبت محاسنه وتغير جسمه فلم يترك عرّافاً ولا طبيباً حتى دعاه له فلم ينجح شيئاً فوصف له الحرث بن كلدة ، وكان أحذق أهل زمنه فلما رآه قال ليس به إلا العشق فقالوا وما السبيل الى معرفة ذلك قال تسقوه الخمر فمساه أن يصرح ففعلوا ثم غدا عليهم فقالوا له قد ذكر العشق ولكن لم يصرح باسم المحبوبة فقال زيدوه ففعلوا فصرح بريا زوجة أخيه فقال أخوه أشهدكم انها طالق ثلاثاً لأني اعتاض عنها ولا اعتاض عن أخي فبشروه فقال هي علي كأمي ان تزوجتها ، ومات بعد قليل . وقيل خرج هائماً ولم يدر أين مات ، وأن أخاه حين فقده مات أسفاً ولما سقوه الخمر غنى أبياتاً حذفتها هنا وفي مختصرالطبقات لسخافتها فاختلف في أيها أكرم .

ونظير ذلك في السماحة ما وقع للحكم بن المطلب المخزومي فانه هوى جارية فاشتراها بمال عظيم وأراد الدخول بها فلبس أفخر ثيابه ومضى ليعلم أباه ، وكان أبوه يحب أخاه عتبة اكثر منه فأقسم عليه ان يهب الجارية لأخيه ففعل فأبى أخوه فاعتقها حتى قيل انه مات بحبها وله عطايا مشهورة قيل أن رجلاً حجازياً لزمه دين ثلاثة آلاف دينار فقصد خالد بن عبدالله القسري بهدايا فصادف الحكم وكان جابياً فلما وقف على قصته وهب له أربعة آلاف دينار وقال له وفر عليك المشاق

ومنهم غلام

قال في النزهة هذلي واسمه راشد بن صفوان الهذلي قال الجلال السيوطي في شرح الشواهد عن ابن عساكر ان اسمه غاوي وكان له كلب اسمه راشد وكان له صنم ياتي إليه كل صبيحة فيسجد له ويذهب الى الصيد فجاء يوماً فرأى الثعالب قد بالت على رأس الصنم فكسره وأنشد

أرب يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم أقبل الى رسول الله ﷺ فقص عليه الخبر فاسلم فقال له ما اسمك ؟ قال غاوي قال وكلبك ؟ قال راشد قال لا أنت راشد وكلبك غاوي ثم ذهب وكان يعدو على بني عامر لالفة بينه وبين رجل منهم فلمح جارية منهم يقال لها هيفاء بنت عبدالله بن عامر وكانت من أجمل نساء العرب فغادره من حبها ما كاد أن ياتي على نفسه ثم ان الجارية تزوجت بشخص من جهينة فلما حملها الى حيه وطال على الغلام الشوق وانقطاع الأخبار ذهب عقله فكان يسيح عارياً فصادف صياداً قد اصطاد خشفاً فوقف ينظر اليه ويبكي ثم أنشد

وذكرني من لا أبوح بذكره ... محاجر ظبي في حبالة قانص

فقلت ودمع العين يجري بحرقة ... ولحظى الى عينيه لحظة شاخص

ألا أيهذا القانص الظبي حله ... وان كنت تاباه فعشر قلائص

خف الله لا تحبسه ان شبيهه ... حبيبي فقد ارعدت فيه فرائصي

فقال له الصياد دونك فحله فتقدم إليه وقبله وأطلقه واتبعه نظره حتى غاب ثم قال للصياد ائتني غداً في موضع كذا ، واقبل يسوق عشراً من الإبل فابى الصياد قبولها فاقسم عليه الا ما اخذها فقبلها وانصرف

ومنهم قيس بن منقذ بن مالك الكناني
المشهور بابن الحدادية

كان يهوى نعمى الخزاعية وكانت كنانة وخزاعية يتقاربون في المنزل لأن بينهم نسباً لم ترم فيه العصا فكان قيس يجلس الى نعمى فيتحادث معها فدخل بينهم الهوى وقيل انها رأته وقد ركب يوماً في ملعب وزينة ففخر على أكثر من حضر بالشجاعة فدعته للمحادثة وقد نزلت مع أتراب لها على منتزه فنزل وتحادثت معه ساعة فاقبل داع يسوق غنماً فاشترى قيس منه عنزة وذبحها للنساء فلما أكلن وقمن ترك الفاضل منها على الأرض ثم تمثل بهذا البيت ويقال انه لحاتم الطائي

إذا لم يكن للطير في زاد عزوة نصيب فليسوا في الورى بكرام

وفي النزهة إذا لم يكن للوحش والمعنى قريب فانتشأ الود بينهما ولم يزالا على ذلك برهة الى ألى أجدبت سنونهم فارتحلوا منتجعين وافترقت القبيلتان فلما كان يوم من الأيام نظرت كنانة الى موضع ديارها فوجدوا البروق ملية والسحب فضية فعلموا أن الغيث عمها فارتحلوا الى ان نزلوا بها فنظر قيس في مواضع خزاعة فتذكر اجتماعهم فتنفس الصعداء وانشد

إذا ما نأت نعمى فهل انت جازع قد اقتربت لو ان ذلك نافع
قد اقتربت لو أن في قرب دارها نوالاً ولكن كل ما صين مانع
فان تلق لي نعمى هديت فحيها وسل كيف ترعى بالمغيب الودائع
وظني بها حفظ لغيبي ورعية لما استرعيت والظن بالغيب واسع

وقد يلتقي بعد الشتات أولو النوى ... ويسترجع الحي السحاب اللوامع
وما ذات جيد نازعت حبل حابل ... لتنجو ثم استسلمت وهي طائع
بأحسن منهـــا ذات يوم لقيتها ... لها نظر نحوي كذى البث خاشع
كأن فؤادي بين شقين من عصا ... حذار وقوع البين والبين واقع
فقلت لهـــا يا نعم خلي محلنا ... فان الهوى والشمل يا نعم جامع
فقالت وعينـــاها يفيضان عبرة ... بأهلي بين لي متى أنت راجع
فقلت لهـــا تالله يدري مسافر ... اذا أضمرته الأرض ما الله صانع
واني لعهـــد الود راع وانني ... لوصلك ما لم يطوني الموت طامع

ثم لم يزل متعللاً بالأماني يعتوره الخيال أياماً الى ان بلغه ان خزاعة بجبل بالشم من اليمن فارتحل حتى وقع بهم فقيل انه عند رؤيتها سقط ميتاً وقال في النزهة أقام عندهم الى ان أغارت عليهم بنو فزارة فقتل يومئذ .

ومنهم توبة بن حمير بن أسيد الخفاجي

وكان شجاعاً مبرزاً في قومه ، فصيحاً مشهوراً بمكارم الأخلاق ومحاسنها ، وخفاجة على ما ذكر في النزهة فخذ من قحطان ، وكانت تنزل ببني الأخيل كعب بن معاوية ويغزون معهم ويتحدثون في المسرح. وكان رئيس بني الاخيل حذيفة بن شداد بن كعب وكان له ابنة قد شاع في العرب ذكرها بالحسن ، والفصاحة وحفظ أنساب العرب وأيامها وأشعارها فغزوا يوماً ، فلما رجعوا حانت من توبة التفاتة وقد برزت النساء بالبشر والاسفـــار للقاء القادمين من الغزو .

فرأى ليلى فافتتن بها فجعل يعاودها فيتحادث معها الى ان أخذت قلبه ، وأطارت لبه ، فشكا لها يوماً ما نزل به منها فأعلمته ان بها منه أضعاف

ذلك فأقاما على التزاور الى ان حجبها زوجها ، فقلق توبة لذلك حتى خامره الجزع ، فكان يذهب بعقله أحياناً فأشاروا عليه بتعاطي الأسفار والخوض في الحادثات فعزم على الشام فمرّ بجميل فأنزله وأحسن خدمته ، ثم تداعيا الصراع وكانا في موقف تشرف منه بثينة عليهما ، فصرعه جميل ، ثم نضله ثم قهره على ظهر الفرس ولم يكن له كفؤا

فقال له توبة كأنك تحسب ذلك منك ولم تدر انه بريح هذه الجالسة ، وأشار الى بثينة ثم دعاه الى واد يخفى عنها وتصارعا فيه ، فصرعه توبة ثم مضى في طريقه ، فمرّ سحراً بأشجار في وادي الغيل وعليها حمائم تغرد فعاودته الاشجان فأنشد

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها

وخفت نواها من جنوب عفيرة كما خف من نيل المرامي جفيرها

يقول رجال لا يضرك نأيها بلى كل ما شق النفوس يضيرها

أليس يضر العين ان تكثر البكى ويمنع منها نومها وسرورها

لكل لقاء نلتقيه بشاشة وان كان حولا كل يوم نزورها

خليليّ روحا راشدين فقد أبت ضرية من دون الحبيب ونيرها

يقرّ بعيني أن أرى العيس تعتلي بنا نحو ليلى وهي تجري صقورها

وما لحقت حتى تقلقل عرضها وسامح من بعد المرام صقورها

وأشرف بالأرض اليفاع لعلني أرى نار ليلى او يراني بصيرها

فناديت ليلى والحمول كأنها مواقير نخل زعزعتها دبورها

فقالت أرى ان لا تفيدك صحبتي لهيبة أعداء تلظى صدورها

فمدت لي الأسباب حتى بلغتها برفقي وقد كاد ارتفاقي يضيرها

فلما دخلت الخدر أطت نسوعه وأطراف عيدان شديد سيورها

فأرخت لنضاخ الذفاري منصة وذي سيرة قدكان قدماً يسيرها

واني ليشفيني من الشوق أن أرى على الشرف النائي المخوف أزورها

وان أترك العيش الحسير بأرضها يطيف بها عقبانها ونسورها

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الغوادي مطيرها

أبيني لنا لا زال ريشك ناعمة ولا زلت في خضراء دان بريرها

وقد تذهب الحاجات يسترها الفتى فتخفي وتهوى النفس ما لا يضيرها

وكنت اذا ما زرت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

وقد رابني منها صدود رأيته واعراضها عن حاجتي وقصورها

ارتك حياض الموت ليلى وراقنا عيون نقيات الحواشي تديرها

ألا يا صفي النفس كيف بقولها لو ان طريداً خائفاً يستجيرها

تجير وان شطت بها غربة النوى ستنعم ليلى أو يفادى أسيرها

وقالت أراك اليوم أسود شاحباً واني بياض الوجه جر جرورها

وغيرني ان كنت لما تغيرت هواجر لا اكتنها وأسيرها

اذا كان يوم ذو سموم أسيره وتقصر من دون السموم ستورها

وقد زعمت ليلى بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

فقل لعقيل ما حديث عصابة تكنفها الأعداء ناء نصيرها

فان لا تناهوا يركب اللهو نحوها وخفت برجل أو جناح يطيرها

لعلك يا قيسا ترى في مريرة معذب ليلى ان رآني أزورها

وادماء من حره الهجان كأنها مهاة صوار غير ما مس كورها

من الناعبات المشي نعباً كأنما يناط بجذع من أراك جريرها

من العر كنانيات حرف كأنها مريرة ليف شد شداً مغيرها

قطعت بها موماة أرض مخوفة مخوف رداها حين يستن مورها

ترى الضعفاء القوم فيها كأنهم دعاميص ماء نس عنها غديرها
وقسورة الليل التي بين نصفه وبين العشا قد ريب منها أسيرها
أبت كثرة الأعداء ان يتجنبوا كلابي حتى يستثار عقورها
وما يشتكي جهلي ولكنّ عزتي تراها بأعدائي لبيثاً طرورها
أمخترمي ريب المنون ولم أزر جواري من همدان بيضاً نحورها
تنوء باعجاز ثقال واسوق جدال واقدام لطاف شعورها
أظن بها خيراً وأعلم انها ستنفك يوماً أو يفك أسيرها
أرى اليوم يأتي دون ليلى كأنما أتت، حجة من دونها وشهورها
عليّ دماء البدن ان كان بعلها يرى لي ذنباً غير اني أزورها
واني اذا ما زرتها قلت يا اسلمي ويا بأبي قول اسلمي ما يضيرها

وهذه القصيدة قال صاحب النزهة أنشدها كلها حين سجع الحمائم وقيل أنشدها متقطعة بحسب الوقائع وانما جمعتها الشعراء وها أنا أورد ذكر غريبها وما وقع لبعض أبياتها من الحكايات قيل لما وقفت ليلى على قوله ولما دخلت الخدر غضبت غضباً شديداً ثم أمسكت عن كلامه برهة فتوسل اليها وعرض عليها انه يريد ان يسقي نفسه السم ان لم تكلمه ، فجمعت ثلاثة من أهلها بحيث يخفون عليه واستحضرته فلما آنسته قالت أي خدر دخلت معي حتى تقول ما تقول ؟ فقال هذا استرسال الشعراء ثم ذكر لها أمثال ذلك وتنصل ففرحت بسماع أهلها ذلك وقوله منصة يريد بها الستر وقوله حمامة بطن الواديين ترنمي هو أول بيت تفوه به من القصيدة الى قوله وكنت إذا ما زرت ليلى ثم ضم الباقي .

وأما قوله وكنت إذا ما زرت ليلى فالحقه بعد اكالها وسبب انشاده انه كان يزورها على خيفة وخفية ، فلما اشتد التحريج عليه جعلت بينها وبينه أمارة فقالت إذا مررت فوجدتني مبرقعة فاجلس مطمئناً فلا حرج حينئذ ،

فلما قوي حرصهم وتوعدهم لها وأجمعوا ان يفتكوا به إذا رآهـا خرجت يوم ميعاد سافرة على كثيب بحيث يراها على البعد ، فلما أقبل ورآها سافرة مضى في طريقه منتكباً وهو يقول : وكنت إذا ما زرت ليلى الأبيات . ثم دخل الشام فأقام بها يسيراً فلم يأخذه قرار وتاقت نفسه الى العرب فكان يخرج الى الربوة ليسلي نفسه فلم يكن له دأب إلا البكاء فأقام أياماً لا يلذ له حال ولا ينعم له بال فخرج يريد البادية فمرّ حين قابل حيها بصغير يلعب فقال له هل أنت عارف بليلى ؟ قال نعم . قال امض اليها وانشد : « وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت » وعد الي فسأحسن منقلبك

فمضى الغلام فأنشد البيت لليلى فعلمت ان توبة قد ورد الحي فقالت للغلام قل له انها الآن مبرقعة فمضى الغلام اليه وأعلمه بذلك فأعطاه دينارين وأقبل فجدد زيارتها ثم قال لها مكنيني من تقبيل يدك ، وفي الروض النضير انـه سألها قبلة فأنشدت :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها	فليس اليهـا ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه	وأنت لاخرى صاحب وخليل

ففطن انها استرابت منه فحلف انه لم يرد سوءاً وان نفسه قد حدثته بان يجربها فاستشاطت شوقاً ثم ودعها على استحياء ومضى ، فما استقر به المنزل حتى عزمت خفاجة على غزو الهذليين ، فخرج فقتل في الوقعة ، ولما وقع وبه رمق ادركه ابن عمه فقال له هل لك حاجة ؟ قال نعم تبلغ ليلى هذه الأبيات وأنشد

ألا هل فؤادي من صبا اليوم طافح	وهل ماوأت ليـلى به لك ناجح
وهل في غد ان كان في اليوم علة	سراح لما تلوى النفوس الشحائح
ولو أن ليلى الأخيليـة سلمت	علي ودوني جنـدل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة اوزقـا	اليها صدى من جانب القبر صائح
ولو أن ليلى في السماء لأصعدت	بطرفي الى ليلى العيون الكواشح

ولو أرسلت وحياً الي عرفته — مع الريح في موارهـا المتناوح
أأغبط من ليلى بما لا أناله — إلا كل ما قرت به العين صالح
سقتني بشرب المستضاف فصرت — كما صرد اللوح النطاف الصحاصح
وهل تبكين ليلى اذا مت قبلها — وقام على قبري النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها — وجاد لها جار من الدمع سافح
وفتيان صدق قد وصلت جناحهم — على ظهر مغبر التنوفة نازح
بمائرة الضبعين معقورة النسا — امين القرى مجترة غير جانح
وما ذكرتي ليلى نأى دارها — بنجران الا الترهات الصحاصح

قوله ولو أن ليلى البيتين قد سبق الكلام عليهما في قصة المجنون وزقا بالزاي وقوله وهل تبكين ليلى ، يعني وهل هي باكية إذا مت فليلى في البيت فاعل حذراً مما توهم هنا ، وفي النزهة وما ذكر تنبيه على بعد دارها وقيل ان هذه القصيدة انشدها حين خرج قبل ورود الوقعة ، وإنما أنشد عند موته قوله

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة — من الدهر لا يسري الى خيالها

وان ابن عمه حين جاء انشدها الأبيات أو هذا البيت فأجابته

وعنه عفا ربي وأحسن حاله — فعزت علينا حاجة لا ينالها

وقيل مات عشقاً وكيف كان لما بلغ نعيه ليلى خلعت الزينة وأقامت على الحزن حتى ماتت بعده لكن بعده بسنين كثيرة فقد قيل ان وفاة توبة كانت سنة سبعين وقيل احدى وسبعين ووفاة ليلى كانت احدى ومائة

قيل مرت بقبر توبة فقال زوجها هذا قبر توبة الكذاب فقالت لم يكن والله كذاباً فقال لها أليس يقول ولو أن ليلى الأخيلية البيتين ، سلمي عليه لننظر فامتنعت فأقسم عليها أن تفعل فلما سلمت خرج من طاقة القبر بومة فأجفلت الناقة فوقعت ليلى ميتة فدفنت الى جانبه

وقيل طير كانت العرب تزعم انه يقيم في هامة المقتول حتى يؤخذ بثاره وحكى انها هي التي قصدت ذلك وهذه القصة رواها في النزهة عن متفرقين ووثقها وأما هنا فقد حكى ما قررناه الا السبب عن ليلى نفسها وانها حكت ذلك للحجاج حين قدمت عليه تجتديه من جدب الزمان فوهب لها مائـة من الإبل برعاتها وذلك فيما اخرجه المدائني عن مولى عنبسة قـال كنت مع استاذي عند الحجاج إذ قال له الحاجب ان بالباب امرأة فقال ادخلها فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه الى الأرض واستجلسها ثم استنسبها فانتسبت فقال ما جاء بك قالت اخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد وكنت لنا بعد الله الرفد فقال لها صفي لنا الفجاج فقالت الفجـاج مغبرة والأرض مقشعرة والبرك معقل وذو العيال مجشل والهالك المقل والناس مستنون رحمة من الله يرجون واصابتنا سنون مجحفة مبطلة لم تدع لنا هبعاء ولا ربعاء ولا عافطة ولا نافطة اذهبت الأموال وفرقت الرجال وأهلكت العيال فانظر الى هذه الفصاحة والبلاغة ولذلك انقاد لها مع تجبره فقولها خلاف النجوم تريد به الأنواء فان العرب يعرفون بمساقط النجوم لانواء يستدلون بها على صحـة السنة وخصبها وكثرة الأمطار فكأنها تعد بذلك فإذا لم تأت بذلك فقـد أخلفت وقلة الغيوم تريديه لازمها الغالب وهو المطر وفيه عطف الأخف على الأعم وكلب البرد شدته والعرب تطلق هذا الاسم على أيام مخصوصـة من تاسع كانون أعـني كيهك الى ثامن عشر شباط أعني امشير والفجاج هنـا الارض وغبرتها كناية عن عدم نداوة الارض فان ذلك يثير الغبار واقشعرار الارض عدم نباتها والبرك الابل وعقلها كناية عن عدم ما تحملـه والاجشال اليبس والاملاق والهبعاء الحسنة والربعة السيئة وعن الاصمعي الهبعاء ما يزرع في سوى الربيع والربعاء ما يزرع فيه أوهما مطران أو الابل والغنم ضعيف وفي تهذيب الاصلاح للتبريزي هما كلمتان يراد بهما الاخبار عن نفاد ما في اليد مثل ما عنده سبد ولا لبد والعافطة العنز والنافطة النعجة .

ويقال أيضاً الاثا غية ولا راغية أي لا غنم ولا ابل ثم مدحته حتى استعفى وقال لم يصب وصفي منذ دخلت العراق غيرها ثم قال لخازنه اقطع لسانها فأراد ذلك فقالت ويحك انما أراد بالعطاء فراجعه فغضب وأمر بعودها ثم قال لجلسائه هذه ليلى التي مات توبة من حبها ثم قال انشدينا ما قال فيك ، فأنشدت حمامة بطن الواديين ، فقال وما قلت انت فيه فقالت كثيراً ايها الامير فقال هات فانشدت

نظرت ومن دوني عماية منكب ... وبطن الركايا نظرته النواظر
اونس ان لم يقصر الطرف دونهم ... فلم تقصر الاخبار والطرف قاصر

وهي قصيدة ترثيه فيها بكلام حسن غير ان فيها طولاً (ومن محاسنها في توبة)

أتته المنايا بين زعف حصينة ... واسمر خطى وجرداء ضامر
على كل جرداء السراة وسابح ... دوان بشباك الحديد زوافر
عوابس تغدو التغلبية ضمرا ... فهن سراح بالشكيم الشواجر
فلا يبعدنك الله يا توب انما ... لقاك المنايا دارعاً مثل حاسر
فان لم يكن بالقتل برّ فانكم ... ستثقون يوماً ورده غير صادر
فتى لا تخطاه الرفاق ولا يرى ... لقدر عيالاً دون جار مجرور
ولا تأخذ الابل المهاري رماحها ... لتوبة من صرف السري في الصنابر
اذا ما رأته قائماً بسلاحه ... نفته الخفاف بالثقال البهاذر
اذا لم يجز منها برسل فقصره ... ذرى المرهفات والقلاص التواجر
قرى سيفه منها مشاشاً وضيفه ... سنام المهاري السباط المشافر
وتوبة احيى من فتاة حيية ... واجرأ من ليث بخفان خادر
ونعم الفتى ان كان توبة فاجراً ... وفوق الفلى ان كان ليس بفاجر

فتى ينهل الحاجات ثم يعلهـا فتطلعه عنها ثنـايا المصادر
كأن فتى الفتيـان توبة لم ينخ قلائص يفحصن الحصى بالكراكر
ولم يثن ابراداً عتـاقاً لفتية كرام ورحل قيل في الهواجر
ولم ينجـل الضيفان عنه وبطنه خميص كطي السبت ليس بخادر
فتى كان للمـولى سناء ورفعة وللطارق الساري قرى غير فاتر

ومنها :

فأقسمت أبكي بعد توبة هالكاً وأحفل من نالت صروف المقادر
على مثل همـام وكابن مطرف تبكي البواكي أو كبشر بن عامر
غلامـان كانا استوردا كل سورة من المجد ثم استوثقا في المصادر
ربيعي حيـاً كانا يفيض نداهما على كل مغمور نـداء وغامر
كان سنـا نارها كل شتوة سنا البرق يبدو للعيون النواظر

ومن مراثيها فيه أيضاً

أيا عين بكى توبـة بن حمير بسح كفيض الجدول المتفجر
لتبكي عليه من خفاجة نسوة بمـاء شؤن العبرة المتحدر
سمعن بهيجا اضلمت فذكرنـه وما يبعث الأحزان مثل التذكر
كان فتى الفتيـان توبة لم يسر بنجـد ولم يطلع مع المتغـوّر
ولم يرد الماء السدام اذا بـدى سنا الصبح في بادي الحواشي منوّر
ولم يغل بالجود الجياد يقودهـا أسرتـه يوم المشـان فاقسر
ولم يغلب الخصم الصحـاح ويملأ الجفـان سديفاً يوم نكباء صرصر
وصحراء موماة يحاربها القطا قطعت على هول الجبان بمنسر
يقودون قبا كالسراحين لاحهـا سراهم وسير الراكب المتهجر
فلمـا بدت أولى العدوّ سقيتهـا بصياب مسكوب المزاد المقـير

ولمـا أهـابوا بالنهاب حويتهم بخاطي البضيع كره غير أعسر
بمـرّ ككرّ الاندري مثـابر اذا ما ونينا مخصف الشد محضر
وألوت بأعنـاق طوال وراعها صلاصل بيض سابغ ومسوّر
ألم تر أن العبد يقتل ربه فيظهر جدّ العبد من غير مظهر
قتلتم فتى لا يسقط الروع رمحه اذا الخيل جالت في القنا المتكسر
فيا توب للهيجا ويا توب للندى ويـا تـوب للمستنج المتنـوّر
ويا رب مكروب أجبت ونائل بذلت ومعروف لديك ومنكر

وأنشدته غير ذالك مما لا حاجة لنا الى ذكره ، إذ ليس على شريعتنـا فانعم عليها فوق ما سألت ، ثم قال لها هل بقي لـك حاجة قالت نعم تدفع إليّ النابغة أحكم فيه بما أرى ، وكان يتهاجى هو وإياها

فلما سمع بذلك هرب الى الشام فتبعته ، ثم استأذنت عبد الملك فيه فأذن لها وأظنه الذي سألها عن توبة أكان كما يقول الناس . فقالت يا أمير المؤمنين كان والله سبط البنان حديد السنان عفيف المئزر جميل المنظر لا معاوية كما قيل هنا ثم انها لم تزل في طلب النابغة حتى توفيت بقومس بلدة من أعمال بغداد على جانب الفرات ، وقيل بحلوان والمدى بينهما قريب ، وهذا يعارض ما سبق من موتها عند قبر توبة وظاهر تطار الروايات صحة الأول

ومنهم عامر بن سعيد بن راشد

وينسب الى كعب بن الأميل الطـــائي ، كان يهوى ابنة عمه جميلة بنت واثلة بن راشد

قال في النزهة ان ولادتها كانت في ليلة واحدة ونشآ غير متفرقين حين بلغا الحلم وقد اشتد كلف كل منهما بصاحبه وكان سعيد ذا ثروة وكان أخوه واثلة قد اتفق معه على تزويج ابنته من عامر فاتفق ان وقع بين تميم ومزينة

فانتهبت مزينة فلم يترك لسعيد ثنية ولا ناب ووقع فيه جراح كثيرة ، فمات أثر الوقعة بأيام وقد أملق أهله فامتنع واثلة من تزويج عامر وحجبت جميلة عنه فاختبل واعتوره الجنون وقال الشيزري لم يمنعه منها لاملاقه ، وإنما كان أبوه يمنعه عن أن يشيع عشقها

فلما مات أشاعه في العرب وشبب بها فامتنع عمه لما سبق لك بيانه من عادة العرب ولما اشتد به الحال أشار النساء على والدته ان تعرض عليه العذريات فكان كلما رأى واحدة يشكرها ثم يتنفس الصعداء ، ويقول ماء ولا كصداء المثل السابق فلما كان بعد مدة قدم رجل من طيء على واثلة فخطب جميلة منه وذكر النسب فزوجها منه ، فلما زفت اليه وقع عامر على الوساد فاعتزلت به أمه عن العرب لئلا يرى الزفاف

قال الأخفش سعيد بن مسعدة خرجت في طلب ضالة لي ، فوقفت على هذا البيت أو قال نزلنا على ماء لطيء فاذا أنا بخيمة منفردة فقصدتها ، وأخرج الحكاية في نديم المسامرة عن أبي عمرو بن العلاء عن تميمي ، فأسندها الى الأصمعي ، وأخرج الدقاق عن لاسدي ان المباشر للحكاية هو الأصمعي ، وعلى كلا التقديرين ، فمحل الاتفاق ان الرجل حين انتهى الى البيت رأى عجوزاً عليها بقية الجمال ساهية متفكرة ، وفي كسر البيت شخص كالخيال مسجى عليه قطيفة قال فسألتها عنه ، فقالت هو ولدي وشأنه كذا وأعادت القصة ثم قالت هل لك أن تعظه ، فوعظته وزهدته حتى قلت له انها امرأة كغيرها ألا ترى كيف يقول كثير

هل وصل عزة الا وصل غانية في وصل غانية من وصلها خلف

فقال هو مائق يعني أحمق ، وأنا وامق يعني صادق الألفة ، فلست كهو إنما أنا كأخي تميم يعني جميل حيث يقول

ألا لا يضير الحب ما كان ظاهراً ولكن ما أخفى الفؤاد يضير
ألا قاتل الله الهوى كيف قادني كما قيد مغلول اليدين أسير

ثم أنشد

ألا مـــا للملحة لا تعـــود   أبخـــل بالمليحـــة أم صدود
مرضت فعادني عوّاد قومي   فما لك لم ترى فيمن يعــود
فقدتك بينهم فبكيت شوقاً   وفقد الالف يا أملي شديد
فلو كنت المريضة لا تكوني   لعدتكم ولو كثر الوعيــــد
ولا استبطأت غيرك فاعلميه   وحولي من ذوي رحمي عديد

ثم فاضت نفسه فجزعت ، فقالت العجوز لا تخف فقد استراح مما كان فيه ولكن ان أحببت كمال الصنيعة فانعـه الى الأبيات ففعلت ، فخرجت جارية عليها أثر العرس وهي أجمل من رأيت فتخطت رقـــاب الناس حتى وقفت عليه فقبلته وأنشدت

عداني أن أزورك يا منـــايا   معاشر كلهم واش حســـود
أذاعوا ما علمت من الدواهي   وعابونا ومـــــا فيهم رشيد
فأما إذ حللت ببطن أرض   وقصر الناس كلهم اللحود
فــلا بقيت لي الدنيا فواقا   ولا لهم ولا أثري عديـــــد

ثم خرّت ميتة فخرج شيخ وهو يقول لئن لم أجمع بينكما حيين لأجمعن بينكما ميتين ودفنهما في قبر

هـــذا ما اتفق عليه سوى الوعظ فلم يرو عن الأخفش وبعض تغيير في الأبيات فان الأخفش لم يرو الثالث وروى التميي لم تعدني أي بدل لا تعود .

ومرضت فعادني أهلي جميعاً . وفي النزهة فما استبطأت غيرك وهوالأقمد وفي قولها عن التميمي   عداني أن أعودك يا حبيبي . معاشر فيهم وفيها انها قالت له حين نعى بفيك الحجر المصلت من تنعي . قلت فلاناً . قالت أو قد مات . قلت نعم   وعن الأصمعي انه حين سأله عن حاله لم ينطق فقال له من حوله أذكر له الشعر فأنشد

سبق القضاء بأنني لك عاشق حتى الممات وأين منك مذاهبي

فأنشد

أخلو بذكرك لا أريد محدثاً وكفى بذلك نعمة وسرورا
أبكي فيطربني البكاء وتارة يأتي فيأتي من أحب أسيرا
فاذا أتى سمج بفرقة بيننا أعقبت منه حسرة وزفيرا

وفيها قال انه عامر بن غالب وجميلة بنت أميل

ومنهم ما حكى الاصمعي

قال بينما أنا أسير إذ فاجأني الليل فأويت الى جبانة فتوسدت قبراً فاذا أنا بهاتف منه يقول

أنعم الله بالخيالين عينا وبمسراك يا سعاد الينا
وحشة ما لقيت من خلل القبر عسى ان نراك أو ان ترينا

فدخلت حين طلع الصبح الى الحي ، فاذا أنا بجنازة فتبعتها حتى جاؤا بها فدفنت الى جانب القبر الذي سمعت منه الصوت فحدثتهم بذلك فأخبروني ان هذا الرجل منهم أحب ابنة عمه هذه فتزوّج بها فلم تقم إلا قليلاً

فلما حضرته الوفاة تعاهدا على أن لا تتزوج بعده ، فاشتد بها الوجد حتى ماتت الليلة قلت وهذا جائز أن يقع من النفوس المجردة إذا تصادق اعتلاقها فان اللذات بعد مفارقه الهياكل الجسمانية أعظم .

ومنهم فتى أسدي

أحب ابنة عمه وكان اسمها سعدى فمنعه أبوه أن يتزوج إلا بأرفع منها ،

وأبى الغلام إلا هي ، فلما أيس أبوها زوّجها من رجل ، فاشتد وجد الغلام وانه لقيها يوماً فأنشد :

لعمري يا سعدى لطال تأيمي ومعصيتي شيخي فيك كلاهما
وتركي للحيين لم أبغ منهما سواك ولم يربع هواي عليهما

فقالت الجارية:

حبيبي لا تعجل لتفهم حجتي كفاني ما بي من بلاء ومن جهد
ومن عــبرات تعتريني وزفرة تكاد لها نفسي تسيل من الوجد
غلبت على نفسي جهاراً ولم أطق خلافاً على أهلي بهزل ولا جد
ولن يمنعوني ان أموت بزعمهم غداخوف هذا العارفي جدث وحدي
فلا تنس ان تأتي هناك فتلتمس مكاني فتشكو ما تحملت من جهد

فقد أوضحت له انها هالكة من الغد بعشقه فلما كان الموعد جــاء فوجدها ميتة فاحتملها الى شعب بذرى جبل يقال له عرفات بفتح المهملة ، وضمها ملتزماً لها ، فمات واختفى أمرهـا حولاً حتى مرّ شخص من العرب فسمع هاتفاً على الجبل يقول

انا الكريمان ذو التصــافي الذاهبان بالوفاء الصــافي
والله ما لقيت في تطوافي أبعد من غدر ومن اخلاف
من مبتين في ذرى اعراف

فصعد الناس فوجدوهما على تلك الحالة فواروهما

ومنهم عمرو بن كعب بن النعمان ابن المنذر بن ماء السماء ملك العرب المشهور

قال ابن عساكر وكان من فرسان العرب وحماتها وكرمائها وشجعانها ، وان جده النعمان صاحب الخورنق هو الذي كفله حين مات أبوه وهو صغير فلما زهد النعمان في الملك كما هو مشهور، ضاع أمر الغلام . قال في الشامات فأخذه عمه أبو النجاد ، فلما بلغ عنده وكان له بنت تعرف بالعقيلة ، وهي من أجمل نساء العرب وأعلمهن بالأدب وأحوال العرب أياماً ووقائع، فعلقت نفس عمرو بها واشتد ولوعه وزاد غرامه ، خطبها الى عمه فطلب منه مهراً يعجز عنه ، فأشار عليه بعض أصحابه بالخروج الى ابرويز بن كسرى ، لما كان بين جدودهما من الوصلة

فلما ذهب في الطريق مرّ بعرّاف ، فبات عنده فاستعلم منه الأمر ، فأخبره انه ساع فيما لا يدرك ، فعاد فوجد عمه قد زوّج العقيلة لفزاري ، فهام على وجهه الى اليمامة ، فلما بنى بها الفزاري وكان عندها من العشق لعمرو أضعاف ما عنده لها فكانت تشد الفزاري إذا جن الليل الى كسر البيت وتبيت في الخدر ، فاذا أصبح الصبح تطلقه فيستحي أن يخبر العرب بذلك ، فأقام على هذا الحال سبعين ليلة

فلما كثر توبيخ العرب له واختلاف ظنونهم به ، خرج لا يدري أين ذهب ، وأقامت العقيلة ببيت أبيها لا تتناول الا الأقل مما يمسك الرمق ودأبها البكاء على عمرو وهو كذلك ولم يمكنهما الاجتماع قال الفريابي في عجيب الانفاق في تطابق أحوال القامة فمرض عمرو مرضاً كاد أن يأتي على نفسه فكان لا يرى الا شاخصاً الى السماء متمسكاً بسبب قد علقه بيديه من العشاء الى الصباح وهو ينشد :

إذا جن ليلى فاضت العين أدمعا على الخد كالغدران أو كالسحائب
أودّ طلوع الفجر والليل قائل لقد شدت الأفلاك بعد الكواكب
فما أسفي الا على ذوب مهجتي ولم أدر يوماً كيف حال الحبائب

فلما كان بعد أيام دخل عليه صديقه فوجده غاصاً بالضحك مستبشراً ، فسأله فقال

لقد حدثتني النفس ان سوف نلتقي ويبدل بعد بيننا بتداني
فقد آن للدهر الخؤون بانه لتأليف ما قد كان يلتئمان

ثم شهق شهقة فاضت نفسه فيها ، قال الفريابي فضبط اليوم الذي مات فيه فوجد موت عقيلة في ذلك اليوم ايضاً .

وأخرج المصنف عن ابن دريد عن الفرزدق ، قال خرجت في طلب غلام آبق ، فلما صرت على ماء لبني حنيفة جاءت السماء بالأمطار فلجأت إلى بيت من جريد النخل فيه جارية سوداء ، فأنزلتني فلم ألبث الا ريثما أخذت الراحة وقد دخلت لي جارية كأنها القمر ، فحييت ثم قالت ممن الرجل قلت تميمي قالت من أيها قبيلة ، قلت من نهشل بن غالب ، فقالت اذاً أنتم الذين يقول فيكم الفرزدق :

ان الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
بيتاً زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

قلت نعم ، قالت قد هدمه جرير بقوله

أخزى الذين سمك السماء مجاشعاً وأحل بيتك بالحضيض الأوهد

قال فأعجبتني فلما رأت ذلك في عيني قالت أين تؤم قلت اليمامة فتنفست الصعداء ثم قالت

تذكرت اليمامة ان ذكرى بها أهل المروءة والكرامه

الا فسقي المليك أجش جونا تجود بصحة تلك اليمامه
أحيى بالسلام أبا نجيـــد فأهـــل للتحية والسلامه

قال فانست بها فقلت اذات خدر أم ذات بعل فقالت

إذا رقد النيام نان عمراً تؤرقه الهموم على الصباح
تقطع قلبـــه الذكرى وقلبي فلا هو بالخـلي ولا بصاح
سقى الله اليمامـــة دار قوم بها عمرو يحن الى الرواح

فقلت لها من عمرو فانشدت

إذا رقد النيام فان عمراً هو القمر المنير المستنير
وما لي في التبعل من براح وان ردّ التبعل لي أسير

ثم سكتت كانها تسمع كلاماً ثم أنشأت تقول

يخيل لي أبا كعب بن عمرو بانك قد حملت على سرير
فان يك هكذا يا عمرواني مبكرة عليك الى القبور

ثم شهقت شهقة فماتت

ومنهم ما حكاه الاصمعي

وقد قال له الرشيد حدثني باعجب ما رأيت قال أخبرني السميدع بن عمرو الكلابي وقد جاوز المائة قال كنت كثير الأسفار فمررت قاصداً اليمامة ببيت يلوح ، وقد قرب الليل فاردت المبيت عنده ، فقالت لي امرأة منه أضيف أنت ، قلت نعم فقالت على الرحب والسعة ، ولكن تنحى حتى ياتي رب المنزل فعدلت الى طوى هناك فسقيت ناقتي وجلست واذا بسوداء

تحمل جفنة تريد معها تمر ورطب ، فقالت تعلل بهذا فقلت في دونه كفاية فاكلت وأخرجت دقيقاً فأطعمت ناقتي وتوسدت ذراعها واذا بقيم قد حال بيني وبين البيت ، ثم غفت عيني فلم أفق إلا وشاب على أحسن ما يكون ، ومعه عبيد قد أقبلوا بحطب ونار فأضرموها وجاؤا بكبش فذبح وكشط وطبخوا وثردوا وقدَّم الينا فأكلنا ، ثم قال لي كن هنا حتى آتيك الصباح فلما أشرف الصبح جاء ففعل كما فعل ليلته فلما أكلنا قال لم أقض حقك فأقم عندي يومك .

فقلت سمعاً وطاعة ، فركب ومكثت ساعة وإذا الجارية تقول لي أجب ابنة عمك ، فقلت كيف أكلمها وقيمها غائب قالت من وراء حجاب فأقبلت فسلمت ، فقالت يا ابن العم أتريد اليمامة ، قلت نعم قالت فاحفظ عني هذه الرسالة وأعد إليّ جوابها ، وأنشدت

أعلى العهد مالك بن سنان ... أم سقاه أفاوق الغدر ساق
ان يكن خان أو تناءى فإني ... لعلى العهد ما استناع رماقي
ما ألم الرقاد مذ بنت إلا ... بجفون قريحة الآماق
فعليك السلام ما لألأ النور ومـا دب في الثرى عرق ساق

ثم قالت ليكن انشادك الأبيات بالحضرمة ، فلما خرجت في اليوم الثاني خرج الشاب فقال يا ابن عمي هل أنت مبلغ عني رسالة وعائد إليّ بجوابها ؟ قلت نعم فقال قف بقرّان بني سحيم وانشد

أيا سر حتى قرّان بالله خبرا ... عن البكره العيساء كيف نزاعها
فلو ان فيها مطمعاً لمتيم ... نأت دارها عنه وخيف امتناعها
لهان عليه جوب كل تنوفة ... يخاف عليه جورها وضياعها
تغرّبت عن نفسي وأيقنت انها ... تريد وداعاً يوم جدّ وداعها

فلما دخلت اليمامة وقفت حيث وصف وأنشدت الأبيات ، وإذا بجارية حاسرة كأنها مهرة تنشد

تحمل هـداك الله مني تحية   اليه جديد كل يوم سماعهـــا
وخبر عن العيساء ان قد توحمت عليها مراعيها وطال نزاعها
لقد قطع البين المشتت ألفة   عزيز علينا ان يحم انقطاعها

ثم شهقت شهقة فماتت ، فلما أردت الانصراف وقفت بالحضرمة وأنشدت أبيات المرأة فأجابني فتى

لم يحل عن وفائه ابن سنان   لا ولا غاله انتشاء الفراق
ان بين الحشا لهيب اشتياق   ليس يطفي جواه إلا التلاقي
إنما أبقت الهمـــوم خيالاً   باليـــاً ممسكاً بماء الرماق

ثم شهق شهقة فمات ، فلما رجعت الى الحي أخبرت المرأة بجوابها فشهقت شهقة فارقت نفسها ، وعلت الأصوات فأقبل الشاب فقـــال لي ما شأنها ؟ فأعلمته الخبر ثم أنشدته جواب أبياته ، فقال فها أنا أيضاً ميت فاضطجع فكأنما كانت نفسه بيده .

وهذه الحكاية أخرجها في نديم المسامرة والشهاب في منازل الأحباب والحافظ مغلطاي في الواضح وأمثـــال هذه عندهم يعرف بالعشق المسلسل ونظيره مـــا حكاه الشيزري عن العتبي قال تذاكرنا العشق يوماً وبيننا شيخ ساكت فقلنا له ألا تحدثنا بما عندك في هذا ، فقال جلسنا يوماً للشرب ومعنا قينة فغنت

علامـــة ذل الهوى   على العاشقين البكا
ولا سيما عـــاشق   إذا لم يجد مشتكى

فقال شاب كان في المجلس أحسنت والله يا سيدتي ، أتأذني لي أن أموت فقالت مت راشداً ان كنت عاشقاً ، وكان يهوى القينة فاضطجع فاذا هو ميت فتنغص مجلسنا ، ثم دخلت الى أهلي فأخبرتهم بالقصة ، وكان لي ابنـة تهوى الشاب ونحن لا ندري   فلما سمعت الخبر قامت الى خـلوة وأنكرت

قيامها ، فدخلت اليهـــا فاذا هي متوسدة كما وصفت لها الشاب ميتة ، فلما خرجنا بجنازتها وبالشاب وجدنا جنازة ثالثة واذا هي القينة ماتت حين بلغها موت ابنتي لأنها كانت تهواها .

ومنهم ما أخرج الحافظ عن ابن دريد عن عبيد النعالي غلام أبي الهذيل

قال رجعت من تشييع جنازة وقد اشتدت الهاجرة فملت الى ظل أتفيأ به ، فسمعت صوتاً مطرباً فطرقت الباب أستسقي المـاء ، فخرج شاب على أحسن صورة غير ان العلة لم تبق الا رسمه فأدخلني الى موضع أنيق بالفرش، وجاءت جارية فغسلت رجليّ ثم بعد يسير جاءت بالطست فقلت قد غسلت قالت نعم ، ولكن اغسل يديك للغـــداء ، فغسلت وجاءوا بطعام فأقبل يضاحكني ويأكل متغصصاً والعبرة تخنقه ، ثم جاء بشراب فسقاني وشرب ، ثم قال قم بنا الى نديم إليّ ، فدخلت معه الى بيت لطيف فيه قبر قد صب حوله الرمل ، فجلسنا فشرب وسقاني ثم أنشد يقول

أطأ التراب وأنت رهن حفيرة ... هالت يداي على صداك ترابهـــا
اني لا غدر من مشى ان لم أطأ ... جفون عيني مـا حييت جنابها
لو أن حشو جـــوانحي متلبس ... بالنار اطفأ حرها واذابهـــا

ثم أكب على القبر مغشياً عليه ، فجاءه خادم فرش عليه الماء فأفاق ، وسقاني وأنشد

اليوم ثاب لي السرور لانني ... أيقنت اني عاجلاً بك لاحق
فغدا أقاسمك البلا ويسوقني ... طوعاً اليك من المنية سائق

ثم قال قد وجب عليك حقي ، فاحضر غدا جنازتي فدعوت له بطول البقاء وانصرفت فقال عققتني ان لم تقل

جاور خليلك مسعداً في رمسه كيما ينالك في البلا ما ناله

فانصرفت عنه فلم أعرف نوماً حتى أصبحت فأتيته فاذا هو قد مات ، فدفن الى جانبها قلت نقل في عجيب الاتفاق وليس من شأنه هذا ان هذا الشاب كان يهوى ابنة عمه ومنع عنها زماناً ، ثم مات أبوها فتزوج بها فأقام معها ثلاث ليال ثم حمت ساعة من نهار فجلس وأخذ رأسها على ركبته ، فشربت الماء فشهقت وماتت فدفنها في بيته ، وأقام يبكي وقد هجر الطعام والشراب واللبس والنوم ، فكانت مدته الى أن لحق بها ثلاثة عشر يوماً

وأيضاً من نظير المسلسل ما روي عن يونس النحوي ، قال نزلت بصديق لي ببادية يقال له مالك العذري فاذا نحن بامرأة تقول قد تكلم فاستبشر النساء بذلك ، فسألت صديقي عن الخبر ، فقال رجل منا أحب ابنة عمه وتزوجها رجل وحملها الى الحجاز فصار ملقى على فراشه من نحول لا ينطق ، فقلت أحب أن أنظره فقمنا حتى وقفنا عليه ، فقالت أمه يا ولدي هذا عمك مالك ففتح عينيه وأنشد

ليبكني اليوم أهل الود والشفق لم يبق من مهجتي الا شفا رمق
اليوم آخر عهد بالحياة فقد أطلقت من ربقة الأحزان والقلق

ثم تنفس فاذا هو ميت فقمنا عنه ، فلما رجعنا اذا نحن بشابة بيضاء ناعمة الشباب تبكي بحرقة وجزع فسألناها عن السبب فأنشدت

اليوم أبكي لصب شف مهجته طول السقام وأضنى جسمه الكمد
يا ليت من خلف القلب المقيم به عندي فأشكو اليه بعض ما أجد
انشر تربك أسرى لي النسيم به أم أنت حيث يناط السحر والكبد

ثم شهقت شهقة وماتت ، فاذا هي تهوى الشاب قلت قـــال في النزهة عن الرياشي عن يونس هذا ، قال اجتمعت بصديق بعد ذلك اليوم ، بمدة لا تزيد عن شهرين .

فقال لي أتعرف الشاب الذي مات يوم كذا . قلت نعم ، قال قدم علينا الحجازي زوج ابنه عمه فاخبر ان المرأة من لدن حملها لم تنفك عن المرض ، حتى قضيت يوم كذا فاذا هو اليوم الذي مات فيه الشاب

ومنهم ما حكاه الكاتب

قال ، كنا في منتزه وقد أقبل ابن عائشة يسوس غلاماً لا يستطيع أن يملك نفسه ، فسألناه عن أمره فقال من العشق ، فتذاكرنا أخبار العشاق فقلت ألا أحدثكم بأعجب من هذا ، قالوا هات قلت أخبرني بعض العرب . قال مررنا بماء وعليه صبية يتغاطسون وقريب منهم شاب عليه أثر الجمال ، إلا أنه كالمنتحل من علة ، فسلمت عليه فقال مما الراكب قلت من الحمى ، فقال من كم عهدك به قلت قريباً فتنفس الصعداء وأنشد:

سقى بلداً أمست سليمى تحله   من المزن ما يروي به ويشيم
وان لم أكن من قاطنيه فانه   يحل به شخص عليّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه   لديّ وان شط المزار نعيم
ومن لا منى فيه حبيب وصاحت فردّ   بغيظ صاحب وحميم

ثم أغشي عليه فصببا عليه الماء فأفاق ثم أنشد

اذا الصب الغريت رأى خضوعي   وأنفاسي تزين بالخشوع
ولي عين أضر بها التفاني   الى الأجزاع مطلقة الدموع
الى الخلوات يأنس فيك قلبي   كما أنس الغريب الى الجميع

فقلت له ان كان لك حاجة فيها شفاء نفسك فمرني بها فاني مطيع فقال أعلم انك محل ولكن لم تدرك مني إلا صبابة لا تتلافى ففارقته فبلغني انه لم يبت تلك الليلة

ومنهم ما حكاه في منازل الاحباب

قال ، كان في بني عذرة فتى ظريف يهوى محادثة النساء ، فعلق جارية فأضنته حتى لزم الوساد وسئلت في أمره فامتنعت حتى اذا بلــــغ الموت ، جاءته فحين رآها أنشد

أريتك ان مرّت عليك جنازتي تمر على أيــــدي طوال وشرّع
أما تتبعين النعش حتى تسلمي على رمس ميت في الحفيرة مودع

فحلفت انها لم تعلم انه بلغ به الحب الى هذا الحال وأخذت تستعطفه ، فتمثل بقول بشر بن حضرم الكلاعي

أتت وحيــــاض الموت بيني وبينهـــا
وجادت بوصل حــــين لا ينفع الوصل

ثم أغشي عليه وانكبت تقبله ، فاذا هو ميت فلم تمكث بعده إلا قليلاً .

ومنهم ما حكاه ابن الجوزي

ان رجلاً علق جارية نصرانية وأخذ هواها منه حتى أزال عقله فحمل الى البيمارستان فأقام به مـــدة ، وكان له صديق يتعاهده فقال له يوماً وقد أشرف على التلف قد أيست من ملاقاة فلانة في الدنيا ، وأخاف أن لا القاها في الآخرة ان مت مسلماً ثم تنصر ومات فخرج من عنده فوجدها عليلة ، وهي تقول قد أيست من فلان في الدنيـــا فأنا أسلم لألقاه في الآخرة ، ثم أسلمت وماتت

ومنهم الحرث المشهور بابن الفرند من خزاعة

وقال في الشامل انه من قحطان نشأ وابنة عمه عفراء بنت الأحمر ممتزجين بالألفة الى أن بلغا فتزوّج بها فأقاما مدة ينمو الهـوى بينهما الى أن عزمت يوماً على أن تزور أباها فجهزها اليه فأقامت مدة وكل منهما يأبى أن يجيء بنفسه ، وزادت الوحشة بينهما وحلف أبواهمـــا على أن يأتي أحدهما الآخر مخافة ان تزري العرب به فمرض الحرث فكتب اليها:

صبرت على كتمان حبك برهة ولي منك في الأحشاء أصدق شاهد
هو الموت ان لم تأتني منك رقعة تقـــوم لقلبي في مقام العوائد

فأجابته

كفيت الذي تخشى وصرت الى المنى   ونلت الذي تهوى برغم الحواسد
ووالله لولا ان يقـال تظننـاً   بي السوء ما جانبت فعل العوائد

فلما قرأ ما في الرقعة وانتشق ريحها وكانت أعطر زمانها غشي عليه فاذا هو ميت فقيل لها ما كان عليك لو أحييته بزورة ، قالت خشيت ان يقال صبت اليه ولكني قاتلة نفسي عن قريب فلم يشعر بها الا وهي ميتة.

ومنهم عياش الكناني

قال هشام خرجنا في حاجة وهو معنا فمررنا ببني حنيفة فرأى جارية منهم فوقعت من قلبه موقعاً عظيماً فتخلف عنـا ، وراسلها فابت وكان لا يخطىء سهمه اذا رمى فسحب قوساً ، وأقبل في الليل وهي نائمة بين أخواتها فأيقظها ، فلما شعرت به قالت لئن لم تذهب لأوقظنهم فيقتلونك فحلف ان أعطته يدها يضعها على فؤاده تسكيناً لما به ، لينصرف ففعلت فانصرف

فلما كان من قابل أتى وفعل كفعلته ، فقالت له كالأول فحلف ان أمكنته من رشفة مضى ففعلت وشعر به الحي فتبعوه ، فخرج على جبل واعقب الوقت سماء ، فرجع النساء وأخذ الجارية من الوجد أضعاف مـا عنده ، فخرجت مع جارية من الحى وقد زهر القمر فرآها على بعد ، وقد أسبلت شعرها من الندى فحسبها بعض من يطلبه فرماها بسهم فلم يخط قلبها ونزل فوجدها تتخبط بدمها وقد أشرفت على الهلاك فقتل نفسه

ومنهم ما رواه اعرابي او هو جبلة بن الاسود

قال خرجت في طلب ضالة لي فوقعت على راع عنده غنم يرعاها ، وقد اتخذ بيتاً في كهف هناك ، فسألته القرى فرحب بي وانزلني ، ثم جاء بشاة فذبحها وجعل يشوي ويقدم إلي ويحادثني حتى اكتفيت

فلما جن الليل اذا بفتاة كأحسن ما يكون من النساء قد أقبلت اليه ، فجلسا يتحادثان حتى طلع الفجر فمضت وسألته الذهاب فأبى ، وقال الضيافة ثلاث فأقمت ، فلما جاء الليل رأيته يقوم ويقعد متضجراً ثم أنشد

ما بال مية لا تأتي كعادتها   أعاجها طرب أم صدها شغل

لكنّ قلبي عنكم ليس يشغله   حتى الممات وما لي غيركم أمل

لو تعلمين الذي بي من فراقكم   لما اعتذرت ولا طابت لك العلل

نفسي فداؤك قد أحللت بي سقماً   تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل

لو أنّ غادية منه على جبل   لما دوا نهد من أركانه الجبل

فسألته عن شأنه فقال هذه ابنة عمي وأنا أحبها فخطبتها من عمي فأبى عليّ لفقري وزوّجها من رجل وقد حملها الى هذا الحي فخرجت عن مالي ، وعملت راعياً لهم ، فهي تأتيني على غفلة من زوجها ، فأنظر اليها ونتحادث ليس غيره ، والآن قد قلقت لفوات ميعادها ، وفي الطريق أسد قد كسر وأخاف أن يكون أصابها ، فعلى رسلك حتى أعود وأخذ السيف ومضى قليلاً ثم عاد يحملها وقد أصابها الأسد فطرحها ثم غاب ورجع يجر الأسد

مقتولاً ، فطرحه وانكبّ يقبلها ويبكي ، ثم قال لي أسألك بالذمة الا ما دفنتني وإياها في هذا الثوب

وكتبت على القبر هذا الشعر فاني لا بقاء لي بعدها ، ثم انكب عليها ، فاذا هو ميت ، وقيل انكبّ على السيف فخرج من ظهره وفي رواية ونمنا الى الصباح فوجدته ميتاً فلففتها ودفنتها وكتبت على القبر الشعر الذيأوصى به وهو

كنا على ظهرها والدهر في مهل والعيش يجمعنا والدار والوطن

ففرّق الدهر بالتصريف الفتنا فاليوم يجمعنا في بطنها الكفن

ثم فرقت الغنم ومضيت الى عمه فأخبرته بذلك فكاد أن يقضي أسفاً ، على عدم الجمع بينهما .

ومنهم كامل بن الرضين

وكان يحب ابنة عم له يقال لها أسماء ، فافتتن بها حتى أنحله السقم ولزم الوساد فسأل أبوه أباها أن يزوّجها منه فقال له أحمله إليّ لأزوّجه بها ففعل، فلما علم بذلك قال أو انا بموضع تسمعني به قالوا نعم فشهق شهقة فمات ، فقالت قد كنت قادرة على زيارته فتركتها خوف الريبة فلأتبعنه ، ثم مرضت فقالت لأخص نسائها صوّري لي صورته ففعلت ، فلما اعتنقتها فارقت نفسها فدفنت الى جانبه وكتب على قبريهما

بنفسي من لم يمتعا بهواها على الدهر حتى غيبا في المقابر

أقاما على غير التزاور برهة فلما أصيب قرّبا بالتزاور

فيا حسنقبر زار قبراً يحبه ويا زورة جاءت بريب المقادر

ومنهم مرة النهدي

وكان قد شغف بابنة عمه ليلى ، وكانت أوحد نساء زمانها حسناً ، فكتم حبه لها حتى تزوجها ، فأقاما مدة لا يزداد حالهما الا شغفاً الى ان أمره الخليفة بالتجهيز الى غزو خرسان فشكا اليها عدم القدرة على فراقها ، فقالت اصنع ما شئت ، فحملها معه حتى أودعها عند صاحب له ، وتعجل الغزو .

فلما رجع كره أن يدخل ابتداء ، فجلس بازاء القصر ، فخرجت جارية فسألها ما صنعت المرأة التي خلفتها عندكم ، قالت ذاك القبر الجديد قبرها فتردد حتى خرجت أخرى فأخبرته مثل ذلك ، فمضى الى القبر فجعل يتمرغ عليه ويبكي ، ثم أنشد

أيا قبر ليلى لو شهدناك أعولت عليها نساء من فصاح ومن عجم

ويا قبر ليلى ما تضمنت قبلها شبيهاً لليلى في عفاف وفي كرم

ويا قبر ليلى أكرمنّ محلها يكن لك ما عشنا علينا بها نعم

ويا قبر ليلى انّ ليلى غريبة براذن لم يشهدك خال به وعمّ

ولم يزل كذلك حتى مات ودفن الى جانبها

ومنهم رجل من ولد عبد الرحمن بن عوف

تزوّج ابنة عمه ، فشغف بها حتى لم يستطع فراقها فنفد ما معه ، وضاق حاله ، ولم يكتسب شيئاً يقتات به ، فقالت له يوماً لو خرجت الى هشام بن عبد الملك فسألته شيئاً لما منعك ، فجهز نفسه ، فلما صار قرب الرصافة أغمي عليه ساعة ، ثم أفاق وأنشد:

بينما نحن بالبلاكث بالقـــا ع سراعاً والعيس تهوى هويا
خطرت خطرة على القلب من ذكراك وهنا فما استطعت مضيا
قلت لبيك إذ دعاني لك الشو ق وللحـــادين ردّ المطيا
فكررنا صدور عيس عتاق مضمرات طوين بالسير طيا
ذاك مما لقين من دلج السير وقول الحـــداة بالليـــل هيا

ثم قال للجمال ارجع ، قال يا سبحان الله قد وصلت الى الرصافة فاقسم لا يخطى الا راجعاً ، فلما عاد صادفه رجل من بني عمه فأخبره انّ زوجته قد ماتت فلم يسمع منه إلا شهقة وفارقته نفسه.

فصل فيمن أناخ به الحب ثقله حتـــى اذهـــب عقـــله

وهؤلاء المعروفون عند أهل القوانين بعقلاء المجانين ، وقد أفردوا كثيراً بالتأليف وجعلتهم من المجاهيل لاشتباههم بهم فيما قدّمت من الشروط .

فمنهم ما أخرجه مغلطاي عن الاديب

قال عشق فتى عندنا جارية ، فلم يزل يزداد ولهه بها حتى ذهب عقله ، فكان آونة يسكن الى الناس وأخرى يسكن الخربات ويتوحش ، فمررت به يوماً في خربة يثير التراب على وجهه ، فسألته عن حاله فأنشد

يتمني حبهـــا وأضنـــاني   وفي بحار الهموم القـــاني
كيف احتيالي وليس لي جلد   في دفع ما بي وكشف أحزاني
يا رب اعطف بقلبها فعسى   ترحم ضعفي وطول أشجاني

ففارقته ومضيت ، فلما كان بعد مدة إذا أنا به يتمرغ على الأرض ، فلما أبصرني قال يا عم أنا الليلة ميت ، فدعوت له ومضيت ، فلـــا أصبحت غدوت عليه فاذا هو قد قبض .

ومنهم ما ذكره ابن المرزبان في النهول والنحول

عن سعيد بن ميسرة

قال صحبنا شاب فكان لا يلهج إلا بهذه الأبيات

الا انما التقوى ركائب ادلجت   وادركت الساري بليل فلم ينم
وفي صحبة التقوى غناء وثروة   وفي صحبة الأهواء ذل مع العدم
فلا تصحب الأهواء واهجر محبها   وكن للتقي الفاتكن في الهوى علم

فسألناه لمن الأبيات قـــال لأخ لي كنت أحبه شديداً ولم أر أمزح منه مع التقوى ، فسألته الدنيا تلهج بهذه أم لأخرى ، فقـــال لأمر لا أخبرك به حتى ينفذ من يدي .

ودام على ذلك حتى لزم الفراش فكانت الأطباء تختلف اليه ولم تؤثر معه شيئاً وكان يصرخ الليل كله فأجمعنا على أن ندعه وشأنه ، فكان يجلس نهاره على الباب ، وكلما مرّ به شخص يسأله الى أين يذهب فيقول الى موضع كذا فيقول لو مررت على من نريد لحملناك حاجة ، فقال له صاحب له أنا مـــارّ حيث تريد فقال

تقرأ السلام على الحبيب تحية   وتبثه بتطـــاول الأسقـام
وتفيده انّ الفتى ذم الهوى   لما غـــدا مستغولاً بزمـــام

قال نعم ، فما كان بأسرع من أن رجع ، فقـــال بلغتهم رسالتك فقـــالوا

لئن كان تقوى الله ذمتك أن تنل   أمور أنهى عنهـــا بنهي حرام
فزرنا لنقضي من حديث لبانة   ونشفي نفوساً آذنت بسقـــام

قال فوثب قائماً ثم أنشد يقول :

سأقبل من هذا وفي لذي الهوى   شفاء وقد يسلو الفتى جد وامق
إذا اليأس حل القلب لم ينفع البكى   وهل ينفع المعشوق دمعة عاشق

قال ومضى ، فقمت خلفه وحدي حتى أتى منزل رجل من أهل الفضل والرأي والدين ، وكانت له ابنة من أجمل النساء ، فوقف على الباب وقال

فها أنا قد جئت أشكو صبابتي   وأخبركم عما لقيت من الحب
وأظهر تسليماً عليكم لتعلمـوا   بأنّ وصولي ثم ذا منكم حسبي

قال فلما فهمت القصة وخشيت أن يظهر أمره قلت له مـا جلوسك على

باب القوم ولم يأذنوا لك ، قال بلى قلت كيف وهم يقولون

بالله ربك لا تمر ببابنا　　أنا نخاف مقالة الحساد

فقال يا صالح أقد قالوا هذا ؟ قلت نعم ، فجعل يهذي ويقول

ان كان قد كرهو زيارة عاشق　　فلرب معشوق يزور العاشقا

ثم رجع فلزم الوساد حتى مات .

ومنهم ما حكاه الوراق عن الصوفي

قال حدثني صديق لي ، قال دخلت البيمارستان ببغداد ، فرأيت شاباً نظيف الثياب قد شد الى سارية ووراءه وسادة وبيده مروحة، فسلمت عليه وقلت له ماذا تريد ، فقال قرصين وفالوذج فاحضرتها فلما فرغ قلت له هل تطلب غير هذا ؟ قال وما أظنك تقدر عليه قلت اذكره ، فلعل الله أن يساعدني عليه　فقال تمضي الى زقاق الغفلة فتقف بباب كذا وتقول مجنونكم من ذا أنحله فمضيت وفعلت ما قال ، فخرجت إليّ عجوز فقالت قل له عليلكم من ذا أعله ، فرجعت اليه وأخبرته بذلك فشهق شهقة فمات فرجعت الى الباب فوجدت الصراخ وقد ماتت الجارية .

ومنهم ما حكاه السامري

قال مررت أنا وصديق لي بدير هرقل ، فقال هل لك أن تدخل فتنظر الى ما فيه من ملاح المجانين ، فدخلنا واذا بشاب نظيف الثياب حسن الهيئة جميل المنظر ، فحين بصر بنا قال مرحباً بالوفد قرب الله بكم بابي ، من أين أقبلتم ؟ فقلنا جعلنا فداءك ومتسع الله بك أقبلنا من كذا ، ثم قلنا له ما

أجلسك ههنا وأنت لغير هذا المكان أهل وهو لغيرك محل ، فتنفس الصعداء وهو مشدود الى الجدار في سلسلة وصوّب طرفه الينا وأنشد

الله يعلم انني كمد لا أستطيع أبث ما أجد
روحان لي روح تضمنها بلد وأخرى حازها بلد
أما المقيمة ليس ينفعها صبر وليس يقرها جلد
وأظن غائبتي كشاهدتي بمكانها تجد الذي أجد

قلت وسيأتي منه انه ينسب هذا الشعر لخالد الكاتب ولا يمكن أن يقال ان هذا المحكى عنه هو لأن خالداً لم يحبس وإنما كان سائحاً ، كما سيأتي فلم يبق الا استعارة أحدهما من الآخر قال الراوي ، ولما فرغ من شعره التفت الينا فقال هل أحسنت فقلنا نعم ثم ولينا ، فقال بابي ما أسرع ذهابكما أعيراني سمعكما فعدنا اليه فأنشد

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهم ورحلوها وسارت بالهوى الابل
وقلبت من خلال السجف ناظرها ترنو إليّ ودمع العين منهمل
فودعت ببنان عقدها عنم ناديت لا حملت رجلاك يا جمل
ويلي من البين ماذا حلّ بي وبها يا نازح الدار حلّ البين وارتحلوا
يا حادي العيس عرج كي أودعها يا حادي العيس في ترحالك الأجل
إني على العهد لم أنقض مودتهم فليت شعري وطال العهد ما فعلوا

فقلنا له مجوناً لننظر ما يفعل ماتوا فقال أقسمت عليكم ماتوا ، قلنا نعم فجذب نفسه في السلسلة جذبة دلع منها لسانه وبرزت عيناه وانبعث الدم من شفتيه وشهق فاذا هو ميت فما ندمنا على شيء أعظم منه.

وحكاها المبرد كما هي وزاد ، ان قال فوجدنا في الدير مجانين ليس فيهم أنظف من شاب عليه بقايا ثياب ناعمة فدنونا منه فقال انشدوني شيئاً من الشعر أو أنا أنشدكم فقلنا له أنشد ، فانشد الشعرين فلما قال ما فعلوا قال رجل

بغيض معنا ماتوا فقال وأنا أيضاً أموت فقال له افعل ما شئت فتجذّب حتى مات وأخرج الزجاج في آماليه ، عن المبرد الحكاية أيضاً لكنه قال فقـال لنا انشدوني فقلت لرفيقي أنشده فأنشد

قبلت فاهـا على خوف مخالسة   كقابس النـار لم يشعر من العجل
ماذا على رصد في الدار لو غفلوا   عني فقبلتهـا عشراً على مهل
غضي جفونك عني وانظري أمما   فانمـا افتضح العشاق بالمقـل

فقال أنا وهذا القائل على طرفي نقيض فانــه يرى محبوبه وأنا مقصي ، فقلنا له أنت عاشق قال نعم قلنا لمن قال أنت سؤل ، قلت محسن ان أخبرت قال عقد لي أبي على ابنـة عم لي ثم توفي وترك مالاً كثيراً فاستولى عمي على المال ونسبوني الى الجنون

قال المبرد هذا كله والقيم يقول احذروه فانه يتغير ثم التفت إليّ فقال : أنشدني أنت فانك من أهل الأدب فلم يحضرني الا قول الشاعر

قال سكينة والدموع زوارف   تجري على الخدين والجلباب
ليت المغـيري بالذي لم أجزه   فيما أطال تبصري وطلابي
كادت تردّ لنـا المنى أيامه   إذ لا ألام على هوى وتصابي
خبرت ما قالت فقلت كأنما   ترمي الحشا بصوائب النشاب
اسكين ما ماء الفرات وطيبه   مني على ظما وحب شراب
بالذمنك وان نأيت وقلمـا   يرعى النساء أمانة الغياب

ومنهم ما حكاه الاسدي عن أبيه

قال دخلت دير هرقل فوجدت شاباً حسن الهيئة مكبلاً بالحديد فقلت له من الذي أوجب لك هذه الحالة فأنشد

نظرت اليها فاستحلت بنظرتي دمي ودمي غال فارخصه الحب
وغاليت في حبي لها ورأت دمي رخيصاً فمن هذين داخلها العجب

ومنهم ما حكاه ابن غنيم

قال مررت بخربة فرأيت مجنوناً مصفـــداً بالحديد يتمرغ في التراب ويقول

ألا ليت انّ الحبّ يعشق مرة فيعرف ماذا كان بالناس يصنع
يقولون فز بالصبر انك هالـك وللصبر مني ألف مرة أجـــزع

ومنهم ما حكاه أبو الحسن المؤدب

قال انحدرت من بالس أريد العراق ، فبينما أنا في بعض أزقة الموصل إذ سمعت ضجة فسألت فقيل دار المجانين فدخلت فاذا أنا بشاب في الحديد قد تضرّج بالدم ، فلما بصر بي قـــال من أين قلت من بالس . قال وأين تريد قلت العراق قال أتعرف بني فلان قلت نعم ، قال هم الذين صيروني الى ما ترى في عشقهم وأنشد

زموا المطايا واستقلوا ضحى ولم يبـــالوا قلب من تيموا

مـــا ضرّهم والله يرعـاهم   لو ودّعوا بالطرف أو سلموا
ما زلت أذري الدمع في أثرهم   حتى جرى من بعد دمعي دم
ما أنصفوني يوم بانوا ضحى   ولم يفـــوا عهدي ولم يرحموا

ومنهم الفويرك وهو من المشاهير في عقلاء المجانين

قال الأبليّ رأيته والصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رآني قال أما ترى ما يصنع هؤلاء بي مع ما أنا فيه من العشق والجنون ، قال بلى والله وبي عشق شديد قلت فما أنشدت فيه شيئاً قال بلى وأنشد

جنون وعشق ذا يروح وذا يغدو   فهذاله حـــدّ وهذاله حـــدّ
هما استوطنا جسمي وقلبي كليهما   فلم يبق لي قلب صحيح ولا جلد
وقد سكنا تحت الحشا وتحالفـا   على مهجتي ان لا يفارقها الجهد
فأيّ طبيب يستطيع بحيـــلة   يعالج من داءين ما منهما بـــدّ

وقال يوماً وقد لقيته وفي عنقه حبل يقودونه يا أبا بكر بماذا يعذب الله عبادة قلت بجهنم فقال صفها فقلت له ومن الذي يقدر أن يصف عذاب الله فقال أنا والله في عذاب أعظم منه وكشف عن جسم نحيل وعظام بالية ، وأنشد

أنظر الى مـــا صير الحبّ   لم يبـــق لي جسم ولا قلب
انحل جسمي حبّ من لم يزل   من شأنـــه الهجران والعتب
ما كان أغناني عن حبّ من   من دونها الأستـار والحجب

وقال له ابن الزيات متى حدث بك العشق قال من زمان طويل ، ولكن كنت أكتمه حتى غلب فقال انشدني ما قلت فيه فأنشد

كتمت جنوني وهو في القلب كامن فلما استوى والحب أعلنه الحب
وخلى والجسم الصحيح يذيبــه فلما أذاب الجسم ذل له القلب
فجسمي نحيل للجنون وللهوى فهـــذاله نهب وهـــذاله نهب

ومنهم خـــالد بن يزيد

يكنى أبا القاسم ويعرف بالكاتب خراساني الأصل بغدادي المنشأ أحد كتاب الجيش في الدولة العباسية والمشهورين باللطف والرقة وحسن الشعر ، ثم اعتراه الجنون قيل من السوداء

نقله في النزهة وقال انها كانت تعتريه زمن البـاذنجان فاذا جاء الشتاء ، حسن حاله وحكى في امتزاج الأرواح ورياض اللطائف انه خرج الى بعض الأعمال بأذربيجان فشهد مجلساً وفيه قينة فأعجب بها وطلب ان يصطحبها فامتنعت فداخله حبها حتى خامر عقله ، فكان يصحو أحياناً ويغمر أحياناً فترك العمل مدة ثم استعمله محمد بن عبد الملك في كتـابه بعض الأعمال فمر بماجنة تغني

من كان ذا شجن بالشام يطلبه ففي سوى الشام أمسى الأهل والشجن

فسقط مغشياً عليه حين سمع ذلك وتذكر به حال الماجنة وانها أخبرته أنها تطلب الشام ، ثم أفاق ورجع ورمى العمل وكان يركب قصبة ويطوف ببغداد وأهلها يطلبونه خصوصاً أرباب الدواوين ليسمعوا شعره، قيل قال له ابن الجهم يوماً هب لي قولك

ليت ما أصبح من رقة حدّيك بقلبك

فقال من الذي يهب ولده ، ورآه يوماً والصبيان يضربونه ، فادخله بيته

ثم قال له بعدما أخذ الراحة ، ماذا تريد قال هريسة ورطبا فأحضرهما ، فلما أكل قال له اسمعني شيئاً من شعرك فأنشد

تناسيت ما أودعت سمعك ياسمعي كأنك بعد الضر خال من النفع
فان كنت مجبولاً على الصد والجفا فمن أين لي صبر فاجعله طبعي
هل الحب تجنيه عليّ التفاتة فافرح بعد اليأس مني ومن نفعي
علام الجفايا من كلفت بحبه اتتلفني بالهجر منك وبالقطع
لئن كان أضحى فوق خديك روضة فان على خدي غديراً من الدمع

فقال له أحسنت والله ووجد لذلك وجداً عظيماً ، ثم قال له اسمعني شيئاً غير هذا قال حسبك لن ينالك بهريستك ورطبك أكثر مما سمعت ، وخرج من عنده ، وله أيضاً

يا تارك الجسم بلا قلب ان كنت أهواك فما ذنبي
يا مفرداً بالحسن أفردتني منك بطول الهجر والحب
ان تك عيني أبصرت فتنة فهل على قلبي من عتب
حسيبك الله لما بي كما انك في فعلك بي حسبي

ودخل على ابن عباد فرفع مجلسه فقال ابن الاعرابي من هذا فقال أو ما تعرفه قال لا قال هو خالد الكاتب فقال له ابن الاعرابي ، اسمعنا من شعرك فأنشد

لو كنت من بشر لم يفتن البشرا ولم يفق في الضياء الشمس والقمرا
نور تجسم منحلا ومنعقدا سلك تضمن في تنظيمه دررا

فقال له ابن الاعرابي كفرت هذه صفة الخالق لا المخلوق أنشدنا غير هذا فقال

أراك لما لججت في غضبك تترك ردّ السلام في كتبك

حتى أتى على قوله

أقول للسقم عــد الى بدني حبا لشيء يكون من سببك

فقال له انك لفوق ما وصفت به ووقف عليه ابراهيم بن المهدي عشية وقد تلفع برداء أسود فقال له أنت القائل

قد بكى العاذل لي من رحمة فبكائى لبكاء العــاذل

قال نعم ، قال يا غلام ادفع له ما معك ، فقال خالد وما ذاك ؟ قال ثلثمائة دينار ، قال لا أقبلها أو تعرفني من أنت ؟ قال أنا ابن المهــدي ، فأخذها وانصرف ابراهيم ، فلما بويع له بالخلافة طلبه فقال له انشدني من شعرك فأنشد

عش فحبيك سريعا قاتلي والضني ان لم تصلني واصلي
قد طغى الشوق بقلب دنف فيك والسقم بجسم ناحــل
فهما بــين اكتئاب وضنى تركاني كالقضيب المــائل

وحكى عن حمزة الشاعر نحو مــا سبق عن ابن الجهم من رؤيته مع الصبيان وادخاله واطعــامه لكنه قال فاطعمته رطبا فقط واستنشدته فأنشد

قد حاز قلبي فصار يملكه فكيف أسلو وكيف أتركه
رطيب جسم كالمــاء تحسبه يخطر في القلب منك مسلكه
يكاد يجــري من القميص من النعمــة لو القميص يمسكه

فصل في ذكر من جرع كأس الضنى وصبر على مكابدة العنا واتصف بذلك كله من النساء وثبت بعد فراق محبوبه على النوى او كان منها داعية الاعتداء

حكى صاحب النزهة ، قال نشأ ببني حران شاب لبعض التجار يدعى واصفاً وكان كامل الحسن والظرف واللطافة والعفة ، وكان له ابنة عم تسمى لطيفة ، وكانت على أرفع ما يكون من مراتب الجمال ومحاسن الأخـــلاق والخصال فتوفي أبوها وتركها صغيرة فكفلهـــا عمها حتى بلغت ، فكانت تنظر الى ابن عمهـــا فيعجبها الى أن تمكن حبه منها ، فمرضت وهي تكتم أمرهـــا .

وكانت امرأة عمها فطنة مجربة للامور فامتحنتهـــا فوجدتها تغيب عن حسها أحياناً . فاذا دخل الغلام صحت والتمست ما تأكل فأخبرت أباه ، فقال يا لها نعمة ، ثم زوجه منها فأوقع الله حبها في قلبه فأقاما على أحسن حال مدة ، وهو يأمرها أن تكون دائماً متزينة متطيبة ، ويقول لها لا أحب أن أراك الا كذا فلم يزالا على ذلك حتى ضعف الشاب ومات ، فحزنت عليه وفقدت عقلها ، فكانت تتزين بأنواع زينتها كما كانت وتمضي وتبكي على قبره باكية الى الغروب

قال الأصمعي مررت أنا وصاحب لي بجبانة فرأيتها على تلك الحالة فقلت لها علام ذا الحزن الطويل فأنشدت

فان تسألاني فيم حزني فانني رهينة هذا القبر يا فتيان
واني لاستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يراني

فعجبنا منها ثم جلسنا بحيث لا ترانا لننظر ما تصنع فأنشدت

يا صاحب القبر من كان يؤنسني وكان يكثر في الدنيا موالاتي
قد زرت قبرك في حلى وفي حلل كأنني لست من أهل المصيبات
لزمت ما كنت تهوى ان تراه وما قد كنت تألفه من كل هيآتي
فمن رآني رأى عبرى مولهة مشهورة الزي تبكي بين أموات

ثم انصرفت فتبعناها حتى عرفنا مكانها فلما جئنا الى الرشيد، قال حدثني بأعجب ما رأيت فأخبرته بأمر الجارية فكتب الى عامله على البصرة أن يمهرها عشرة آلاف درهم ففعل وأتي بها اليه وقد أنهكها السقم فتوفيت بالمدائن .

قال الأصمعي فلم يذكرها الرشيد الا ذرفت عيناه . وحكى بعض أهل المدينة ، قال دعاني صاحب لي لسماع جارية تغني ، فدخلنا عليها فاذا هي منخرطة الوجه متغيرة تكثر من السهو والاطراق كأنها مشغولة فعزمت عليها أن تخبرني بما بها ، فقالت برح الذكر ودوام الفكر وخلو النهار وتشوقي الى من سار ، والذي ترى مما وصفت لك فان كنت ذا أرب صرفت العتب عن ذي الكرب ، واجتهدت في طلب الدواء لمن أشرف على العطب وأخذت العود فغنت تقول

سيوردني التذكار خوض المهالك فلست لتذكار الحبيب بتارك
أبى الله الا أن أموت صبابة ولست لما يقضي الإله بمالك
كأن بقلبي حين شط به النوى وخلفني فردا صدور النيازك
تقطعت الأخبار بيني وبينه لبعد النوى واستد سبل المسالك

فوالله لقد خفت أن تسلب عقلي بغنائها ، فقلت جعلني الله فداءك وهذا

الذي صبرك انى ما أرى يستحق ذلك مع ان الناس كثير فلو تسليت بغيره فلعل ما بك يسكن ويخف فقد قال الأول :

صبرت على اللذات لمـــا تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى فان أطعمت تاقـــت والا تولت

فقالت قد رمت ذلك فكنت كما قال قيس ولما أبى الا جماحا البيتين ، فأسكتتني حجبها عن المحاورة ، وما رأيت كمنطقها وحسنها وأدبها

وحكى الزبير بن بكار قد دخلت على الأمير بن طاهر حين قدم من الحجاز فتبسم في وجهي ثم قال

لئن باعدت بيننا الأنساب فقد قربت بيننا الآداب

وان أمير المؤمنين اختارك لتأديب ولده ، فأمر لك بعشرة آلاف درهم وعشر نحوت وبغال تحمل عليها أمتاعك ، فشكرت فضله

فلما عزمت على الانصراف قال زوّدنا أيها الشيخ حديثاً نذكرك به فقلت أحدثك بما رأيت أو بما سمعت قال بما رأيت أو بـما سمعت قال بما رأيت قلت بينما أنا بين المسجدين أو قال على اثاوة الأعرج ، إذا أنا برجل صاد ظبياً وهمّ ليذبحه فنشب الظبي بقرنيه في الرجل فدخلا في جوفه فسقط الصيـاد والظبي ميتين أو قال رأيت حبالة منصوبة وظبياً مذبوحاً ورجلاً ميتاً فجاءت امرأة حاسرة وهي تقول

يا حسن يا بطل لكنـه أجـل على الاساءة ما أودي بك البطل
يا حسن قلقل أحشائي وأزعجها وذاك يا حسن عندي كله جلل
أمست فتاة بني نهد عـــلانية وبعلهـــا في أكف القوم يبتذل
قد كنت راغبة فيه أضن بـه فحان من دون ضن الرغبة الأجل

ثم شهقت فماتت ، فلم أرى أعجب من الثلاثة وفي رواية وبعلها فوق

أيدي القوم محتمل فوهب له عشرة آلاف درهم ، ثم قال أتدرون ما استفدنا من الشيخ قالوا لا ، قال قوله علانية يعني ظاهرة وهذا حرف لم أسمعه من العرب

وحكى ان امرأة أحبت رجلاً وكان متمنعاً عنها زماناً فراسلته أن يتزوج بها ففعل وكانت بينهما ألفة شديدة فمكثا على ذلك مدة ، فمرض ومات فجعلت المرأة تتردد الى قبره ولزمته يوماً تبكي وتنشد

كفى حزناً الى أروح بحسرة وأغدو على قبر ومن فيه لا يدري
فيا نفس شقي جيب عمرك عنده ولا تبخلي بالله يا نفس بالعمر
فما كان يأبى ان يجود بنفسه لينقذني لو كنت صاحبة القبر

ثم زادت في النحيب وانكبت على القبر فاذا هي ميتة وحكى الربيع قال مررت بجارية على قبر تقول

بنفسي فتى أوفى البرية كلها وأقواهم في الموت صبراً على الحب

قال فقلت لها بم صار كذلك قالت كان اذ اعنف في حبي يصبر واذا لحى عليه يسكت واذا زاد به الغرام ينشد هذين البيتين

يقولون ان جاهرت قد عضك الهوى وان لم أبح بالحب قالوا تصبرا
فما للذي يهوى ويكتم حبه من الأمر الا أن يموت فيقبرا

ولم يزل يكررهما حتى مات فها أنا مقيمة على حفظ عهده لا أبرح حتى يتصل القبران ثم صرخت وسقطت فاجتمع النساء فحركنها فاذا هي ميتة ، ودفنت الى جانبه .

وحكى رجل من تميم قال ضلت لي ابل فخرجت في طلبها فاذا أنا بجارية كأنها قمر تغشى بصري من النظر اليها ، فلما رأتني قالت مالك ؟ قلت ضلت لي ابل فلم اعرف خبرها فقالت هل أدلك على من عنده علمهن قلت بلى قالت ان الذي أعطاكهن هو الذي أخذهن وهو أحق بردهن فسله من

طريق التيقن لا من طريق الاختبار فأعجبني كلامها ووقفت أنظر اليها ثم راودتها عن نفسها فقالت هبك ليس لك مانع من أدب أمالك زاجر من الحياء فقلت لن يرانا إلا الكواكب . فقالت أين مكوكبها ؟ فقلت ألك بعل قالت قد كان ولكن دعي الى ما خلق له فصار الى ما خلق منه ثم أنشدت:

اني وان عرضت أشياء تضحكني لموجع القلب مطوي على الحزن
إذا دجا الليل أحياني تذكره وزادني الصبح أشجاناً على شجني
وكيف ترقد عين صار مؤنسها بين التراب وبين القبر والكفن
ابلي الثرى وتراب الأرض جدّتة كأن صورتـه الحسناء لم تكن
أبكي عليه حنيناً حين أذكره حنين والهـة حنت الى وطن
أبكي على من حنت ظهري مصيبته وطير النوم عن عيني وأرقني
والله لا أنس حبي الدهر ما سجعت حمـامة أو بكى طير على فنن

فقلت لها عندما رأيت من جمالهـا وفصاحتها هل لك في زوج لا تذمّ خلائقه وتؤمن بوائقه فأطرقت ملياً ثم انشدت تقول

كنا كغصنين في أصل غذاؤهما ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث خيرهما من جنب صاحبه دهر يكر بفرحـات وترحات
وكان عاهدني ان خانني زمني ان لا يضاجع انثى بعد مثواتي
وكنت عاهدته أيضاً فعاجلـه ريب المنون قريباً من سنيـات
فاصرف عنك عمن ليس يردعه عن الوفـاء خلاف في التحيات

وحكى ابراهيم الموصلي ، قال كان كثيراً ما يصف لي زلزل جارية عنده فلما مات مولاها وسمعت عرضها للمبيع ركبت حتى دخلت عليها فاذا هي جاريه كاد الغزال أن يكونها لولا ما تم منها ونقص منه فسألتها أن تغني ، فأخذت العود وغنت

اقفر من أوتاره العود فالعود للاقفـار معمود

واوحش المزمار من صوته فما له من بعدك تغريد
من للمزامير ولذاتها وعارف اللذات مفقود
فالخمر تبكي في أباريقها والقينة الخمصانة الرود

فركبت الى أمير المؤمنين فأعلمته بها ، فاستحضرها فلما وقعت من قلبه ، قال لها هل لك أن أشتريك ؟ فقالت اما اذا اشتريتني فلا خير لك في ، فرحمها وأعتقها وأجرى عليها مؤونة

ومن وفاء النساء ان كسرى أبرويز ترك جارية كانت حظية فطلب ولده أخذها فعالجت ناوس كسرى ففتحته ودخلت فمصت خاتماً مسموماً كان في أصبعه فماتت .

القسم الثالث

فيمن خالسته عيون الاماء فاسلمته الى الفناء وكادت ان تقضي عليه لولا المداركة بالوفاء

ومما ينبغي ذكره هنا مصدر الحكاية المشهورة عن حبابة ، وهي جارية في الأصل للأحوص ، وقيل لرجل مدنيّ ، وانها كانت تسمى العالية ، وانه دخل بها على يزيد بن عبد الله في خلافة أخيه وعليها ازار له ذنبان وبيدها دف فغنته

ما أحسن الجيد من ملكية والـلبات إذ زانهـا ترائبهـا
يا ليتني ليـــلة إذا هجع الناس ونام النيـــام صاحبها
في ليلة لا يرى بهـــا أحد يسعى علينـــا الا كواكبها

فاشتراها بأربعة آلاف دينار، فبلغ أخاه فعزم على ان يحجر عليه فردها فاشتراها رجل من أفريقية . وقد تولعت بها نفس يزيد وكان قد تزوج سعدى بنت عبد الله بن عثمان وزنجية بنت عبد الله بن جعفر وأمهر كلاً منها عشرين الف دينـــار ، فخـــاف من سليمان الحجر فلم يزل ينتظر حتى انتقلت اليه الخلافة ، فأرسلت سعدى مولى لها في طلب حبابة ، فبلغه انها في المدينة فمضى اليها فقيل بمصر ، فمضى اليهـــا فقيل بافريقية ، فمضى حتى اجتمع بمولاها فاشتراها منه بمائة ألف درهم بعد امتناعه من بيعها ، لولا اني أخبرته

بأن الخليفة سيأخذها منه قهراً ، ولما ارتحل بها مولى سعدى أنشد الافريقي وقد تبعتها نفسه

ابلغ جبابة اسقي ربعهـا المطر   مـا للفؤاد سوى ذكراً لم وطر
ان سار صحبي لم أملك تذكركم   او عرسوا تستهيم النفس والفكر

ولما مرّ بها على مكة شيعها الناس ، وقيل من المدينة وكانوا مائتي رجل الى ذي خشب ، وسألوها ان تزوّدهم صوتاً فأنشدت

سلكوا بطن محيض   ثم ولوا راجعينا
أورثوني حـين ولوا   طول حزن وأنينـا

ثم كتبت أسماءهم حتى عرضتهم على يزيد فوهب كلاً الف درهم ، ولمـا وصل بها الى سعدى ألبستها حللاً ووهبتها جواهر وطيباً كثيراً ، ثم قالت للخليفة قد وهبك الله الملك فهل بقي عليك شيء ، وهي تعلم ما في نفسه ، فقال لا   فقالت بل أنا أعلم فاخبرني عسى أن أوصلك اليه ، فقال العالية يعني حبابة   فقالت أوتعرفهـا إذا رأيتها ؟ قال نعم فأخذت بيده حتى أدخلته عليها فسرّ وعظمت منزلة سعدى عنده ، وكانت عاهدت حبابة أن لا تدع لها حاجة عند الخليفة إلا فضتها ، وان يجعل الخلافة لولدها ففعلت ، وكانت ربيحة قد اشترت سلامة وهي أيضاً جارية كانت لمدنيّ وكان قد رآها يزيد فوقعت من نفسه موقعاً عظيماً ، فلما اجتمعتا عنده ، قال أنـا الآن كما قيل

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عيناً بالايـاب المسـافر

وأول ما عظمت به عنده ان دخل يوماً فسمعها تغني من وراء الستر ولا علم لها به

كان لي يا يزيد حبك حيناً   كاد يقضي عليّ حين التقينا

فكشف الستر فوجدها مستقبلة الجدار فعلم انها لم تشعر به فالقى نفسه عليها وارتفعت منزلتها عنده وكانت حبابة أجمل نساء زمانها قد حوت اللطافة والمعرفة بالأدب والآلات والغناء وأخذته عن أهله مثل معبد وجميلة وأم عوف وغيرهم وكان يزيد قبل خلافته يختلف إلى أم عوف ويقترح عليها أن تغني :

متى أجر خائفاً تسر مطيته   وان أخف آمناً تنبو به الدار

سيروا إليّ وارخوا من أعنتكم   إني لكل امرىء من وتره جار

فسأل حبابة أن تغنيه ولم يمكنها الطعن على أم عوف فبكت يزيد بحبه لها بأن غنت اثر الصوت

أبى القلب الا أم عوف وحبها   عجوزاً ومن يحبب عجوزاً يفندا

فضحك وقال لمن هذا فقالت لمالك فكان كثيراً ما يسألها ان تغنيه ، فغنت يوماً

لعمرك انني لا حب سلعاً   لرؤيتها ومن بجنوب سلع

تقر بقربها عيني وإني   لأخشى أن تكون تريد فجعي

حلفت برب مكة والهدايا   وأيدي السابحات غداة جمع

لأنت على التنائي فاعلمته   أحبّ إليّ من بصري وسمعي

ولما أنشدته البيت الأول تنفست الصعداء ، فقال يزيد مالك وله والله لو أردته حجراً حجراً لجئت به اليك فقالت ما أصنع به إنما أريد صاحبه أو ساكنه واقترح عليها وعلى سلامة يوماً أن يغني كل منهما ما في نفسه ، ومن أصابت فلها ما تطلب فغنت سلامة فلم تصب وغنت حبابه:

خلف من بني كنانة حولي   بفلسطين يسرعون الركوبا

فأصابت به ما في نفسه فقال احتكمي ، فقالت تهب لي سلامة وما لها ،

فأبى وقال اطلبي غيرها فأبت إلا هي ، فقال أنت أولى بها وبما لها فغمت سلامة لأنها كانت أرفع منها زمن التعليم عند معبد ، حتى كان يأمرها أن تدرب حبابة ، فذكرتها ذلك فقالت لا ترين إلا خـيراً ثم طلب يزيد شراءها فأعتقتها وزوّجتها منه ، واختلفتا يوماً في صوت لحنه معبد من شعر لجرير وهو قوله :

ألا حيّ الديار بسعـداني   أحبّ لحب فاطمـة الديارا
أراد الظـاعنون ليحزنوني   فهاجوا صدع قلبي فاستطارا

فاستحضره يزيد ليقضي بينهما وقد أخبر انه الى حبابة أميل ، فقضى لها فقالت سلامة إنما قضيت المنزلة ولكن ائذن لي يا أمير المؤمنين في صلته لما له عليّ من الحق فأذن لها فمضى معبد فوجدسلامة قد سبقت حبابة بالصلة ولم تزل تفتقده حتى رجع .

وهذان البيتان غنتهما قينة للفرزدق عند الأحوص ، فقال الفرزدق ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز ، فقال الأحوص إنما هو لجرير يهجوك به ، فقال ويل ابن المرارة ما كان أحوجه مع عفافه الى صلابة شعري وأحوجني مع شهواتي الى رقة شعره ، وقيـل أن معبداً حين حضر عند الخليفة غنى قول كثير

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الهوى   وان يحدث الشيب الملم لي العقلا
على حين صـار الرأس مني كلما   علت فوقه نداقة العطب أعزلا
فيا عزان واش وشى بي عندكم   فلا تكرميه ان تقولي له أهـلا
كما لو وشى واش بودّك عنـدنا   لقلنا تزحزح لا قريباً ولا سهلا
فأهـلاً وسهلاً بالذي شدّ وصلنا   ولا مرحباً بالقائل اصرم لنا حبلا

فطرب يزيد حتى جعل الوسادة على رأسه ، ودار في الدار وهو يقول السمك الطريّ أربعة أرطال عند بيطار حيان فلما رجع الى مجلسه ذكر اختلافهما السابق لمعبد ، فرجع لحبـابة كما سبق ، فقالت له سلامة يا ابن

الفاعلة تعلم ان الحق معي ولكن قضيت للمنزلة ، فضحك يزيد وأحسن صلته وكان البيدق من المهرة في الغناء وكان يختلف الى حبابة فلما علت عند يزيد قصدها ليستعطيها وسمعت به فأدخلته وقد جلست مع الخليفة ، فقالت له ان هذا أبي وشكرت من صوته وأشارت اليه ان يقرأ فقرأ حتى بكي يزيد ثم أومأت أن يغنّ ففنى شعر سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بتلحين بن شريح .

من لقلب مصفد هائم القلب مكمد
أنت زوّدته جوى بئس زاد المزوّد
ثاوياً تحت تربة وهي رمس بفدفد
غير إني أعلل النفس باليوم أو غد

فطرب يزيد فضربه بمدهن من ذهب مفصص بالياقوت ، فأشارت اليه ان يأخذه فأدخله في كمه

فقال يزيد لحبابة انظري الى أبيك كيف أخذ مدهننا فقالت ما أحوجه اليه ، ثم خرج فأمر له بثمانين ديناراً وغنته يوماً الشعر السابق أول القصه ، بتلحين ابن شريح فطرب وقال هل رأيت أطرب مني ، فقالت نعم معاوية بن عبد الله بن جعفر ، فغضب واحضره فأرسلت حبابة فأعلمته ان لا يطرب الا عندما تغني الصوت المذكور ، فلما غنته رقص وطرب ، وجعل يقول الدخن بالنوى فأمر له يزيد بثمانية آلاف دينار

وقال لها مرة أخرى من أطرب مني ، فقالت مولاي الذي باعني فاستحضره مقيداً ، فلما دخل عليه وقد أرسلت من عرفه القصة أيضاً غنت فالقى نفسه على الشمعة حتى حرقت لحيته ، وهو يقول الحريق يا أولاد الزنا فضحك الخليفة وأكرمه بألف دينار ثم لم يزل منعكفاً على الاقامة معها ، والمحافظة على اللهو والطرب والشرب ، وقيل انه جعل فسقية من الخمر في مجلسه وكان اذا طرب سقط فيها ومزق حلة قيمتها ألف دينار

قيل ذكر أخوه سليمان بحضرة الرشيد فقال الأصمعي ، كان رجلاً نهماً ، اذا قدّم اليه السماط لا يصبر حتى يبرد بل يتناول اللحم بكمه ، وأما أخوه يزيد فكان يسقط في الخمر بثيابه ، فقال الرشيد للأصمعي ما أعلمك بالناس ، والله ان ثيابهما عندي وانّ الدهن في أكمام سليمان وأثر الخمر في ثياب يزيد ، ولما استمر على حاله وكان قد ولى الخلافة أثر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقد اعتاد الناس العدل والاصلاح ثقل عليهم حاله وتمطلت الحاجات فضجوا فدخل عليه مسلمة أخوه فعنفه ولامه ووعظه وذكره عدل عمر وقيل انه قال من نفسه ، والله ما عمر بأحوج الى الله مني فهجر الجواري والشراب أياماً

وقال لمسلمة أرجو أن لا تعتبني بعد اليوم ، ثم جلس للناس فثقل ذلك على حبابة فأرسلت الى الأحوص فعمل شعراً واستحضرت معبداً فلحنه ثم احتالت على أسماعه الخليفة قبل عارضته وهو خارج الى الصلاة، وقيل رشت خادماً مقرباً منه فأوقفها بحيث يسمع وأنشدته فطرب وقال مروا مسلمة أو قال صاحب الشرط فليصل بالناس ولعن من يلومه في ذلك وعاد فاعتكف على ما كان عليه ، وقيل ان الذي أمره بالكف عن ذلك مولى خراسانيّ ، كان ذا رتبة عنده ، وانه قال له ساحضرك معهنّ وأقول انك عمي ، فان عنفتني رجعت وفعل فشمرن به وقمن يضربنه فوقاه يزيد ثم قال له أدوم على ذلك أم لا فقال دم فاستمر والشعر الذي أنشده الأحوص هو هذا

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا	فقد غلب المحزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدي فمن شاء لامني	ومن شاء آسى في البكاء واسعدا
واني وان فندت الصبا في طلب الصبا	لا علم اني لست في الحب أوحدا
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى	فكن حجراً من يابس الصخر جلدا
فما العشق إلا ما تلذ وتشتهي	وان لام فيه ذو الشنان وفندا
وعهدي بها صفراء رود كانما	نضى عرق منها على اللون عسجدا
مهفهفة الاعلى وأسفل خلقها	جرى لحمه من دون أن يتخددا

من المدمجات اللحم خدّا كأنها   عنان صناع مدمج الفتل عضدا
كأن ذكيّ المسك منها وقد بدت   وريح الخزامى عرفه ينفح الندا
واني لأهواهـا وأهوى لقاءهـا   كما يشتهي الصادي الشراب المبردا
فقلت ألا يا ليت أسماء أصقبت   وهل قول ليت جامع ما تبدّدا
علاقة حب كان في زمن الصبـا   فابلى ومـا يزداد الا تجدّدا
نظرت رحاب الموقرات فكم أرى   أكاريس يحتلون خاخاً فمنشدا
فاوفيت في نشز من الأرض يافع   وقد يسعف الايفاع من كان مقصدا
كريم قريش حين ينسب والذي   أقرت له بالملك كهلاً وأمردا
وليس عطـا من كان منه بمـانع   وان جل عن أضعاف أضعافه غدا
أهـان تلاد المال في الحمد انه   أمام هدى يجري على ما تعوّدا
تردّى بمجـد من أبيه وجـدّه   وقد أورثا بنيان مجـد مشيدا
ولو كان بذل المال والجود مخلدا   من الناس انساناً لكنت المخلدا
فاقسم لا انفك ما عشت شاكراً   لنعماك مـا طار الحمـام وغردا

هكذا وجدت القصيدة وان بترها المصنف إلا أن في بعض أبياتها تغييراً ففي نسخة بدل اذا لم تكن تعشق   اذا كنت عزهاة عن اللهو والصبـا يعني بالعزهاة بالمهملة فالزاي محب اللهو والطرب وبدل قوله واني وان فندت أغرقت ، وبدل قوله لكنت المخلدا لكان ولما سمعه قال لحبابة من يقول هذا قالت الأحوص فاستحضره وأحسن صلته وتراسلت فيه يوماً هي وسلامة ، فغنيتا الى ان قالت حبابة كريم قريش ، فقال يزيد من يعني قالت أنت ، فقالت سلامة اسمع باقيه واكملته فاجزل صـلة الأحوص وكانت اذا غنته حبابة الشعر يطرب حتى يقول أحسنت يا حبيبتي أتامرين أن أطير فتقول له الى من تكل الأمة فيقول اليك واشتد طربه بها يوماً فقال لها قد استخلفتك

واستعملت فلاناً عنك ، فقالت قد عزلته فقلِل أوليه وتعزلينه، وقام مغضباً فلم تكترث به وارتفع النهار فدعا خادماً لها فقال له ما تصنع حبابة ؟ قال قد اتزرت بازار خلوقي وهي تلعب بلعبها ، فقال هل تقدر أن تمر بها عليّ ، ولك حكمك

فمضى فلاعبها ساعة واستلّ لعبة وفرّ فانطلقت في طلبه تخطر حتى مرت عليه فوثب واعتنقها وهو يقول وليته وهي تقول عزلته ، واصطلحا وأقاما على ذلك الى أن قال يزيد يوماً قد بلغني ان السرور لم يصف لشخص يوماً كاملاً وإني مجرب ذلك ، ودعا بحجابه فأوصاهم أن لا يدخلوا عليه أحداً واحتجب معها ببستان له بقربة من الغوطة تسمى ببيت رأس علي .

زعم المؤرخون انّ يزيد بن معاوية وضع رأس الحسين بها حين قدموا به فلم يزل معها على عادتها حتى انتصف النهار وانه ضاحكها ثم رشقها بعنبة أو حبة رمان ، وقيل هي ابتلعتها فشرقت بها فماتت ، واشتد غم يزيد وحزنه وأقام ثلاثاً يرشفها ويضمها ولم يقم أحداً لدفنها حتى ضج به القوم وعذلوه فاذن في تجهيزها ثم لم يستطع النهوض الى الصلاة عليها ، فقيل حمل على رقاب الناس ، وقيل قال له مسلمة أنا أكفيك مع انه لم يحضر ثم ضم جويرية كانت تخدم حبابة فأنس بها فقال لها يوماً ههنا كنا نجلس ، قالت نعم ، فأنشد

كفى حزناً للهائم الصب أن يرى   منازل من يهوى معطلة قفرا

وخرج الى قبرها فبكى طويلاً ، ثم تمثل بقول كثير

فان تسل عنك النفس أو تدع الهوى   فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل زارني فهو قائل   من أجلك هذا ميت اليوم أو غد

ثم مكث خمسة عشر يوماً وعاوده القلق فأمر بنبشها ، فقيل منعه أخوه وقال له الناس انك أتيت في عقلك فيخلعونك فرجع وقيل استخرجها وجعل يقبلها ، فقيل له قد تغيرت فقال أراها أحسن منها اليوم وانه

مات حينئذ وقيل أقام أربعين يوماً ثم مات ودفن الى جانبها . قالوا ولم يسبق ان خليفة مات عشقاً سواه ، وأما سلامة فأقامت بعدهما حتى توفيت

ما قيل في عهد المنصور

وحكى عن رجل انه قال دخل عليَّ غلامي ومعه كتاب ففتحته واذا فيه

تجنبك البلاء ونلت خيراً ونجاك المليك من التموم
فعندك لو مننت شفاء نفس وأعضاء فنين من الكلوم

فعلمت انه عاشق وأمرت بادخاله فلم يجدوه ، فعرضت الكتاب على جواريّ وقلت من عرفت منكنّ أمر صاحب هذا فهي له ومائة دينار ، فحلفن انهنّ لم يعرفن ذلك وبقي الكتاب والدراهم سنة في جانب البيت ، فبينا أنا يوماً جالس إذ دخل عليَّ غلامي بكتاب مثل الأول وفيه

ماذا أردت الى روح معلقة عند التراقي وحادي الموت يحدوها
حبست حاديها ظلماً فجدّ بها في السير حتى تخلت في تراقيها
والله لو قيل لي تأتي بفاحشة وان عقباك دنيانا وما فيها
لقلت لا والذي أخشى عقوبته ولا بأضعافها ما كنت آتيها
لولا الحياة لبحنا بالذي كتمت بنت الفؤاد وأبدينا أمانيها

فطلبته فلم أجده أيضاً ففمني أيضاً أمره ، وقلت للخادم لا يأتيك أحد بكتاب الا قبضت عليه حتى أراه ، وكان قد قرب الحاج فلما وقفت بعرفة إذا بشاب على ناقة الى جانبي وقد أخذ منه النحول والسقم الا ان عليه آثار الجمال والأدب فسلم عليَّ وقال هل تعرفني قلت زدني قال أنا صاحب الكتابين قلت قد وهبت لك الجارية ومائة دينار فامض واعرفها وتسلمها فقد تعبت من أمرك قال لم أطلب شيئاً مما تقول فعرفني اسمها لا كرمها من أجلك ، قال ما كنت بالذي يبوح بشيء وانصرف بعد ان أنشد

لعمرك ما استودعت سري وسرها سواها حذار أن تضيع السرائر
أصون الهوى خوفاً عليك من العدا مخافة أن يغري بذكراك ذاكر

ومنهم أبو عبدالله الخبشاني عشق جارية سوداء يقال لها صفراء ، ومرض من حبها حتى لزم الوساد فقيل لمولاه لو أرسلت بها اليه فعساه أن يجد الشفاء فلما دخلت عليه قالت كيف أصبحت قال بخير ما رأيتك قالت ما تشتهي ، قال قربك قالت مما تشتكي ؟ قال هجرك قالت فيم توصي ؟ قال بك ان سمع لي قالت اني أريد الانصراف ، قال لا تعجلي ثواب الصلاة عليّ ، فلما رآها ولت شهق شهقة فمات

ومنهم شاب بصري قال في النزهة اسمه ظريف بن نعيم الغفاري كان بأعظم حالة من الجمال وأمكن رتبة من المال ، وانه اقترح على أبيـــه وكان من أكابر تجار البصرة ان يرسله بمتجر الى بغـداد ، فمانعه زماناً وكان يقول له نحن غير محتاجين الى اكتساب بالأسفار فلا تفجعني فيك ، فأبى الا السفر فجهز له حملاً وسار حتى دخل بغداد ، فأقام بهـــا مدة يتنزه ويسرح في ملاذها ناظره ويشرح بمنازهها خاطره الى ان أشار عليه بعض ندمائه بحضور الدكة يعني المكان الذي تباع به الجواري فحضر مع خواص التجار وجيء بجارية بهرت الحاضرين وأشغلت الناظرين

فكانت كلما أراد أحد تقليبها لم تمكنه من النظر الى أكثر من عضو واحد وكانت كلما أراد أحد شراءها عابته حتى وقعت عينها على البصري فأحبته وأطمعته بنفسها فساوم مولاها حتى أخذها بمائة ألف درهم ثم انطلق بها الى منزلـــه

فلما كان الليل اذا بطارق فخرج فاذا هو صاحب شرطة الحجاج فأخذوه حتى دخلو به عليه فقال له عليَّ بالجارية التي اشتريتها ، فقـــال أصلح الله الأمير انها روحي فلا تكن سبب هلاكي فأمر بالقبض عليه وأرسل من جاء بالجارية ، فلما رآها علم انها لم تبق له ان عرف الخليفة ذلك فوجه بها

الى الشام من ليلتها الى عبد الملك وحبس الشاب ، فلما زال عقله أطلقه وأخذ ماله، فتوجه الشاب الى دمشق فأقام بها مدة متنغص الحياة، فأراد أن يحتال للاجتماع بالجارية فلم يمكن فوقع في قصة انه رأى أمير المؤمنين يأمر جاريته نعمى أن تغني لي ثلاثة أصوات اقترحهـــا ، ثم يفعل مـــا شاء . فلما سمع القصة اشتدّ غضبه ثم عاوده الحلم فلما انصرف الناس أحضر الشاب والجارية ، وقال مرها بما شئت ، فقال لها غني لي قول قيس بن ذريح لقـد كنت حبس النفس الى أربعة أبيات فغنت فمزق أثوابـــه ، ثم قال لها غني قول جميل

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

الى ستة أبيات فغنت فغشي عليه ، ثم أفاق فقال غني قول المجنون

وفي الحيرة الغادون من بطن وجرة

الى أربعة أبيات فلما غنت قام والقي نفسه من علو شاهق فمات.

فقال عبد الملك لقد عجل على نفسه أيظن اني أخرجت جـارية وأعود بها خذها يا غلام فاعطها لورثته أو فتصدقوا بها عليه فلما نزلوا بها نظرت الى حفيرة معدة للسيل فجذبت يدها من الغلام وهي تقول

من مات عشقاً فليمت هكذا   لا خير في عشق بلا موت

والقت نفسها في الحفيرة فماتت ، وسأل القوم عن الغلام فقيل انه قدم من كذا وكذا يوماً ورؤي في الأسواق وهو يقول

غداً يكثر البـاكون منا ومنكم   وتزداد داري من دياركم بعـدا

وقيل ان القصة وقعت بـــين يدي سليمان بن عبد الملك وانه اقترح في الصوت الأول قول امرىء القيس

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

الى ثلاثة أبيات وفي الثاني :

غداً يكثر الباكون منا ومنكم

البيتين وفي الثالث

تألق البرق نجـديا فقلت له   يا أيها البرق اني عنك مشغول
يكفيك مني عدوّ ثائر حنق   بكفه كحباب الماء مصقول

وانه كان يطلب كل مرة النبيذ فيسقي .

* * *

و (منهم) الشريف البياضي عشق جارية لبنت فخر الملك فأحبهـا حباً عظيماً وتطاول أمره حتى شاع في الناس ذكره ولم يزل حتى مرضت فمرض أيضاً هو ، فلما توفيت طاش عقله وبقي شهراً فما دون ثم لحق بهـا وله فيها أشعار كثيرة منها :

خليـليّ مرَّ بالعراق منـاديا   الا من رأى قلباً من الوجد باليا
وان انتما اعييتما في ابتغـائه   ولم تجـداه فابغيا لي ناعيـا

ومنها

دع الوقوف على الأطلال والدمن   فليس ينفع مسكون بلا سكن
أمـا تراني لا أثني على طلل   بعد الفراق ولا آوي الى وطن
وكيف يأنس قلبي بالديار وقـد   أصاب فيها الردى من كان يؤنسني
ان الذين اذاقـوني فراقهم   أفنيت بعدهم دمعي من الحزن
لله من لعبت أيدي المنون به   ضنا بما فيه أن يبقى على الزمن
جعلت روحي له من روحه عوضاً   مقيمة معـه في ذلك الكفن
فصار كالحي إذ روحي تحل بـه   وصرت كالميت إذ لا روح في بدني
وكيف تصحب روحي بعده جسدي وكان ان غاب تأبى أن تصاحبني

و (منهم) ما أخرجه ابن الجوزي في تنويرالعيش عن التنوخي والثوري يرفعانه الى اسماعيل بن جامع ، قال وقع بيني وبين أبي وحشة فذهبت الى خالي باليمن فكنت عنده في غرفـة تشرف على نهر فنظرت يوماً الى سوداء قد أقبلت تملأ قربة فوضعتها واستراحت ثم أنشدت

الى الله أشكو بخلها وسماحتي ... لها عسل مني وتبذل علقما

فداوي مصاب القلب أنت قتلته ... ولا تتركيه هائم القلب مغرما

ثم ملأت القربة ومضت فنزلت أعدو حتى لحقتها استعيد الصوت فأبت وقالت اني لفي شغل عن ذلك قلت بماذا قالت عليّ درهمان فأعطيتها إياهما واستعدت الصوت حتى حفظته ، فلمـــا أصبحت فاذا هو قد ذهب مني ، وأقبلت السوداء على عادتها فاستعدته منها ، فقالت كأنك تستكثره بأربعة دراهم ، وقد أخذت عليه أربعة آلاف دينار .

فلما كنا عند الرشيد أو قـــال عند المأمون وبين يديه أربعة أكياس كل واحد الف دينار ، قال من أطربني فله الف دينار فغنيته البيتين فرمـــاني بكيس واستعاد الصوت فرماني بالآخر حتى أعطاني الأربعة فحدثته القصة ، فقال لم تكذب السوداء .

و (منهم) ما أخرجه ابن اسحاق قال انحدرت مع محمد بن ابراهيم من سر من رأى ، ودجلة في طغيانها ، فأحضر الشراب فاندفعت جارية تغني :

وارحمـــة للعـــاشقينـــا ... ما ان أرى لهم معينا

كم يشتمـــون ويضـــربو ... ن ويهجرون فيصبرونا

فقالت لها مغنية أخرى فيصنعون مـــاذا قالت هكذا ورمت بنفسها في الماء وكان على رأس محمد غلام اشتراه بألف دينار فحين رأى فعل الجارية ، القى بنفسه وهو يقول

أنت الـــتي عرّفتـــني ... كيف الهوى لو تعلمين

لا خير بعدك في البقاء ... والموت زين العاشقينا

فدفع من طلبها فقيل وجدا متعانقين ، وقيـــل استخرجا ودفنا وفي رواية الحافظ ان القصة وقعت في بيت محمد المذكور وكان على الدجلة ، وان الغلام هو الذي القى نفسه حين سمع الجارية فتبعته وانها غنت هذا الصوت

يا قمـــر القصر متى تطلع أشقى وغيري بـك يستمتع
ان كان ربي قد قضى كل ذا منـك على راسي فما أصنع

و (منهم) شخص كان يهوى مغنية عند عبد الله بن جعفر فشغف بهـا حتى كان يأتي الباب لسماع صوتها ، فلما فطن به زينها ونزل بها اليه فوجده نائماً فنبهه وقال له دونكها فامض بها الى منزلك ، فلما رآها فحص برجله وحرّك فاذا هو ميت ، وكانت هذه الجارية قد طلبها يزيد فأبى عبدالله أن يدفعها اليه ، فقيل انها ماتت بعد ذلك بيسير وان موتها كان عشقاً .

القسم الرابع

في ذكرى من حظي بالتلاق بعد تجرع كأس الفراق

وهذا القسم هو الذي ترجمه بمن ساعده الزمان بمطلوبه حتى ظفر بمحبوبه وذلك إما لشفاعة أو جاه أو حيلة أو عناية أزلية وهم أيضاً بالنسبة الى النساء أما متعلق بالأحرار أو مرمي بالعشق من جهة الجوار

(فمن الصنف الأول) عبد الله بن أبي بكر الصديق عشق عاتكة فكلف بها حتى كاد أن يطير عقله، فلما تزوّج بها أقام سنة لا يشتغل بسواها ثم قدم عليه تجارة من الشام فخرج ليتعاطى أمرها ، فخيل له حين خرج انه لم يعد ينظر الى عاتكة ، فعاد في الأثر فجلس معها وترك التجارة ، فلما كان يوم جمعة وهو معها إذ فاتته الصلاة وهو لا يدري وجاء أبوه فوجده عندها فقال له أجمعت ، فقال وهل صلى الناس، فقال قد ألهتك عاتكة عن التجارة فلم نهتم في ذلك ولم نقل شيئاً وقد ألهتك عن الصلاة طلقها فطلقها طلقة واعتزلت ناحية ، فلما كان الليل قلق قلقاً شديداً فأنشد

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق وما ناح قمري الحمام المطوّق
لها منطق جزل ورأي ومنصب وخلق سوى في حياء ومصدق
فلم أرى مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير شيء يطلق

وكان أبو بكر على سطح يصلي فسمعه فرقّ له ، فقال ارجعها ، فقال

قد ارجعتها ، ثم أشرف على غلام له ، فقال له أنت حر وأشهد اني ارجعت عاتكة ثم ضمها اليه وأعطاها حديقة على أن لا تتزوج بعده فلما قتل بالطائف رثته بأبيات منها

وآليت لا تنفك عيني حزينة ... عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
فالله عيناً من رأى مثله فتى ... أكرّ وأحمى في الهياج واصبرا
اذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... الى الموت حتى يترك الجون أشقرا

وتزوجها عمر بعد ان استفتى علياً في ذلك ، فأفتى بانها ترد الحديقة الى أهله وتتزوج ففعلت فذكرها علي بقولها ، وآليت لا تنفك البيت ، ثم قال كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، ثم تزوجت بعده بالزبير وبعده بالحسين بن علي ، حتى قال ابن عمر من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة وخطبها علي فقالت اني لأضن بك عن القتل وخطبها مروان بعد الحسين ، فقالت ما كنت متخذة حموا بعد رسول الله ﷺ .

ومنهم ما حكاه معبد المغني

قال بينما أنا جالس إذ طرق بابي فقلت للغلام أخرج فانظر من بالباب ، فخرج وعاد مستأذناً، فأذنت فدخل غلام فوضع بين يدي ثلثمائة دينار وقال غن لي

بالله يا طرفي الجاني على كبدي ... لتطفئن بدمعي لوعة الحزن
لا لا أبو حن حتى يحجبوا سكني ... فلا أراه ولو أدرجت في الكفن

فعملت لها لحناً شجياً وغنيته به فاغمى عليه فنضحت عليه الماء ، فلما أفاق جعل يقبل يدي ورجلي على أن أعيد الصوت فقلت أخشى أن تموت فقال من لي بذلك فغنيته الصوت فخر مغشياً عليه فلم أزل أنضحه بالورد

والطيب حتى أفاق فوضعت الدنانير بين يديه ، وقلت خذها وامض عني ، فقال لك مثلها ان أعدته فشرهت عيني ، فقلت له ان أقمت عندي وأكلت طعامي حتى تقوي نفسك واخبرتني بقصتك اعدته ففعل وحدثني انه خرج غب سماء وقد سال العقيق مع فتية الى منتزه فاذا هم بنسوة بينهن فتاة قد فضحت الشمس بعينين لا يرندان الا باقتناص النفس فأوقعت به وعاد مسلوب العقل فأقام لا يعرف لها خبراً حتى كاد أن يقضي عليه فقالت له قرابته ، لا بأس عليك اذا أربع الوقت خرجنا بك ولا نعود الا بخبرها ، قال فلما جاء الابان خرجنا الى المنتزه ، فإذا نحن والنسوة كفرسي رهان فقلت لبعض قرابتي قولوا لهذه الجارية لقد أحسن من قال

رمتني بسهم أقصدالقلب وانثنت وقد غادرت جرحاً بـه وندوبا

فقالت الجارية قد أحسن من أجاب

بنا مثل ما نشكو فصبراً لعلنا نرى فرجاً يشفي السقام قريبا

فأمسكت عن الجواب وتبعتها حتى عرفت المنزل فكنا نجتمع ونتحادث الى ان علم أهلها فحجبوها وخطبتها فامتنعوا محتجين بالشهرة فها أنا على ما ترى . قال معبد فغنيته الصوت ، ومضى فلما حضرت مع جعفر غنيته إياه فطرب وسأل عنه فأخبرته القصة فأمرني باحضاره فأحضرته اليه فطيب قلبه وذهب الى الخليفة فحدثه بالحديث ، فاستحضرنا جميعاً وطلب أن أغنيـه الصوت فغنيته فطرب وكتب الى عامله على الحجاز باحضار الرجل وأهله ، فلما حضروا أمهرها الخليفة وزوجها منه

(ومنهم رجل عذري) دخل على معاوية في جمع ، فلما أخذ كل مجلسه قام فأنشد

معاوي يا ذا الحلم والفضل والعقل وذا البر والاحسان والجود والبزل
أتيتك لما ضاق في الأرض مسلكي وانكرت مما قد أصيب به عقلي

ففرج كلاك الله عــني فانني لقيت الذي لم يلقه أحــد قبلي
وخذ لي هداك الله حقي من الذي رماني بسهم كان أهونه قتلي
وكنت أرجى عدله إذا أتيتــه فاكثر تردادي مع الحبس والكبل
فطلقتها من جهد ما قد أصابني فهـــذا أمير المؤمنين من العدل

فاستدناه وقال له ما شأنك ، قال تزوجت ابنة عمي وكانت من المبررات في الجمال والحياء ، فأنفقت عليها الى ان أملقت ، فرفع أبوها القصة الى ابن أم الحكم فضيق عليَّ السجن والقيود حتى طلقت كارهاً ، فأعطى أباهـــا عشرة آلاف درهم وتزوج بها فأتيتك مستغيثاً بعدلك ، فكتب معاوية اليه يغلظ عليه ويأمره بالتخلي عنها ، ويقول في آخر الكتاب

ركبت ذنباً عظيماً لست أعرفه فاستغفر الله من جور امرىءٍ زاني
قد كنت تشبه صوفياً له كتب من الفرائض أو آيات فرقان
حتى أتاني الفتى العذري منتحباً يشكو إليَّ بحق غير بهتـــان
أعطى الإله عهوداً لا أخيس بها أولا فبرئت من ديني وإيمـــاني
ان أنت راجعتني فيما كتبت به لأجعلنـك لحماً بين عقبان
طلق سعــاد وفارقهـــا بمجتمع واشهد على ذاك نصر أو ابن ظبيان
فما سمعت كما بلغت من عجـــب ولا فعالك حقاً فعل انسان

فلما وقف عليه ، قال وددت لو خلي بيني وبينها سنة ، ثم عرضني على السيف ثم طلقها فأخرجها ، فلما وصلت الى معـاوية وقد تعجب الناس من حسنها ، وقالوا هذه لا تصلح لاعرابي ، إنما تكون لأمير المؤمنين فعجب بها ثم استنطقها ، فإذا هي فتنة فقال له هل لك عوض عنها ، قال نعم اذا بانت رأسي عن بدني ، ثم أنشد

لا تجعلني والأمثال تضرب بي كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاد على حران مكتئب يمسي ويصبح في هم وتذكار
قد شفه قلق مـــا مثله قلق وأسعر القلب منه أي أسعار

والله والله لا أنسى محبتهـــا حتى أغيب في رمس وأحجار
كيف السلو وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صبار

فغضب معاوية من ذلك وخيرها بينه وبين ابن أم الحكم وبين ابن عمها ، فأنشدت

هذا وان أصبح في اطمار وكان في نقص من اليسار
أكبر عندي من أبي وجاري وصاحب الدرهم والدينـار
أخشى إذا غدرت حر النار خل سبيلي مـا به من عـار
لعلنـــا نرجـــع للديـــار وان عسى نظفر بالأوطار

فقال خذها لا بارك الله لك فيها وأمر أن تقيم الى تمام العدة ، فلمـــا انقضت دفعها اليه مع ناقة وعشرة آلاف دينار.

* * *

و (منهم) ما حكاه في منـــازل الأحباب عن بعض الحمدونية ، قال صحبت المتوكل الى الشام ، وكنت مغرماً بالفراديس لظرفها ، فحين بلغناها قال المتوكل هل لك في ان تتصفح الكنائس والرياض فتتنزه فيها ، فقلت نعم ، فأخذ بيدي وجعلنا نستقري الأماكن ونشاهد ما فيها من العجائب ، وحسن ثياب النصارى ، حتى خلوت براهب الكنيسة فجعل الخليفة يسأله عن كل من يمر ، حتى أقبلت جـارية لم يرمق أحسن منهـا ، وبيدها مجمرة تبخر فسأله عنها فقـال هي ابنتي ، قال ما اسمها قال شعانين ، فقـال لها المتوكل يا شعانين اسقني ماء ، فقالت يا سيدي ليس هنا الا ماء الغدران ، وانا لا استنظفه لك ولو كانت حياتي ترويك لجدت بها ، وأسرعت بكوز فضة فأومأ إليّ ان اشربه فشربته ، ثم قـــال لها ان هويتك تساعديني ،

فقالت أنا الآن بإمرتك واما اذا صدق المحب في المحبة فما أخوفني من الطغيان أما سمعت قول الشاعر

كنت لي في أوائل الأمر حبا　　ثم لما ملكت صرت عدوّا

أين ذاك السرور عند التلاقي　　صـــار مني تجنبا ونبوا

فطرب حتى كاد يشق ثوبه ، ثم قال لها هبيني نفسك اليوم فصعدت بة الى غرفة مشرفة على الكنائس ، وجاء الراهب بخمر لم ير مثله وعاف المتوكل طعامهم فاستحضر أطعمة من عنده ، فلما أخذ منه الشراب أحضرت آلـه وغنت

يا خاطباً مني المودة مرحبا　　روحي فداؤك لا عدمتك خاطبا

أنا عبدة لهواك فاشرب واسقني　　واعدل بكأسك عن جليسك اذ أبى

قد والذي رفع السماء ملكتني　　وتركت قلبي في هواك معذبا

فارغبها حينئذ فأسلمت وتزوجها فكانت من النساء عنده

* * *

و (يقرب) من ذلك ما حكي عن الوليد بن يزيد انة عشق نصرانية ، وراسلها فأبت عليه فكاد ان يطيش عقله فتنكر يوم عيد للنصارى ، وبايع صاحب بستان تتنزه فيه بناة النصارى فأدخله ، فلما رأته قالت للبواب من هذا ؟ قال لهـا مصاب ، فجعلت تمازحه حتى اشتفى بالنظر اليهـا ، فقيل أتدرين من هذا ؟ قالت لا ، قالوا لها هو الخليفة ، فأجابت حينئذ وتزوّج بها وفيها يقول

أضحى فؤادك يا وليد عميداً　　صباً قديماً للحسان صيودا

من حب واضحة العوارض طفلة　　برزت لنا نحو الكنيسة عيدا

ما زلت أرمقها بعيني وامق   حتى بصرت بها تقبل عودا
عود الصليب فويح نفسي من رأى   منكم صليباً مثله معبودا
فسألت ربي أن أكون مكانه   وأكون في لهب الجحيم وقودا

وفي ذلك يقول ايضاً لما اشتهر أمره بها

ألا حبذا سعدى وان قيل انني   كلفت بنصرانيـة تشرب الخمـرا
يهون علينا أن نظل نهـارنـا   الى الليل لا أولى نصلي ولا عصرا

وكان يقال لم يبلغ مدرك هذا المبلغ لأنه لم يطلب الا ان يكون صليباً في الزنار .

* * *

و (مثل) ذلك ما حكي عن ابن العباس بن المفضل انه عشق نصرانية ، بدير سرماجيس فكان لا يفارق البيع شغفاً بهـا، فوجدها يوماً في بستان فجلست معه أسبوعاً فقال في ذلك

رب صهباء من شراب المجوس   قهوة بابليـة خنـدريس
قد تجليتها بنـاي وعـود   قبل ضرب الشماس بالناقوس
وغزال مكحـل ذي دلال   ساحر الطرف سامري عروس
قـد خلونـا بظبيـة نجتليـه   يوم سبت الى صباح الخميس
بين ورد وبين آس جنـى   وسط بستان دير سرماجيس
يتثنى في حسن جيد غزال   في صليب مفضض ابنوس
كم لثمت الصليب في الجيد منها   كهـلال مكلل بشموس

●*●

و (يقرب) من ذلك ما حكاه الصلاح الصفدي في تاريخه ، قال رأيت بحماة رجلاً وافر الحظ من الخط وقد أوثقه المؤيد ليكتب عنده ، فكان لا يمكنه من الخروج فحكى انه علق نصرانية بشيزر فكان يكتب الى المغرب بحماة ثم يذهب اليها فيجلس معها الى الصباح ويأتي وأقام على ذلك طويلاً ، وانها قالت له يوماً ان أحببتني فاكو على رأسك صليباً ففعل وأنا رأيته .

●*●

و (منهم الشحمي) وهو رجل من فزارة أو هو على زبالة ، عشق ابنة عمه وكلف بها وأبى عمه أن يزوجه بها فتسوّر عليها ليلة فأحس به ، فقبض عليه وأتى به الى خالد القسري فأقام جماعة فشهدوا انه سارق وسأله فأقر ليسترها فأمر بقطع يده فرفع أخوه الى خالد رقعة يقول فيها

أخالد قد وطئت والله عشوة ... وما العاشق المظلوم فينا بسارق

أقر بما يأته المرء انه ... رأى القطع خير من فضيحة عاتق

ولولا الذي قد خفت من قطع كفه ... لألقيت في أمر له غير ناطق

اذا مدت الكعبان في السبق للعلا ... فأنت ابن عبد الله أول سابق

فتجسس خالد على الأمر فلما استصحه أحضر أباها وأمره ان يزوجها من الغلام فأبى ، فأجبره ودفع المهر من عنده

ومنهم محمد بن صالح العلوي

قال لما خرجنا على المتوكل اخذت انا واصحابي قافلة الحاج فجمعنا مـالاً ومتاعاً لا يحصى ، وكنت قد جلست على كرسي واصحابي يجمعون إليّ المال إذا انا بامرأة قد رفعت سجاف هودج فأضاء منها الموضع ولا اضاءته بالشمس فقالت أين الشريف صاحب السرية فلي اليه حاجة قلت انه يسمع كلامك ، فقالت انا حمدونية بنت عيسى ابن موسى تعـلم مكاننا عند الخليفـة ، وانا اسألك ان تأخذ مني ثلاثين الف دينار مع اني اعطيتك ما في يدك ، ولكن اسألك بفضلك ان لا يكشف لي أحد وجهاً

فناديت اصحابي ، فلمـا اجتمعوا قلت من أخذ منكم من هـذه القـافلة عقالاً آذنته بحرب ، فردوا حتى الأطعمة وخفرتهم الى المأمن فلما ظفر بي الخليفـة وحبسني بسر من رأى دخل على السجان يومـاً ، فقال ان بالباب امرأتين من أهلك يريدان الدخول عليك ، ولولا ان دفعتا إليّ دملج ذهب ما أذنت لهما ، فقد منع الخليفة أن يدخل عليك أحد

فخرجت فاذا انا بها مع امرأة وجارية تحمل شيئاً، فلما بصرت بي قالت أي والله هو ، وبكت لما انا فيه ثم قبلت قدمي وقالت لو استطعت أن أفديك بنفسي لفعلت ، ولكني لا أقصر في خلاصك ودونك هـذه النفقة ، ورسولي يأتيك في كل يوم بما تريد حتى يفرج الله عنك، ودفعت إليّ خمسمائة دينار وثياباً وطيباً وطعاماً ، وانصرفت وقد أضرمت بقلبي نار أقدحتهـا النظرة الأولى ، فأنشدت

طرب الفؤاد وعاودت احزانه ... وتشعبت بشعابه اشجانه
وبدا له من بعدما اندمل الهوى ... برق تألق موهناً لمانه
يبدوا كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرى متمنعاً أركانه
فبدا لينظر أين لاح فلم يطق ... نظرا اليه وصده سجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ماسحت به اجفانه
يا قلب لا يذهب بحلمك باخل ... بالنيل باذل تافه منانه
واقنع بما قسم الاله فأمره ... ما لا يزال على الفتى اتيانه
والبؤس ماض لا يدوم كما مضى ... عصر النعيم وزال عنك أوانه

ولم يزل رسولها يعاودني بالإحسان وملاطفة السجان الى ان خرجت وعظم أمري عند الخليفة، فخطبتها فامتنع فكان سجن هواها أعظم عليّ من السجن فلم أر الا ان أتيت ابراهيم بن المقتدر فأخبرته بذلك وكان أبوها صنيعته، فركب اليه فلم يفارقه حتى زوجني بها ولابن صالح فيها وفي ابراهيم مدائح كثيرة تركتها.

ومنهم جعد بن مهجع العذري

قال عمرو بن أبي ربيعة انه كان فتى مغرماً بمحادثه النساء ، وحفظ طرف الأخبار وملح الأشعار مع انه غير عاهر الخلوة ولا سريع السلوة ، وكان يحضر الموسم فتقصده الناس لتسمع منه فانقطع سنة ، فسألت عنه العذريين ، فقال لي رجل تريد ابا المسهر ؟ قلت نعم إياه اعني ، فتنفس الصعداء ، ثم قال قد أصبح والله كما قال

لعمرك ما حي لا سماء تاركي صحيحاً ولا أقضي به فأموت

قلت وما به ؟ قال مثل ما بك من تيهكما في الضلال . قلت فمن انت ؟ قال اخوه ، قلت كأنك وإياه على طرفي نقيض ثم انطلقت أقول

أرائحة حجاج عذرة روحهم ولما يرح في القوم جعد بن مهجع
خليلان نشكو ما نلاقي من الهوى متى ما اقل يسمع وان قال اسمع
فلا يبعدنك الله خلا فانني سألقى كما لاقيت في الحب مصرعي

فلما كان الموسم من قابل وانا بعرفة رأيت شاباً لم تبق الا رسومه ، فعرفته بناقته فسلمت عليه وسألته عن حاله ، فشكا إليّ ما به فقلت له ان هذا دعاء فادع الله ان يزيل ما بك ، فلم يزل يدعو حتى الغروب فسمعته يقول

يا رب كل غدوة وروحه من محرم يشكو الضحى ولوحه
انت حسيب الخصم يوم الدوحه

فقلت له وما الدوحة قال . اذا انصرفنا حدثتك ، فلما انصرفنا حدثني ان له أخوالاً من كلب وانه حول ما له اليهم خشية التلف ، فأقام معهم وانه خرج يوماً على فرس وقد صحب شراباً فاشتد الحر ورفعت له دوحة فقصدها ونزل تحتها ، فما استقر حتى بان له شخص عليه درع أصفر وعمامة سوداء ، يطرد منحلة واتانا فقتلها ، وقصد الدوحة ونزل بها فحادثته فخلب عقلي لفظه فدعوته الى الشراب فشرب وقام ليصلح من شأن فرسه فتزحزح الدرع عن ثدى كحق العاج فقلت امرأة انت ؟

قالت نعم ، ولكن شديد العفاف حسنة الأخلاق والمفاكهة فتحادثنا ساعه وأخذها النوم فوالله لقد هممت بهجر العفة لما داخلني ، ثم راجعت المروءة فلما انتبهت وعزمت على الذهاب سألتها عن الزيارة فذكرت ان لها اخوة شرسة وأب كذلك ، ثم مضيت وها انا كما ترى فقلت ثبت نفسك ، فاني موصلك الى مطلوبك ، ثم قمت فشددت على ناقتي وصحبت الف دينار ومطرف ذو قبة خضراء من ادم ، ومضينا حتى نزلنا بالشيخ فأحسن ملقانا فقلت له قد أتيتك خاطباً قال فوق الكفاءة انت والمرغوب في مثله فقلت لم أخطب الا لصاحبي وهو ابن اختكم فقال الحسيب الكريم ولكن أخبرها بينكما قلت ما اسمها فأومأ صاحبي الى ان ادعه ، فقلت افعل فخبرها ففوضت الأمر إلى عبد الله فزوجتها من صاحبي وامهرتها الفاً وكسوت الشيخ المطرف وسألته ان يبني بها من ليلته ففعل وجئته من الغد فقلت كيف كانت ليلتك وكيف وجدت صاحبتك قال ابدت لي كثيراً مما اخفته عني قديماً وسألتها عن ذلك فأنشدت

كتمت الهوى اني رأيتك جازعاً   فقلت فتى بعد الصديق يريد

فان تطرحني أو تقول فتية   يضير بها برح الهوى فتعود

فوريت عما بي وفى الكبد والحشا   من الوجد برح فاعلمن شديد

ومنهم ما حكاه اسدي وهي من العجائب المستلطفة

قال ضلت لي ابل فطلبتها في قضـاعة حتى اذا دهمني الليل أمسيت في بيت تفرست انه كفؤ للضيف فناديت أهله فلبتني امرأة كالشمس جمـــالاً ، وقالت انزل على الرحب ، وأجلستني عند نار فاصطليت وأتتني بعشاء كثير فأكلت وهي تحادثني واذا ابل كثيرة قد أقبلت الى البيت وقد أقبل شخص فبادرت اليه ومعها ولد تلاعبه فتناوله وجعل يلثمه وانا أظنه عبداً لقباحته حتى جلس الى جانبها فقال لها ممن الضيف قالت أسدي فعلمت انه زوجها ، فجعلت أتأمل ما بينهما من المباينة ففطن لذلك فقال كأنك تعجب منا قلت إي والله وأي العجب قال أحدثك بوصولها إلي قلت ما أشوقني الى ذلك قال أعلم إني كنت سابع سبعة أخوة إذا رأيتني ظننتني عبدهم وكانوا يطرحوني للرعي ونحوه ، فضل لنا بعير فقالوا امض في طلبه ، فقلت ما انصفتموني فقال أبي اذهب يا لكع والا جعلته آخر أيامـك وتهددني بالضرب فمضيت وأنا على أسوأ حالة من البرد والجوع ، فدفعني المساء الى عجوز عليهـــا سمة الخير والشرف ، والى جانبها هذه العزبة ، فجعلت تسخر بي وتقول

هل لك اذا نام الناس أن تدخل عـليّ فأتحدث معك فاني لم أر أحسن منك فقلت دعيني من هذا ، وأقبل أبوها واخوتها سبعة فناموا بازاء الخيمة فأغراني الشبع والدفء فدخلت الستر ، فلما شعرت بي قالت من تكون ؟ قلت الضيف ، قالت أخرج لا حيـــاك الله ولا صبحك ، فخرجت فزعاً ، فتلقاني كلبهم يريد أن يأكلني وأنا أرده بعصاي حتى علق بجبة صوف عليّ

فتجاذبنا حتى سقطت أنا وإياه في حفرة لا ماء فيها وكانت الصبية شعرت بذلك فأقبلت حتى اذا بصرت بي قالت

وددت والله أن اجعلها قبرك لولا خشية الضرر، ثم أدلت لي حبلا وقالت لي ارق ، فحين قاربت فم الحفرة انهارت من تحت أقدامها ، فسقطنا جميعاً

فلما كان الصباح وافتقدوها فلم يجدوها وكان أبوها عارفاً بما حصل فأقبلوا بالسيوف والأحجار على قتلنا فقال أبوها اني لاعرف من ابنتي ما لا ريبة فيه ، فأمسكونا وأخرجونا فأقبل عليّ أبوها فقال أفيك خير لأزوجك بها اتقاء الشهرة ، فقلت حين شممت الحياة وهل عندي الا الخير ، فزوجني بها على خمسين بكرة وامة وعبداً ، ورجعت الى أبي فاخبرته بذلك فأحضرها واقبلت بها اليهم فأخذوها وبنيت بها وها هي تسمع ما أقول

*

(ومن الصنف الثاني) ما حكى عن علي رضي الله عنه انه كان له مؤذن شاب وكان عنده جارية، وكان إذا رآها المؤذن يقول لها اني أحبك فاخبرت علياً بذلك فقال لها قولي له وانا ايضاً أحبك ، فماذا تريد ؟ فقالت له ذلك فقال اذاً نصبر حتى يوفينا أجورنا من يوفي الصابرين أجرهم . ومضت وأخبرت علياً فدعا به وزوجه منها

*

وحكى عن عبد الله بن جعفر انه كان يحب جارية فبلغه انها تهوى عبداً من عبيده ، فقال لها في ذلك فقالت أعيذك بالله من هذا فاقسم عليها أن تصدقه فاطرقت ساكتة فزوجها منه ثم داخله من حبها ما كاد أن يذهب

عقله ، فدعا الغلام فقال له هل تنزل عنها بعشرة آلاف درهم . فقال ولا مائة الف . فقال بارك الله لك فيها ، فلم يكن إلا قليل ومات العبد فاعادها ابن جعفر ، وقيل انه حين دخل بها أنشد :

رضيت بحكم الله في كل امره وسلمت امر الله فيه كما مضى
بلاني وابلاني بحب دنية وصبرني حتى انمحى الحب فانقضى
لعمري ما حبي بحب ملالة ولا كان حبي زائلاً فتنقضا
ولكن حبي معه دل يزينه ويعرض احياناً اذا الحب اعرضا

*

حكى الرياشي قال اشترى بصري جارية على أرفع ما يكون من الجمال والفصاحة ، فكلف بها وكان مثرياً ، فانفق عليها ما في يده حتى اذا املق ولم يبق معه شيء اشارت عليه ببيعها شفقة عليه

فلما حضر بها السوق أخذت الى ابن معمرة ، وكان عاملاً على البصرة ، فاشتراها بمائة الف درهم ، فلما قبض المال وهمّ بالانصراف أنشدت

هنيئاً لك المال الذي قد حويته ولم يبق في كفي غير التذكر
أقول لنفسي وهي في غشى كربة أقلى فقد بان الحبيب أو أكثرى
اذا لم يكن للأمر عندي حيلة ولم تجدي شيئاً سوى الصبر فاصبري

فاشتد بكاء مولاها وانشد

فلولا قعود الدهر بي عنك لم يكن يفرقنا شيء سوى الموت فاصبري
أروح بهم في الفؤاد مبرح أناجي به قلباً طويل التفكر
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا وصل الا ان يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر للبصري خذها ولك المـال فانصرفا راشدين ، فوالله لا كنت سبباً لفرقة محبين .

*

وحكى عن ابن دأب انه مرض مرضاً شديداً وطال به الأمر فدعوا له أطباء الروم فعالجوه بضروب من العلاج فلم يؤثر فيه شيء فأمروا أهله أن يوكلوا به امرأة تسقية من الخمر دون السكر لعله يبوح بما عنده ، فارسل اليه عمه جارية ، فلما سقته وغنت عنده ، أنشد يخاطب الجارية المغنية وحاضنة كانت له يقول :

دعوني لما بي وانهضوا في كلاءة　　من الله قد أيقنت اني لست باقيا
وإذ قد دنا موتي وحانت منيتي　　وقد جلبت عيني إليّ الدواهيا
أموت بشوق في فؤاد مـــبرح　　فيا ويح نفسي من به مثل ما بيا

فأعلموا عمه بذلك فرحمه ، وبعث اليـــه بجارية ظريفة كثيرة الأدب فاستخرجت ما عنده بلطف ، فأخبرها انه رأى جارية أخته في نومه فعشقها وأ- ابه هذا الحال ، فاعلمت اخته فوهبت له الجارية فبرىء من علته

*

وحكى رجل ، قال عشق عبد أسود لصديق لي بالمدينة جارية لرجل ايضاً ، وكان يواصلها سراً ، فلما علم مولاها جاء الى مولى العبد فاخبره بذلك فضرب العبد وسجنه ، فتوله وطار عقله فدخلت عليه يوماً فقلت له ما هذا الحال قد فضحتنا بهذه السوداء فهل عندها ما عندك فبكى وانشد

كلانا سواء في الهوى غير انها　　تجلد أحيـاناً ومـــا بي تجلد
نخـاف وعيد الكاشحين وإنمـا　　جنوني عليها حين انهى وأوعد

فخرجت واعلمت مولاه فحلف لا يبيتن حتى يجمع بينهما فاشتراها باثني عشر ديناراً وزوّجها منه

*

وحكى عن ابن جعفر ايضاً انه أحب جارية عنده اسمها عمارة وحباً شديداً فكان لا يستطيع فراقها سفرا ولا حضراً ، فقدم على معاوية سنة من السنين لأخذ حقه فزاره يزيد فغنت الجارية بحضرته ، فأخذت بمجامع قلبه وتمكن حبها من نفسه وكان ذا دهاء فكتم أمرها

فلما أفضت اليه الخلافة استشار أهل سره في أمرها ، وانه لا يهنأ له قرار دونها . فقالوا له ان ابن جعفر عند الناس بمنزلة ، وتعرف ما كان عليه مع أبيك ، ولا نأمن عليك في ذلك ، فالزم المهلة واجتهد في الحيلة فاخذ في تدبير ذلك حتى ظهر له ، فاحضر رجلاً عراقياً معروفاً بالدهاء والحيل ، وأطلعه على أمره ، فقال له مكني مما اريد ، ولك عليّ ان آتيك بها ، فقال لك ذلك وسترى مني ما يسرك ، ثم أعطاه مالاً وثياباً وجواهر

وخرج العراقي كبعض التجار حتى نزل بساحة عبد الله بن جعفر وبلغه ، فاحسن ملتقاه ، وأخذ العراقي في التودد اليه ، فارسل اليه بقماش وجواهر وهدايا تزيد على الف دينار وساله قبولها ، فقبلها ونقله الى خواصه ، فزاد في الهدايا الى انْ صار من ندمائه

فاحضر الجارية ، فلما غنت أعجب بها العراقي حتى قال ما ظننت ان في الدنيا مثل هذه ، فقال له كم تساوي عندك ؟ قال الخلافة قال عبد الله تقول ذلك لتزين لي شانها وتطلب بذلك سروري قال يا سيدي انا تاجر جمع الدرهم الى الدرهم ولو بعتنيها بعشرة آلاف دينار لأخذتها ، قال قد بعتك قال اشتريت ، وقام العراقي فرحاً بما ظفر به ، وبات ابن جعفر متفكراً

فما أصبح إلا وقد جاء العراقي بالمال ، فقال له ابن جعفر انا كنت مازحاً فقال له يا سيدي أنت تعلم ان المزح في البيع جد وهذا لا يليق بمثلك وانت معروف بالكرم والصلات ، فكيف ترضى ان يشيع عنك مثل هذا .

وطال بينهما الكلام الى ان خدعه ، فاخرجها له وهو كالمجنون لا يملك نفسه ، فرحل بها من يومه ، وأقام ابن جعفر حزيناً باكياً لا يقر له قرار . فلما دخل العراقي الشام وجد يزيد قد مات ، فاجتمع بولده معاوية ، فقص عليه الخبر وكان صالحاً ، فقال له اخرج عني بها فلا ترني وجهك .

فخرج العراقي وكان قد قال للجارية ، انا لست من رجالك ، وإنما أخذتك للخليفة فاستترت فلم ير لها وجهاً ، فلما قال له معاوية ما قال جاء اليها وقال قد صرت لي ، ولكن استتري فاني معيدك الى مولاك ، ثم رحل بها حتى دخل على ابن جعفر .

فلما تلاقيا أخبره بالقصة وانه لم يكن تاجراً ولكن كان مطلوبه الجارية ليزيد وانه حين رآه قد هلك لم ير نفسه أهلاً لها ، فاعادها اليه ولم ير لها وجهاً ثم أخذها فسلمها اليه ، فلما تلاقيا وتعانقا خرا مغشيين ساعه ، ثم أدخلها ورفع منزلة العراقي حتى صار أعظم الناس عنده ووهب له المال ، وانصرف وأقاما على ما كانا عليه

× × ×

وحكى في الأغاني عن ابن أبي مليكة عن جده ، قال كان في المدينة رجل ناسك كثير العبادة، فمر يوماً بجارية تغني شعر أعشى بني قيس وهو:

بانت سعاد فامسى حبلها انقطعا واحتلت العود فالحدين فالفرعا

وانكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا

فهام حتى كاد ان يخرج عقلـه وذهب اليه عطاء وطاوس يلومـانه في ذلك فانشد

يلومني فيك اقوام أجالسهم فما أبالي اطار اللوم ام وقعا

وسمع ابن جعفر بذلك فاشترى الجـارية باربعين الف درهم ، ثم احضر الناسك وكان الصوت الذي سمعه من الجارية بتلحين عزة الميلاء فاحضرها وقال له تحب ان تسمع الصوت من صاحبته ، قال نعم فامرها فغنت فسقط مغشياً عليه

فقال ابن جعفر قد أثمنا فيه الماء الماء ، فأتى بالمـاء فجعل ينضحه حتى أفاق ، فقال له اسمعه من الجارية ، قال قد رأيت ما وقع لي منه مع من لا احبها فكيف منها فقال أتعرفها ؟ قال وهل اعرف غيرها ، فاخرجها له وسلمها اليه وقال هي لك والله ما رأيتها ، فقبـل يديه ورجليه وقـال قد أعدت عقلي واحييت نفسي ودعا له ، فقال يا غلام احمل معه مثل ثمنها مالاً وثياباً وطيباً يتطيب به فاخذ ذلك وانصرف

×××

وحكى انه كان ببغداد رجل من ذوي النعم ، فعشق قينه على أوفر ما تكون من الجمال والمعرفة بالغناء والضرب ، فانفق عليها ما معه حتى ضاق حاله ، فاشار عليه بعض اصدقائه ان ياذن لها في الغناء عند الناس فانهـا مطلوبة ويحصل له بذلك الثروة ، فغم لذلك واخبره ان الموت عنده اسهل من ذلك وقالت له الرأي ان تبيعني فتحصل من ثمني على غناك او أكون انا في ثروة فانه لا يشتري مثلي الا غني

فحضر بها السوق فاشتراها هاشمي من اهل البصرة بالف وخمسمائة ديناراً فلما قبض المال وتفارقا صار كل منهما على اقبح حال من البكاء ، واجتهد في

الإقـــالة ، قال فخرجت لا أدري الى اين أذهب إذ لا يمكنني الدخول الى البيت وقد أوحش منها فدخلت مسجداً فجعلت الكيس تحت رأسي ، فما انتبهت إلا وشاب قد أخذ الكيس فقمت لأعدو خلفه ، فاذا رجلي مشدودة فما تخلصت إلا وقد ذهب فاشتد ما بي فجئت فلففت وجهي والقيت نفسي في دجلة طالباً ان أغرق ، فانقذني الحاضرون ظـانين اني وقعت غلطاً ، فلما أخبرتهم بقصتي فمنهم من عنف ، ومنهم من رحم ، فخلا بي شيخ منهم فوعظني ، وقال لست أول من افتقر بعد غنى ، اما كفاك ذهـاب مالك حتى تذهب نفسك وتصير في النار ، فسكن ما بي قليلاً ثم عاودني القلق ، فأخبرت صديقاً لي فأعطاني خمسين درهماً ، وأشار على ان اخرج من بغداد فعسى ان أجد من اكتب عنده من الأكابر لحسن خطي

فعزمت على واسط لأن لي بهـا صديقاً من الكتاب فجئت فرأيت زلالاً مهيأ ، فطلبت النزول معهم فقالوا نحملك بدرهمين ولكن الزلال لهاشمي لا يريد معه غريباً فتزيا بزينا كأنك بعض الملاحين فوقع بقلبي ان الزلال للذي اشترى جاريتي فأتسلى حينئذ بصوتها فاشتريت الجبة ولبستها كالملاحين فما وقفت إلا وجاريتي قد اقبلت ومولاها فضربت لها ستارة ، فلما انحدروا وجاء العشاء وأكلوا وشربوا ، قال للجارية الى كم هذا الحزن والمدافعة عن الغناء أأنت أول من فارقت مولاها ، وألحوا عليها فأخذت العود وغنت

بان الخليط بمن علمت فادلجوا عمداً لقتلك ثم لم يتحرجوا
وغدت كان على ترائب نحرها جمر الغضى في ساعة يتأجج

ثم غلب عليها البكاء ونهضت ، فانتفضت وصرعت فنضحوا عليّ الماء ، وأذنوا في أذني فأفقت ولم يزالوا يتلطفون بها حتى عادت فغنت

فوقفت أنشد بالذين أحبهم وكان قلبي بالشفـــار يقطع
فدخلت دارهم أسائل عنهم والدار خالية المنازل بلقع

فشهقت فكادت تتلف وصرعت ، فقالوا كيف حملتم مجنوناً اطرحوه ، فلحقني أمر عظيم فتصبرت ، فلما شارف القـوم المنزل في بعض الطريق ،

أوقفوا الزلال وصعدوا يتنزهون ، وخلا الزلال فعمدت على غفلة الى العود فأصلحته على طريقة معروفة بيني وبينها

فلما رجعوا وكان الوقت مقمراً تلطفوا بها ، وقالوا ترين ما نحن عليه في هذا الوقت فبالله عليك الا ما انشرحت معنا ، فأخذت العود فشهقت شهقة منكرة ، ثم قالت هذا العود على طريقة كان يحبها مولاي ويضرب معي ، وانه لمعنا فقالوا لها والله لو كان معنا ما امتنعنا عن عشرته ليخف ما بك ، فقالت هو معنا لا محالة فقالوا الملاحين هل حملتم أحداً ، وأشفقت أن ينقطع السؤال

فقلت أنا يا سيدي فاحضرني ، وقال إني والله ما وطئتها وأنا رجل قد وسع الله عليّ ما أخذتها الا لسماع غنائها فكن معنا الى منزلنا فأعتقها ، وأزوّجك بهـا ولا أريد منك إلا أن تحضرها كل ليلة وراء ستارة فنسمع غناءها وننصرف

فقلت كيف أمنع ذلك عنك وأنت سبب حياتي ، فقال للجارية أرضيت بذلك ؟ قالت نعم ، وشكرته وزاد سرورها فجعلت تغني وأنا اقترح عليها الأصوات فتضاعف سرور الرجل ودمنا على ذلك حتى بلغنا نهر معقل ليلاً ونحن ثملون ، فصعدت حتى ربطت الزلال لقضاء الحاجة ، فأخذني النوم ولم يدروا بي حتى سافر ، فأفقت بحر الشمس فلم أجدهم ، وعدت الى المحنة ، فجاز بي سمارية فنزلت معهم الى البصرة فدخلتها لم أعرف بهـا موضعاً ولا أحداً ولم أكن سألت الرجل عن اسمه ولا موضعه

فرأيت رجلا من بغداد ماراً فقمت لأشكو اليه حالي، فقال اتبعني فتبعته حتى عرفت موضعه، وجئت الى بقال فأخذت منه ورقة لأكتب عن حالي الى الرجل فاستحسن البقال خطي واسترث حـالي وسألني عنه ، فلم أشرح له أكثر من انه لم يبق في يدي شيء ، فقال هل لك أن تكتب عندي في كل يوم بنصف درهم ومـا تحتاج اليه فتضبط مالي ، فأجبته فرأى بعد شهر

الزيادة بضبطي وحفظي ما كان يسرق له فزاد في اكرامي ، فزوّجني بعد حول بابنته وأشركني في ماله غير إني في خلال ذلك منكسر النفس حزين القلب

فلما كان ذات يوم رأيت الناس مجتـــازين بانواع الزينة فسألت عن ذلك فقيل عيد الشعانين للنصارى ، والناس تخرج للفرجة فوقع في نفسي أن أخرج معهم وان عسى ان أظفر بأصحابي ، فاستأذنت الرجل فاصلح لي ما أحتاج اليه ، وخرجت فما وصلت الا والزلال بعينه في أوساط الناس ، فلم أملك ان طرت اليهم فحين رأوني فرحوا بي وقالوا نحن منذ فقـــدناك ما شككنا انك غرقت

فخرجت الجارية من ثيابها وكسرت العود وجزّت شعرها. فلما وصلنا البصرة خيرناها فيما تريد ، فاختارت لبس السواد وتمثيل قبر تجلس عنده تبكي ، ثم أخذوني وأدخلوني عليها وهي على تلك الحالة ، فلما رأتني شهقت شهقة مـــا شككت في موتها

فلما أفاقت قال مولاها قد وهبتها لك ، قلت لا ولكن افعل ما تقدم من العتق والتزويج ، ففعل بالشروط السابقة وأعطاني ثياباً وخمسمائة دينار ، وقال هذا مقدار ما كنت أجريه عليك الى اليوم وهو مستمر لك فجئت الى البقال فاعلمته بذلك وطلقت ابنته وأقمت مع الجارية في أحسن حال .

* *

وحكى ان جعفر بن يحيى حين قدم البصرة مع الرشيد ، قال لاسحاق بن ابراهيم قد بلغني ان هنا جارية لم ير مثلها لكن لا يريها مولاها الا في بيته فاخرج بنا ننظر اليهـــا ، فخرجنا والنخاس مستخفين حتى طرقنا الباب فخرج شاب متغير اللون في ثوب خشن فادخلنا داراً خربة ، ففرش لنـــا

حصيراً وأجلسنا ورحل ، فخرجت جارية بذلك الثوب الا انها تفوق الشمس حسناً وجمالاً فأخذت العود وغنت:

ان يمس حبلك بعد طول تواصل   خلقاً وبيتك موحشاً مهجورا
فلقد أراني والجديد الى البلا   دهراً بوصلك راضياً مسرورا
كنت المنى وأعز من وطىء الحصى عندي وكنت بذاك منك جديرا

ثم غلبها البكاء حتى منعها الغناء ، فنهضت الى البيت تعثر في القميص ، فسمعنا لهما بكاء وشهيقاً ، ثم خفيت أصواتهما حتى ظننا انهما قبضا ، ثم خرج الشاب بالثوب بعينه ، وقال أشهدكم انها حرة وأريد أن تزوجوني بها ففعلوا وغم جعفر لفواتها ، وقال له ما حملك على هذا قال حديثي طويل ان شئت حدثتك به ، قال قل فقال انا ابن فلان ، وقد كنا من ذوي النعم وهـذا يعرف ذلك وأشار الى النخاس .

ثم قال وكانت هـذه الجارية لأمي فنشأت انا وإياها فادخلنا المكتب فبرعنا في الأدب وأخرجت هي لتعليم الغناء فلم أطق فراقها فصرت معها ، فلما برعت فيه طلبت أمي بيعها فايقنت بالموت فصدقتها الخبر فوهبتها لي وجهزوها لي ودخلت بها بعد ان امتنعت من تزويج بنات الأكابر وأظهرت الزهد والعفة كل ذلك لقصور شهوتي عليها ، والناس يظنونه عفة فأقمنا في أرغد عيش الى ان مات أبي فلم احفظ النعمة ، فانفقت الأموال وأكثرت من الهبة وأسرفت حتى لم يبق عندي الا هذا الثوب أتناوبه انا وإياها ، فاشفقت عليها فقلت لها حين دخل الخليفة الرأي اني أبيعك واعلم اني هالك أثر ذلك ، ولكني أختار ان تعيشي بخير

فلما عرضت عليكم ودخلت إلي ، قالت لو كان عندك مني ما عندي منك ما ذكرت بيعاً ، فقالت أتحبين ان أعتقك وأتزوج بك وتقيمي معي على هذا الحال . فقالت ان كنت صادقاً في الحب فافعل ، فخرجت وفعلت ذلك ، فعذره جعفر ، قال اسحاق فلما ركبنا قلت له انت تبزل الأموال

وتغنى المحاويج أفلا ترق لهذا ؟ قال بلى . ولكن قد غبت لفوت الجارية ، ثم التفت الى النخاس وقال كم صحبت من المال ؟ قال ثلثمائة الف دينار ، قال أدفعها اليه وأمره أن يأتيني غداً و

فلما أعطاه النخاس المال وأخبره ان الذي كان عنده جعفر وانه يدعوك اليه ، كاد ان يطير فرحاً وأقبل اليه من الغد وقد تزين فأخبر به الخليفة ، فأجرى عليه رزقاً وجعله من الكتاب ، لما رأى عنده من الظرف والأدب وأمر كلاً من العسكر أن يهاديه ففعلوا وأقام في النعم .

* *

وأغرب من ذلك ، ما حكى ان أندلسياً كان مغرماً بجارية يحبها حباً شديداً وانه أراد بيعها لوحشة ، فلما حقت الصفقة كاد أن يطير عقله فحكم المشتري في ماله فأبى فتشفع عنده باكابر بلدته فلم يجب ، فمضى الى الملك وأخبره بحاله ، فاحضر المشتري وشفع عنده وبذل له مالاً كثيراً فامتنع وادعى محبتها .

فلما رأى الأندلسي اليأس منها القى نفسه من شاهق فابهت الملك وأمر أن يتلقى فقدّر انه لم يصب بشيء وجيء به الى الملك ، فقال الله أكبر قد ظهر الحكم في ذلك ، ثم قال للمشتري قد رأيت ما فعل هذا من حبها فان كنت تحبها كما تقول فافعل كفعله فان عشت فانت أحق بها ، فقال افعل ثم همّ بذلك ورجع فأمر ان يلقي غصباً ، فلما حقق ذلك قال اعطيتـه إياها فاخذت منه واعيدت الى مالكها

* *

وحكى أن المامون افتتن بجارية من جواري أبيه الرشيد ، وكان يكتم

أمره وكانت من خواص الخدمة ، فبينا هي يوماً تصب على يديه وقد التفت إذ أشار لها المأمون بقبلة فغمزتة مشيرة بحاجبها الى انها خائفة ففترت بصب الماء ففطن الرشيد فحلف ان لم تخبره ليفتكنّ بها ، فأعلمته فنظر الى المأمون وقد كاد ان يقضي من الخوف فضمه وسكن ما به ثم قال له أتحبها ؟ قال نعم . قال قم فاختلي بها في هذه الخلوة ففعل ، فلما خرج قال له أنشد في هذه فأنشد

ظبي كنيت بطرفي عن الضمير اليـه
قبلته من بعيـــد فاعتل من شفتيـه
وردّ أخبـث ردّ بالكسر من حاجبيه
فما برحت مـكاني حتى قدرت عليه

* *

وحكى أن ابراهيم بن المهدي زمن اختفائه من المأمون مكث عند عمته عليه بنت المنصور ، وكان عندها جارية قد أحسنت تأديبها وتعليمها حتى صارت من الطف أهل زمنها فوكلتها بخدمة ابراهيم فعلقهـا وزاد به الوجد وهو يكتمه حياء حتى سكر يوماً فغنى

يا غزالاً لي اليـــه شافع من مقلتيه
والذي أجللت خديـــه فقبلت يديه
بأبي وجهك ما أكثر حسادي عليه
انا ضيف وجزاء الضيف إحسان اليه

ففطنت للطفها بما اراد فأخبرت مولاتها فوهبتها له ، فلما رآها مقبلة أعاد الصوت فقبلت رأسه فنهاها فاخبرته انها له فقرت عينه

* *

وحكى أن رجلا مكياً كان عنده جاريــة وكانت على أحسن صورة ، والطف هيئة قد كملت فوق حسنها بالبراعة بالغناء والضرب ، حتى ان الناس كانوا يقصدون الحج لينظروا اليها لأنه كان لا يخرجها إلا زمن الموسم يطلب فيها الزيادة .

وانه كان بمكة فتى ناسك قد عرف عند الناس بالعبادة فوقع عنده من حب الجاريه ما غير حاله وهيج بلبابه وانحل بدنه وأهاج شجنه ، فكان يقنع في كل سنة بالنظر اليها زمن الموسم ، ثم يمكث باقي السنة عليلاً في بيته. فدخل عليه صديق له فعاين من حاله ما حير قلبه ، وأطار لبه ، فتلطف به حتى عرف أمره ، وما هو عليه من أمر الجارية

ورغب اليه أن لا يفشي سره ، فخرج حتى اجتمع بمولاها فحدثه القصة فزينها وخرج بها كيوم الموسم ، فلما اجتمع الناس ، قال أشهدكم اني وهبت هــذه الجارية لهذا الفتى ، فقيل له كيف تفعل هـــذا وقد بذل لك فيها الأموال قال دعوني اني أحييت كل من على الأرض ، لأن الله يقول ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً .

* *

وحكى عن الحرث بن سليمان ، قال كنا بمجلس سليمان بن عبد الملك ، فأتاه سعيد بن خالد فقال له أنا شاك اليــك من ظلمني وانتقص حرمتي قال من قال موسى شهوات ، قال عليّ به فاحضر ، فقال له أنت شتمت هذا ؟ قال لا وأيد الله أمير المؤمنين إنما مدحت ابن عمه فاغتاظ ، فقال سليمان وعلام مدحته قال موسى يا أمير المؤمنين عشقت جاريه حتى كادت نفسي تتلف في حبها ولم أكن أقدر على ثمنها فشكوت حالي الى أصدقائي فلم يجبني أحد فشكوت اليه فاستمهلني ثلاثاً وأتيته وهو جالس فقال لغــلام عنده ، أخرج الوديعة فاذا بالجارية ، فقال هذه طلبتك . قات نعم ، فقال تسلمهــا

ثم قال للغلام أخرج ما عندي من النفقة فاخرجها فاذا هي مائة دينار فصرّها مع طيب في ملحفة ودفع الكل إليّ ، فقال سليمان وما قلت فيه فانشد :

أبا خالد أعني سعيد بن خالد اخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد
ولكنني أعني ابن عائشة الذي أبو ابويـــه خـــالد بن أسيد
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى فان مات لم يرض الندى بعقيد
دعوه دعوه انكم قد رقدتم ومـــا هو عن احسانكم برقود

فأحضره سليمان وقال أحق ما يقول عنك موسى ، قال قد كان ذلك . فقال كم عليك من الديون ؟ قال ثلاثون الفاً قال هي لك ومثلها وثلث مثلها قال موسى فلقيته صبيحة اليوم فقلت كم عندك من المال قال والله لم يبق منه شيء . قلت ففيم أنفقته ؟ قـــال في تفريج عن صديق واعطاء محتاج وصلة رحم

* *

وحكى عن الربيع ، قال سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول اشتريت جارية وكنت أحبها فأقول لها

ومن السعادة ان تحب وان يحبك من تحبه
ومن الشقاوة أن تحب ولا يحبك من تحبه

فتقول

ويصدّ عنك بوجهه وتلح أنت فلا تغبه

* *

وحكى عن ابراهيم بن ميمون، قال حججت فاذا انا بسوداء قائمة ساهية فانكرت حالها فمكثت ساعة ثم انشدت

أعمرو وعلام تجنبتني   أخذت فؤادي وعذبتكم
فلو كنت يا عمرو وأخبرتني أخذت حذاري فما نلتني

فقلت لها ومن عمرو ؟ قالت زوجي أوهمني انه يحبني حتى تزوجته ، وعندي من الحب له ما عنده لي ، فتركني ومضى الى جدة . فقلت هل لك أن اجمع بينكما ؟ قالت ومن لي بذاك ، فمضيت حتى وقفت بالساحل فصرت أنادي من يخرج من المركب يا عمرو وكانت قد وصفته لي بأنه أحسن ما أرى فاذا أنا بفتى على ما وصفت فانشدته الشعر فقال قد رأيتها قلت فما يمنعك منها ؟ قال والله عندي أضعاف ما عندها وإنما منعني الاكتساب . قلت فكم يكفيك في كل سنة ؟

قال ثلثمائة درهم فأعطيته ثلاثة آلاف درهم ، وقلت هذه بعشر سنين ، فاذا فنيت أو قاربت فاتني اوجه اليك بمثلها ، ثم جمعت بينهما فكان أعظم عندي من الحج .

* *

وحكى ان بعض التجار قدّم لأصدقائه طعاماً وفيه ديك ، وقال ابن الجوزي سكباج وأبى ان يأكل معهم فامتنعوا لأجله ، فقال كلوا فلولا أذى يلحقني منها لأكلت ثم عاود نفسه ، وقال أتحمل وآكل .

فلما فرغو وجيء بالغسول غسل يديه أربعين ، فقالوا له أبك وسواس ؟ قال لا ، ولكن هذا الأذى الذي قلت لكم وله حديث عجيب قالوا وما هو ؟ قال أوصاني أبي وكان من ذوي النعم ولا وارث له غيري ان أحسن

الانفاق والتكسب وأن أسبق الى السوق واتجر فيه فحفظت ما قال فبينا أنا يوماً في السوق سحراً ، وقد عرفني الناس بذلك فكان ربما يأتي ذو حاجة في وقت لا يجد غيري فأقضيها فاكتسبت بذلك مالاً وجاهاً

فبينا أنا يوماً جالس إذا بامرأة على حمار وخادم يمسكه فنزلت عندي ، فرحبت بها فرأيت نغمة وشكلا بهرني ، فقلت ماذا تريدين ؟ قالت ثياباً صفتها كذا فقلت إجلسي حتى يتكامل الناس وقد أذهبت عقلي وأطارت لبي ، فجمعت لها ثياباً بخمسة آلاف درهم ، فأخذتها وانصرفت ولم تعطني شيئاً ولم أفق من دهشتي ان أقول لها في ذلك ، ووقع عندي انها محتالة فقلت أبيع ما عندي وأعطي الناس وألزم بيتي

فمضى على ذلك اسبوع ، فبينا انا جالس إذ أقبلت على العادة فقمت وأجلستها ونسيت ما كان عندي فقالت قد أبطأنا عليك ، فقلت رفع الله قدرك عن هذا فأخرجت المال جميعه فأعطيته لأربابه مع ما ربحت في ذلك ثم طلبت ثياباً بألف دينار فأخذتها ومضت ، فعاودني ما مضى فأبطأت فقلت والله هذه حيلة أوفت خمسة آلاف درهم وأخذت الف دينار، ثم طالت غيبتها شهراً وطالبني الناس فعزمت على بيع عقاري ومالي أو قال بعت وأوفيت، وإذا هي قد أتت على العادة ونزلت عندي فأنسيت ذلك فأخرجت المال جميعه وطلبت غيره

فشاغلتها باحضار التجار . فقالت هل لك زوجة ، قلت لا والله وطمعت فيها فأخذت خادمها على خلوة وأرغبته في أن يكلمها فضحك وقال هي والله أعشق منك لها فرجعت وكلمتها في ذلك فضحكت وقالت الخادم يأتيك برسالتي

ومضت ولم تأخذ شيئاً إذ لم يكن بها حاجة من الأصل إلا العشق ، فما كان بعد أيام حتى جاء الخادم فأكرمته وشرح لي أنها مملوكة لأم المقتدر ، وقد رغبت في جعلها قهرمانة فلما تألفت بك مضت فشكت اليها حبك ورغبت اليها أن تزوجها بك ، فأبت دون أن تراك وقد أخذوا في حيلة

يدخلونك بها اليها فان تمت تمّ أمرك وهي ان تجلس الليـــلة بمسجد كذا فمضيت الية ، فلما كان السحر أقبل خدّام ومعهم صناديق فوضعوها وإذا أنا بالخادم والجارية فأدخلوني في صندوق منها وجعلوا في الباقي ثياباً وحملوها الى الدار فكلما جازوا بطبقة من البوابين يريدون أن يفتشوا ذلك فتمنعهم ، حتى عارض خادم وقال لا بدّ من تفتيش هذا الصندوق .

فأدركني الخوف حتى انساب معه البول مني ، فصاحت افسدت المتاع ، وكسرت عليه أواني ماء الورد فقال اذهبي فمضوا حتى أخرجوني في خلوة وجعلت تطعمني وتسقيني حتى اتتني يوماً فعرضتني على السيدة فرضيتني لها ، فاحتالت في خروجي وأمرتني بأن أتزين في احسن زينة الى باب الخلافة ، ففعلت فاخذوني واجلسوني في بيت وجعلوا يدخلون ويخرجون ويذكرون أن هذا وقت زفاف فلانة على البزاز ويذكرون صاحبتي ففرحت فرحاً أطار عقلي غير اني جعت جوعاً احرق احشائي ، واستطعمت الخدام فلم يطعموني لأنهم لم يعرفوني حتى جاء خادم يعرفني فشكوت اليه الجوع فقدم لي ديك فأكلت وغسلت يدي غسلاً ظننت معه النقاء

فلما خلوت بها رفستني وقالت عجبت كيف تفلح وانت عاميّ سفلة ، وهمت بالخروج فتعلقت بها واخبرتها القصة ، ثم قلت يلزمني صوم الأبد والحج ماشياً والطلاق والعتاق وصدقة مالي ان لا آكلها بعد اليوم الا واغسل يدي أربعين مرة فضحكت

ودعت بطعام وشراب فأكلنا وشربنا ، ولما مضى اسبوع اعطتني مالاً وأمرتني ان اشتري به داراً فاشتريت وتحولنـــا وقد صحبت نعمة عظيمة فأقمنا على احسن حال.

* *

وحكى التنوخي في المستجاد ونقله في نديم المسامرة ، قال حمل المأمون من البصرة عشرة قد رموا بالزندقة ، فلما اجتمعوا للنزول في السفينة ، جاء

طفيلي فنزل معهم ، وقال ما أظن هؤلاء اجتمعوا الا لوليمه ، فلما قيدوا ندم وعلم ان لا خلاص له . فحين ضربت اعناقهم وكان المأمون يعرفهم سأل عنه فقالوا لم نعرفه . فسأله فقال زوجتي طالق ان كنت أعرفهم أو أحوالهم ، وإنما رأيتهم مجتمعين فظننت انها وليمة.

فقال المأمون يبلغ التطفل باصحابه الى هذا ، عزروه لئلا يعود الى مثلها فقال ابن المهدي هبه لي يا أمير المؤمنين وأحدثك عن التطفل بحديث عجيب قال وهبته لك فحدثني قال يا أمير المؤمنين ركبت يومـــاً حتى مروت بموضع فشممت رائحة طعام وأبازير ما شممت مثلها قط ، ورأيت معصماً من الشباك أخذ بقلبي ايضاً فاشتهيت ان آكل منه واخذت في الحيلة إذ لم أكن أعرف احداً من اهل المكان ، فجئت الى خياط قريب من المنزل فسألته عن اسم صاحب المكان فقال لي عن اسمه ، وانه تاجر يحب عشرة مثله ، أيشرب الخمر ؟ قال نعم وأظن عنده اليوم جماعة من أصحابه.

فمكثت ساعة فاذا هم مقبلون ، فقال لي هؤلاء اصحابه ، فحركت دابتي حتى لحقت بهم فقلت قد ابطأتم وفلان ينتظركم ثم دخلنا وهم يظنون اني من جماعة صاحب المنزل وهو يظن اني معهم فأكرمني كل منهم ، وقدّم الطعام فأكلنا فقلت في نفسي هذا الطعام قد قضيت منه شهوتي وبقي الكف والمعصم ، ثم رفع الطعام ووضع الشراب وجاءت جارية ومعها عود فغنت :

توهمها طرفي فأصبح خدّهـــا وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحتهـــا كفي فآلم كفها فمن ضم كفي في أناملها عقر

فهيجت بلابلي وطربت لحسن شعرها ثم غنت ايضاً :

أشرت اليها هل عرفت مودتي فردّت بطرف العين اني على العهد
فحدت عن الاظهار عمداً لسرها وحادت عن الاظهار ايضاً على عمد

فصحت وطربت وطرب القوم حتى لم نملك نفوسنا ثم غنت ايضاً

أليس عجيباً أن بيتاً يضمني ... وإياك لا نخـــلو ولا نتكلم
سوى أعين تبدي سرائر نفس ... وتقطيـع أنفاس على النار تضرم
اشارة أفواه وغمز حواجب ... وتكسير أجفان وكف تسلم

فحسدتها على الحذق والاصابـــة غير اني قلت بقي عليك شيء ، فرمت العود وقالت متى كنتم تحضرون في مجالسكم البغضـــاء فتألموا مني فقلت قد فاتني ما أملت ان لم ائتلاف قلوبهم فقلت هل عندكم عود ؟ قالوا نعم ، وأحضروه فأحكمت إصلاحه وغنيت

مـــا للمنـازل لا تجيب حزينا ... أصممن أم قدم البـــلا فبلينـا
لا بل بلين فهجن داء ساكناً ... لمتـــيم واثرن منه دفينـــا
راحوا العشية روحة مذكورة ... ان متن متنـــا أو حيين حيينا

فقبلت عند ذلك يدي وقالت معذرة اليك ، وزاد القوم في إكرامي ، فلما رأيت مزيد بسطهم اندفعت أيضاً فغنيت

أفي العدل أن تمسين لا تذكرينني ... وقد سجمت عيناي من ذكراك الدما
الى الله أشكو بخلها وسماحتي ... لها عسل مني وتبذل علقمـــا
فردّي مصاب القلب أنت سلبته ... ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما
الى الله أشكو انهـــا أجنبية ... واني لها مـــا عشت بالود محرما

فرأيت من طرب القوم ما فارقوا به عقولهم ، فأمسكت عنهم خشية أن يتلفوا ساعتئذ ثم غنيت

هـــذا محبك مطوي على كمده ... وجدا مدامعه تجري على جسده
له يـــد تسأل الرحمن راحته ... مما بـــه ويد أخرى على كبده
يا من رأى كلفـــاً في حبه دنفاً ... كانت منيته في عينه ويـــده

فقالت الجارية هذا والله الغناء لا ما نحن فيه وسكر القوم حتى غابوا ، الا صاحب المنزل لجودة شربه ، فأمر بحملهم الى منازلهم وخلاني ، فسألني من أنا فأخذت أروي فأقسم عليّ الا ما عرّفته بنفسي، وقال قد ذهب أكثر عمري هدراً اذا لم أعرف مثلك .

فلما عرّفته بنفسي وثب قائماً ، وقال لا أقضي باقي ليلتي في جدمتك الا قائماً ، فأقسمت عليه أن أجلس ، فجلس وأخذ يستخبرني عن سبب مجيئي ، فأخبرته القصة حتى انتهيت الى أنه لم يبق عليّ إلا المعصم ، فقال تناله ان شاء الله تعالى .

وعرض عليّ جواريه فلم أر الغرض ، فقال يا سيدي لم يبق عندي إلا أمي وأختي ، ابدأ باختك فأتى بها فاذا هي الغرض ، فقلت ها هي ، فقال والله أقررت عيني ، ثم دعا بالشهود من ليلته فعقد لي عليها وأدخلني بها ، فلما أصبحنا حوّل معها متاعاً لا يوجد مثله الا عندك يا أمير المؤمنين ، وهذا ولدي فلان منها .

القسم الخامس

في ذكر من وسموا بالفساق من العشاق

وهؤلاء هم الذين وقعوا في المعاصي أوهموا بها فسموا الفساق لجلالة العشق وعظمته عند أهله ، فانهم يرون تصوّر السلوّ معصية بل تصوّر خطور غير المحبوب في الذهن كذلك ولا نعلم أحداً حقق هذا المناط للسالكين ، وبينه حق البيان للمتمسكين أجلّ من العارف الجامع لحقائق المعارف سيدي عمر بن الفارض اعاد الله علينا من مدده حيث يقول:

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهواً قضيت بردّتي

فان الخطور مجرد جواز الميل على القوى من غير أن يتمسك منه بشيء ، هذا عند العقلاء قسريّ لعدم احتياجه الى مقدمـــات والارادة مجرّد الميل والخاطر باب الحدس والسهو استيلاء الطبيعة الثانية على المزاج البشري ، وهو صفة للخطور قسرية أيضاً، ومن ثم لم يحكم الشرع مع غاية شرفه واحتياطه في الاصلاح على الخارج به بشيء رحمة وتخفيفاً ، فقد بان أن الأستـاذ يقول ان شرح المحبة مبني على المراقبة المخالطة للقوى العقلية مخالطة نزل السهو فيها منزلة العمد فكأن المحبوب قو قوى المحب التي بها يعقل كما أشار اليه أيضاً في الدلالة على غاية المرتبة بقوله

فلم تهوني ما لم تكن فيَّ فانيا ولم تفن ما لم تجتلي فيك صورتي

وهذا القسم هو الباب السادس من الكتاب وهو أصناف

الصنف الاول في ذكر من حمله هواه على أذية من يهواه
وهؤلاء اما نساء أو رجال وكل من القسمين
اما بالغ مناه أو مكفوف اذاه

فمن الأول ما حكى عن مرثد انه شغف بصحبة عمرو بن قمئة حتى صار يأكل معه ومع زوجته ، فعلقته المرأة فأرسلت اليه على حين عقله من مرثد تقول ان عمك يدعوك ، فجاء فلم يجده فقامت اليه فراودته عن نفسه فأبى ، فقالت لئن لم تفعل ما آمرك لأوذينك

فقال ان الأذى أن أفعل ما تحبين ، وخرج فأمرت بجفنة فوضعت على موضع قدمه وكان ملتصق الأصابع. فلما جاء مرثد أخبرته ان رجلاً من أقرب ما يكون اليك ساومني نفسي ، فامتنعت فجهد في أن تخبره ، فأبت وقالت أنا لا أصرّح باسمه ولكن هذا قدمه فعرفه وهجره فانشد في ذلك

لعمرك ما نفسي بجدّ رشيدة تؤامرني شر الأصرم مرثدا
عظيم رماد القدر لا متعبس ولا مؤيس منها اذا هو أخمدا
فقد ظهرت منه بوائق جمة وأفرع من لومي مراراً وأصعدا
على غير ذنب أن أكون جنيته سوى قول باغ جاهد فتجهدا

وقيل انه حلف ليضربنه بالسيف ، فهرب الى الحيرة وأرسل بهذين البيتين

رمتني بنات الدهر من حيث لا أدري فما بال من يرمي وليس برامي
فلو أنها نبل إذ الا تقيتها ولكنما أرمي بغير سهام

انتهى ما ذكره ، وفي النزهة انّ مرثداً أتى يوماً من سفره في الليل ، وكان الظلام شديداً فسمع زوجته وهي لا تشعر به تقول

لعمرك ان القلب شط به النوى ولم تسعف الأيام للمدنف الصبّ
بليت بمن لم يدر حسالي بحبه ألا ان عمراً في الهوى قاسي القلب

فعلم انها مولعة به وان ذلك كان كيداً منها فقتلها وأرسل اليه فاصلح أمره معه فعلى هذا تكون هذه الحكاية من الرابع

* *

(ومن الثاني) قصة سوسن المشهورة وللناس فيها كلام كثير غير انّ المصنف رحمه الله لشدة معرفته باختلاف الألسن واللغات ، نقلها من نص الله عز وجل عليها في التوراة

فذكر أن في سفر دانيال عليه السلام ، من هذه القصة ما ترجمته لما كان في السنة الثالثة من ملك يواكيم ملك يهوذا قدم بختنصر ملك بابل الى أورشليم يعني بيت المقدس بالعربية وأسلمها الرب في يده ثم نزل ببيت صنمه بشنغار وهو موضع مشهور ببيت المقدس .

ولما استقرت آراؤهم على الشريعة الناموسية الموسوية حكم شخصين قاضيين عرفا بالعبادة والزهد في بني اسرائيل ، فكانا يحكمان في الشعب ويأويان الى بيت يواكيم

وكان له زوجة يقال لها سوسن، وكانت في أرفع رتبة من الجمال والحسن وبهجة المنظر والصلاح لأن والديها كانا صديقين في بني إسرائيل ، وكانت في كل يوم تنزل الى بستانها تمشي للنزهة ورآها القاضيان فوقعت منهما واشتغلا بها عن النظر في الحكومات ، وكتم كل عن الآخر حتى إذا كان منتصف

النهار من يوم شديد الحر ، قال كل منهما لصاحبه قد اشتد الحر فليذهب كل منا فيستريح .

وخرجا مضمرين العود رجاء الظفر بالجارية ، فلمـا التقيا فحص كل عن عود الآخر فأظهرا ما عندهما من حبها واتفقا عليها وانها دخلت مع جاريتين البستان ، فعزمت على الحموم وقـــد استخفيا ، فأرسلت الجاريتين ليأتياها بزيت وغسول ، فظهرا وأغلقا الأبواب وقالا لها لئن لا تجيبينا ، والا قلنا انا وجدنا معك شاباً ، ومن أجل ذلك أرسلت الجاريتين وأنت تعلمين مكاننا من بني إسرائيل .

قالت سوسن والله لا أغضب الرب أبداً وصرخت ، فصرخ القاضيان ومضى أحدهما ففتح الباب ، وجاء العبيد فاخبراهم بالقصة ، فبقوا مبهوتين لأنهم لا يعلمون عليها سوء ، ثم أتى يواكيم فاعلموه بالأمر وأنهما لم يقدرا على مسك الشاب ، فجمع الشعب وتقدم الشيخان فكشفا عن سوسن وقالا نشهد على هذه انها دخلت البستان ومعها جاريتـان فارسلتهما وأغلقت الأبواب ، فجاء حدث من وراء شجرة فضاجعها ، فحين رأينا المعصية صحنا فانفلت الشاب .

فبكت سوسن ورفعت طرفها الى السماء ، وقالت يا الله يا دائم يا عـالم الخفيات أنت تعلم أنهما كذبا عليّ ثم أقاماها للقتل وكان دانيال عليه السلام شاباً عمره ثلاث عشرة سنة ، فجـاء وصاح عليهم ان قفوا فانهـا بريئة مما رميت به ، ثم أمر بالتفريق بينهما ، فقال لأحدهما من تحت أي شجرة جاء الحدث ، فقال من تحت شجرة بطم فقال كذبت وهذا ملاك الله شاهد عليك بالكذب . ثم أخره وقدم الآخر وقال له من تحت أي شجرة جاء الحدث ، فقال من تحت شجرة زيت فقال كذبت وأقامهما فنشرا ونزلت نار فأحرقتهما وحفظ الله الدم الزكي وعظم أمر دانيال عليه السلام .

* *

(ومن الرابع ما حكى) في نديم المسامرة انه كان بالبصرة رجل اسمه عباد ، وكان يدعى بالخنث لما كان يظهر من التزيي بزي النساء ، فاجتمع ليلة مع قوم ، وتذاكروا الشجاعة .

فقالوا له هازئين به هل تقدر أن تذهب فتدق هذا الوتد بالضريح الفلاني وكان معروفاً بالوحشة بعيداً عن العمارة . فمضى حتى صار فيه فحين شرع يدق الوتد سمع صرير سلسلة تدنو كلما دق حتى صار عنده ، فاذا هو قرد قد ذهب من صاحبه ، فأخذه وهمّ ليخرج إذ سمع امرأة تخاطب رجلاً فتقول ما الذي صنعت حتى تقتلني ، فيقول أقتلك وأموت خير من ان تصيري الى زوجك وأموت غماً

فخرج عباد حينئذ عليها وصرخ على القرد فتعلق بالرجل فظنها جناً ، فرمى السلاح فأخذه عباد وفك المرأة واستخبرها ، فأخبرته بأبيها فعرفه وأن هذ ابن عمها كان يهواها فخطبها الى أبيها فأبى وهمّ بتزويجها من غيره وأنها خرجت لمفترج فكبسها هذا مع جماعة فتفرق النساء اللواتي كنّ معها وأخذها هو فصيرها الى هذه الحالة ، فأخذها عباد إلى أهلها وأخبر أصحابه بالقصة فكذبوه فأراهم ذلك فصار يعدّ من الشجعان

* *

(ومن الثالث) ما حكى عن حبوبة بن حباب الطابخي انه حين قتل أبوه رجلاً من كلب من فخذوبرة ووجبت عليه الدية رهنه صغيراً مع أمه ، وخرج ليجمعها فمات فأقاما عندهم وانه كان شاباً حسناً جميلاً فولع به النساء حتى شاع أمره فطردوه فوقع بعدما قتل أخا امرأة اشتهر بها الى بلقين ، فأجاروه ففعل عندهم ما فعل في كلب واشتدوا عليه فجاء الى أمه ليلاً فأخفته وأخبرت ظئراً لها ، فقالت ادفعه إليّ فأخذته فجعلته في متاع لها خارج البيت ومرّ عدي رئيس بني كلب فقال ما هذا قالت متاعي وأنا على

سفر وأريد أن تجيره ، فقال قد أجرته وحمله الى بيته وقد أنكره ففتش فرآه فقال لا حياك الله ، وخرج فأقام عنده زماناً فعلق ابنته وطال بينهما الأمر فأنشد فيها

ما زلت أطوي الحي أسمع حسهم حتى وقفت على ربيبة هودج
فوضعت كفي عند مقطع خصرها فتنفست صعداً ولما تنهج
وتناولت رأسي لتعلم مسه بمخضب الأطراف غير مشنج
قالت وعيش أبي وحرمة والدي لأنبهنّ الحيّ ان لم تخرج
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت فعلمت انّ يمينها لم تحرج

وبلغ عدي بن أوس ذلك فقتله

* *

(ومن الثالث) قصة وضاح اليمن المشهورة واسمه اسمعيل أو عبد الله أو عبد الرحمن ابن كلال وكان من أمره أنه كان يبرقع وجهه خوف الفتنة بحسنه، وانه نشأ مع أم البنين بنت عبد العزيز صغيرين فكان لا يصبر أحدهما عن الآخر

فلما بلغت حجبت فازداد شوقهما ، فحين أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك وقيل ليزيد والصحيح الأول لما سبق في قصة حبابة ، وذكر زوجات يزيد حجبها فازداد بوضاح الأمر حتى نحل ، فخرج الى الشام فكان يطوف بالقصر الى أن ظفر بجارية لأم البنين فأخبرها بمكانه وانه ابن عم مولاتها فأخبرتها فادخلته في صندوق ، فكانت اذا أمنت تمكث معه وإذا خافت أدخلته الصندوق وجيء للوليد بجوهر نفيس فأمر خصياً بحمله اليها فحين دخل الخصي وجد وضاحاً فادخلته الصندوق واستوهبها الخادم لؤلؤة فأبت فمضى وأخبر الوليد

فدخل عليها فمازحها واستوهب الصندوق فأبت فراجعها فوهبته إياه ، واحتمله الى مجلسه فلما جاء الليل أمر غلمانه فحفروا الى الماء ثم قال مشافها للصندوق خفية قد بلغنا عنك أمر فان كان صحيحاً فقد كفأناك ، وإلا فما علينا في دفن الخشب ورماه ورمي الخصي حياً ، وقيل ضرب عنقه حين أخبره وأهال التراب ولم يبين لها غيظاً ، وقيل فارقها وانها كانت تأتي المكان فتبكي فوجدت ميتة فيه

وقيل انه لم يقتله بذلك وإنما شبب بها حين رآها في طريق الحاج فبلغه تشبيبه بها فاستشار فيما يفعل به فقيل له اكرمه كما فعل معاوية بأبي دهبل حين شبب بأخته فأبى الا قتله

* *

(ومنه أيضاً) سحيم وهو حبشي نشأ في بني الحسحاس ، وكان أعجمياً غليظاً ثم تخرج في الشعر وشاع ذكره حتى اشتري لعثمان فقال لا حاجة لي بمن اذا شبع شبب بالنساء ، واذا جاع هجا فردّه فاشتراه رجل منهم اسمه أبو معبد فعلق ابنته وانهم خرجوا الى سفر فتشوّق أبو معبد الى ابنته فكان يتمثل بهذا البيت :

عميرة ودع ان تجهزت غاديا كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

فأكمل العبد القصيدة بما يزيد على مائة بيت فمنها في التشبيب بابنة مولاه :

وبتنا وسادانا الى علجانة وحقف تهاداه الرياح تهاديا
توسدني كفاً وتثني بمعصم عليّ وتحوي رجلها من ورائيا
وهبت شمال آخر الليل قرة ولا ثوب الا درعها وردائيا
فما زال ثوبي طيباً من نسيمها الى الحول حتى أنهج الثوب باليا

فذهب جندل به ليبيعه فأنشد

وما كنت أخشى جندلاً ان يبيعني بشيء ولو أمست أنامله صفرا
أخوكم ومولى مالكم وربيبكم ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا
أشوقاً ولما يمض بي غير ليـلة فكيف اذا سار المطي بنا عشرا

فرقّ له فردّه ولامه قومه وأرادوا قتل العبد فضنّ به ثم رفعه الحاكم فعزره ثمانين وانصرف به فأنشد

أبا معبد بئس العزاضـة للفتى ثمانون لم تترك لحلفكم جـلدا
كسوني غداة البين سمرا كأنهـا شياطين لم تترك قراراً ولا عهدا
فما السجن الا ظـلّ بيت دخلته وما السوط الا جلدة خالطت جلدا
أبا معبد والله ما حلّ حبهـا ثمانون سوطاً بل يزيد بها وجدا
فان يقتلوني يقتلوا ابن وليـدة وأن يتركوني يتركوا اسدا وردا
غداً يكثر الباكون منا ومنكم وتزداد داري من دياركم بعدا

فلما علم مولاه اصراره أحرقه

* *

(ومن الأول) المتجردة وهي امرأة المنذر بن ماء السماء ، وكانت من أعظم نساء العرب جمالاً ، فلما مات عنها أخذها ولده النعمان فكان يجلسها مع نديميه النابغة والمنخل ، فشغفت بالمنخل وامتزجا فأمر النعمان يوماً النابغة أن يصفها ، فقال:

واذا طعنت طعنت في مستهدف رابي المجسة بالعبير مقرمـد
واذا نزعت نزعت عن مستحصف نزع الحزّور بالرشاء المحصـد

فقال المنخل هذا وصف معاين ، وحرض النعمان على قتله فهرب وكان عفيفاً ، فلما خرج النعمان الى الصيد رجع بغتة فوجد المتجردة مع المنخل قد ألبسته أحد خلخاليها وشدت رجله الى رجلها وله فيها

ان كنت عاذلتي فسيري نحو العراق ولا تحوري
ولقد دخلت على الفتـا ة الخدر في اليوم المطير
والكاعب الحسنـاء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتهـا فتـدافعت مشي القطاة الى الغدير
ولثمتهـا فتنفسـت كتنفس الظبي البـهير
فرنت وقالت هل بجسـ مك منخل من فتور
ما شف جسمي غير حبـك فاهتـدى وعني وسير
وأحبهـا وتحبـني ويحب ناقتهـا بعـيري
ولقد شربت من المـدا مة بالصغير وبالكبير
فاذا سكرت فانـني رب الخورنـق والدير
واذا صحـوت فانني رب الشويهة والبعير
يا هند هل مـن ناهل يا هند للعـاني الأسير

+ +

(ومن الرابع) ما يحكى عن سليمان بن عبد الملك ، وكان شديد الغيرة انه خرج لغرض ومعه سنان وكان فارساً معروفاً بالشجاعة والمحبة لسليمان ، وكان حسن الغناء وكان يتركه كثيراً لمعرفته بغيرة سليمان ، فزاره ضيوف فأكرمهم فقالوا يا سنان لم تكرمنا ما لم تسمعنا الغناء وكان قد أخذت منه الخمر فأنشد

محجوبة سمعت صوتي فأرقها في آخر الليل لما بلها السحر

تثني على فخذها مثنى معصفرة والحلى منها على لباتهـــا حصر

لم يحجب الصوت احراس ولا غلق فدمعها الطروق الصوت منحدر

في ليلة النصف ما يدري مضاجعها أوجههـــا عنده أبهى أم القمر

لو خليت لمشت نحوي على قدم يكاد من رقـــة المشي ينفطـــر

فلما سمع سليمان الصوت خرج فزعاً يتفهمه ، وكانت عنده جارية اسمهـا عوان ، وكان يحبها حباً شديداً وهي مشهورة بالجمال . فجاء اليها فرآها على صفة الأبيات ، وكانت يقظانه ، فلمـــا فطنت به قالت يا أمير المؤمنين قاتل الله الشاعر حيث قال

الا رب صوت جاءني من مشوّه قبيح المحيا واضع الأب والجدّ

قصير نجـــاد السيف جعد بنانه الى أمـــة يدعى معاً والى عبد

فسكن ما به وقال : قد راعك صوته ، قالت صادف مني يا أمير المؤمنين فحلف ليقتلنه فأرسلت عبداً يحذره ، وقالت ان لحقته قبل فلك ديته وأنت حر ، فسبقت رسل سليمان فجاؤا به فنظر اليه ملياً ، ثم قال أنت المجتريء ويلك ؟ فقال أنا فارسك فاستبقني ، فقال لا أقتلك ولكن أزيل تفحلك ، وأمر به فخصي والقي في دير الخصيان

قالوا وفي ذلك الوقت بلغ سليمان كثرة المخنثين المغنين بالمدينة ، فكتب الى عامله ان أحصهم يعني أضبطهم لننظر في أمرهم فسبقت نقطة على الحاء فأمر العامل بخصيهم ، فقال كل عند خصيه كلمة سارت مثلاً ، فقال طوبس ما هذا الاختتان أعيد علينا وقال دلال بل هو الختان الأكبر ، وقال نسيم السحر بالخصي صرت مخنثاً حقاً وقال نومة الضحى بل صرنا نساء حقاً . وقال ابن الفؤاد استرحنا من حمل ميزاب البول معنا وقال ظل الشجر ما نصنع بسلاح لا يستعمل

ويروى ان الذي سمعه سليمان لم يكن سناناً الكلبي بل كان سميراً الأيلي

وفي الرواية بدل محجوبة وعادة سمعت وبدل قوله في ليـــلة النصف في ليلة البدر وهو اليق في هذا المقام لأن القمر وان لم ينقص ليلة النصف ، فهو في ليلة البدر أبهج ولم يلهج الشعراء إلا به وان سليمان قال حين روجع في خصيه ان الفرس بصهل فتستودق الحجرة ، والفحل يخطر فتضبع الناقة والتيس ينب فتستحرم العنز والرجل يغني فتشبق المرأة

° °°

(ومن الثاني) ما حكي انه كان في بني إسرائيل رجل صالح يعمل بالمسحاة لفقره ، وكان عنده امرأة مفرطة في الجمال ، وكان إذا قدم قامت لخدمته من فرش وتقديم طعام ونحوه وان عجوزاً دخلت عليها فتأملت حسنها وذهبت فوصفتها للملك فعشقها ووعد العجوز بمال كثير على أن تخلصها له ، فقالت لها كيف تذهبين هذا الجمال مع رجل يعمل بالمسحاة ، ولو طاوعتني لزوجتك بالملك وأمرتها أن تعصيه وترجع عن خدمته

فجاء فلم تقم اليه على العادة ، ولم تقدم له شيئاً ، فقال ما هذا يا هناه ؟ قالت هو ما تراه فقال أطلقك ، قالت نعم ففعل وتزوج بها الملك فحين نظر اليها كف ومدّ يده فشلت ، فرفع الأمر الى نبي ذلك الزمان ، فجاءه الوحي ان يعمني ما فعل بصاحب المسحاة وقد ساق هذه الحكاية في النزهة في باب من عشق بالسماع وذكر أن المرأة أيضاً فلجت وأنهـــا ماتت بعـــد سبعة أيام

° °°

(ومنه) الزرقاء جارية ابن رامين كانت من المشاهير بالجمـال والحسن والغناء ، وافتتن بها غالب أهل زمانها ، وكان الناس يقصدونها لسماع صوتها

ويبذلون لها مالاً خطيراً فاشتد ولوع يزيد بن عون الصيرفي بها ، فدخل عليها ومعه لؤلؤتان ، فقال لها قد بذل لي فيها أربعون ألف درهم . فقالت هبها لي . فقال افعل ان شئت . قالت شئت فحلف لا يعطيها لها الا من فمه الى فمها

فغمزت الخادم فخرج ، وكان يزيد واقفاً منكسراً بين يديها ، يعني كاتفاً يديه فجلس مقعياً يعني على رؤوس أصابعه وتقدم اليها فأقبلت لتتناولها فجعل يزوغ بفمه ليستكثر من مقابلتها فانقضت علية فأخذتها وقالت المغلوب في استه عود فقال أما أنا والله لا يزال طيب هذه الرائحة في أنفي وفمي ما حييت أبداً وانها أفضت الى جعفر بن سليمان وأبوه عامل المنصور ، فدخل على ابنه يعتبه على شرائها واشتغاله بها في هذه الأيام

وقد خرج عليهم خارجي فغمز جعفر الخادم فأخرجها اليه فقبلت رأسه واجتلبته فرضي ولم يعتب بعدها وان جعفراً قال للزرقـــاء يوماً هل تمكن أحد من بجيئك يوماً منك بشيء فخشيت أن تكتمه ما عساه أن يكون بلغه فأخبرته بموافقة الصيرفي فاحتال عليه حتى واعترف بما نسب اليه فضربه حتى مـات

٥
٥ ٥

(ومن الثاني) ما حكي انه كان في بني إسرائيل ، رجل اسمه عبود كلف بابنة عمه حتى كان لا يصبر عنها ساعة ، فتزوج بها وأقاما مدة فماتت فاشتد وجده وطار عقله .

فمضى الى المسيح عليه السلام وسأله أن يحييها له ، فقال لا يتيسر الا أن تهبها من عمرك شيئاً ، فقال قد وهبتها نصف عمري ، فأحياها له ومضيا وقد لحق عبوداً تعب شديد فجلسا يستريحان فوضع رأسه على ركبتها فنام ، فمر ملك الناحية فرآها فعلقت بقلبه وهو أيضاً فعرض عليهـــا أن تكون

معه فأجابته فحملها في قبة وانتبه عبود فلم يجد أحداً فقام مرعوباً ، فوجد قوماً من المارة ينعتون حسنها. فسألهم فأخبروه بأنها مع الملك فلحقها وجعل يذكرها بما صنع وهي ساكتة .

فقال لها قد كنت مت وسألت المسيح في احيائك ، ووهبتك نصف عمري على أن تكوني معي ، فحيث لم ترضي فردّي عليّ ما وهبتك ، فقالت قد رددته ، فما خرجت الكلمة حتى ماتت

○
○ ○

(ومن الثالث) ما حكي عن لقمان بن عاد الذي كان يضبط عمره بأن يمسك النسر من حين خروجه من البيضة إلى أن يموت فيؤتي بالآخر كذلك حتى عاش عمر سبعة كل واحد على ما قيل مائة عام انه كان مغرماً بالنساء ومع طول عمره وكثرة تزوجه كان شديد الاحتراس وهنّ يخنه

فتزوج جارية صغيرة وجعلها في بيت نقره في جبل لا يصعد عليه إلا بالسلاسل ، وانّ عمليقاً نظرها فوقعت من قلبه ، فأمر قومه فشدّوه في حزمة سيوف واستودعوها لقمان مدة فوضعها في بيته ، فلما خرج تحرّك العمليق فحلته الجارية فكان يكون معها الى أن يأتي لقمان فتجعله في السيوف حتى انقضت المدة وطلبوا سيوفهم فدفعها ، ثم جلس فنظر الى نخامة في سقف بيته ، فسألها عمن فعلها قالت أنا فأمرها تفعل فقصرت لأن النساء لا يقدرون على رفع النخامة إلى الأعلى لضعف مزاجهنّ

فقال يا ويلتاه والسيوف دهتني ، ثم رمى المرأة من أعلى الجبل ونزل فلقيته ابنته فضربها بحجر فكسر رأسها فضربت العرب أمرها مثلاً لمن يؤخذ بلا ذنب فكان يقول المظلوم منهم ، ما أذنبت إلا ذنب صخر يعني ابنة لقمان

○
○ ○

(ومن الثاني) ما حكي أن رجلا عشق ابنة عمه حتى فني في حبها ، فتزوج بها فكان لا يصبر عنها ساعة ، وكان يجالس الناس فلم يصبر الى انقضاء غرض المجالس حتى يدخل فينظرها ثم يرجع

وان ابن عم لها غيره اكترى داراً الى جانبها وراسلها فوقع حب كل عند الآخر . فنزلت اليه ودخل زوجها فلم يجدها وسأل أمها فقالت تقضين حاجة فطلبها مكان الحاجة فلم يجدها ، واذا هي قد أتت من الدار فعزم عليها ان تصدقه أين كانت .

فقالت أما إذا عزمت عليّ فانني أصدقك ، وحدثته القصة فرمى عنقها وعنق أمها وهرب ، فكان كثيراً مـــا يتمثل عند ذكر ذلك بشعر ديك الجن الآتي .

الصنف الثاني في ذكر من اشتدت به الغيرة الى ان خامرته الحيرة فجرته الى تهمة محبوبه فآثر قتله على نيل مطلوبه

حكي أن عبد الله بن رغبان الكلبي ، وقيل عبد السلام المشهور بديك الجن الحمصي ، كان أديباً حاذقاً ، شاعراً لبيباً كأنمـــا تنطق قريحته بالرقة واللطافة ، والغزل والظرافة إلا أنـــه كان من أعظم الفساق بين المشاق ، وأجمعهم للقساوة والاشتياق

وانه عشق جارية وغلاماً واشتد بهما كلفه وتهالك في حبهما حتى حان تلفه فاشتراهما ، وكان يجعل الجارية عن يمينـــه ، والغلام عن شماله ويجلس للشرب فيلثمها ويشرب من يدها تارة والغلام أخرى، ولم يزل كذلك الى أن أحسن نفسه من شدة الحب انه سيموت ويصيران الى غيره فذبحها وحرقها ، وعمل من رمادهما برنيتين ، فكان يشرب فيهما ويقبلهما عندالاشتياق وأشعاره في ذلك متظافرة ، ومن أحسن ما كان ينشده عند تقبيل برنية الجـــارية قولـــه

يا طلعة طلع الحمام عليهـــا	فجنى لها ثمر الردى بيديهـــا
حكمت سيفي في مجال خناقها	ومدامعي تجري على خديها
روّيت من دمها الثرى ولطالما	روّى الهوى شفتيَّ من شفتيها
فوحق نعليها لما وطىء الحصى	شيء أعز عليَّ من نعليهـــا
ما كان قتليها لأني لم أكن	أبكي اذا سقط الذباب عليها

لكن بخلت على العيون بلحظها   وأنفت من نظر العيون اليها

ومن لطيف شعره أيضاً

جاءت تزور فراشي بعدماقبرت   فظللت الثم نحراً زانه الجيد

وقلت قرة عيني قد بعثت لنا   فكيف ذا وطريق القبر مسدود

قالت هناك عظامي فيه مودعة   تعيث فيها بنات الأرض والدود

وهذه الروح قد جاءتك زائرة   هذي زيارة من في القبر ملحود

وعند تقبيل برنية الغلام

أشفقت ان يرد الزمان بغدره   أو ابتلى بعد الوصال بهجره

قمرقد استخرجته من دجنه   لبليتي وأثرته من خدره

فقتلته وله علي كرامة   فلي الحشا وله الفؤاد بأسره

عهدي به ميتاً كأحسن نائم   والطرف يسفح دمعتي في نحره

لو كان يدري الميت ماذا بعده   بالحي منه بكى له في قبره

غصص يكاد تفيض منها نفسه   ويكاد يخرج قلبه من صدره

ومن لطيف شعره في الدعاء على المحبوب

كيف الدعاء على من جار أو ظلما   ومالكي ظالم في كل ما حكما

لا آخذ الله من أهوى بجفوته   عني ولا اقتص لي منه ولا ظلما

ه
ه ه

(ومما أرخه الفرس) عن أردشير ملك الطوائف ، انه لما حضر ثرثار ، وهي قلعة في برسنجار من مدن الشرق استعصم بها ملكها المعروف

بالساطرون وطال الأمر فصعدت ابنته يوماً على القلعة فرأت اردشير فعلقته فرمت اليه بكتاب في نشابة فيه ان أنت شرطت لي أن تتزوجني عرفتك كيف تأخذ القلعة فراجعها اني شرطت لك ذلك فدلته

فلما أخذ القلعة وتزوج بها وأقاما مدة ضجرت ذات ليلة من شيء يؤلمها في الفراش فكشفوا فاذا هى باقة نرجس فتفكر في رقة جلدها فقال لها ما كان يطعمك أبوك قالت الشهد ومخ العظم والزبد فقال اذا كنت غدرت بمن هو عليك بهذه الصفة من الشفقة والدلال فكيف بي واشتد عنده التخيل والغيرة والحساب فقتلها

* *

وحكى صاحب محاسن البلدان ونزهة الأزمان. ان لكل اقليم اختصاصاً بصفة وتمييزاً بحالة تغلب عليه من قبل مـــا تتغير به الكائنات الفاسدة من العلويات وغيرها

ان مصر وضعت في طالع الجوزاء وهي تعرف عندهم بالتوأمين، والعذراء والمؤنسة ومقتضاها الرقة وسرعة التأليف ، واللطف وعدم الانضباط على حالة وقلة الغيرة وكثرة الغفلة . وقد ظهر أثر ذلك في أفعالهم

قال ألا ترى الى لطف العزيز وتغافله ، وقد رأى زوجته متهيئة للخلوة من غلق الباب ونحوه ولم يكن عـــالماً بعصمة يوسف عليه السلام ليقال انه استند الى ذلك ومع هذا قال للرجل أعرض عن هذا، وقال للمرأة استغفري لذنبك .

وعكس ذلك الاقليم الخامس فقد وضع في طالع المريخ ومقتضاه الغلظة واليبس والقسوة وسفك الدم . ألا ترى ان ملكاً من ملوك الأندلس كان

شديد الكلف بجاريه عنده حتى انه كان لا يستطيع عنهــا صبراً فجلس مع ندمائه يوماً وغنت الجارية فاستعاد منها بعض خواصه صوتاً

فلما انقضى المجلس جيء بطست فوضع بين يدي مستعبد الصوت ، وقال له الملك اكشفه ، فاذا فيه رأس مقطوع ، فقـــال له استعد الصوت منها فقام مريضاً وقد نقل الحكاية أبو حيان في تفسيره ملخصاً .

الصنف الثالث في ذكر من عانده الزمان في مطلوبه حتى شورك في محبوبه فصنع من الحيل ما افضى الى قتله وقتل من شاركه في فعله

حكى لي رجل بحلب سنة ثلاث وستين وتسعمائة ، أن رجلاً موصلياً علق امرأة فزاد بها وجده ، فكان يصبر عنها ساعة وتلطف بها حتى فارقت زوجها وتزوج بها وأقاما مدة وجاء يوماً فوجدها تأكل في طعام لم يكن جاء به هو ، فسألها عنه فقالت من بعض أهلي .

فداخله من ذلك شيء وقوى عنده وتجسس عن أمرها فلم يقع على شيء فمضى وركّب دواء سميا ، ثم جاء به اليها فقال احتفظي بهذا فانه باهي ، فقالت كل منه فأكل ورفعت الباقي ومضى فعالج نفسه من السم وعاودهـــا بعد يوم متمرضاً فوجدها والرجل ميتين فخرج وقد اتفق عليه الغم وباقي السم فمات من ليلته .

× ×

(ورأيت) في الشهنامة الفارسية ما ترجمته أن أبرويز أحد ملوك الفرس تزوج امرأة صغيرة بديعة في الحسن وقد بلغ ثمانين سنة فوجد بها وازداد

عشقه لها وهي تظهر حبه وتخفي بغضه ، وعلقت ولده واشتد ميلها اليه ، وان الملك دخل فرآهما على الحالة المنكرة فكادت نفسه ان تزهق .

وعلم انه ان أظهر انه رآهما ، أمرت المرأة ولده بقتله فرجع وأخذ في تدبير الحيلة فأخذ كتاباً وسم ورقه وجلده بالذهب ورصعه بالجواهر وأودعه صندوقاً وجاء به الى المرأة فقال لها قد علمت ما حوت يدي من الذخائر والنفائس .

غير انه لم يكن يعدل نفسي الا هذا الصندوق فاحتفظى به وعلم انها ستطلع عليه فلما خلت به أخبرته القصة فقال عليّ بالصندوق فأحضرته ففضه فلم يجد الا الكتاب مطبوقاً ، فحاول فتحه فوجد ورقه ممتلقاً بعضه ببعض ، فجعل يبل أصبعه من ريقه ويتصفح الأوراق فلعب السم فيه وعلم بالحيلة ، فأخذ السيف وخرج فضرب أباه فسقطا ميتين .

+ +

(ووقفت) في سنة خمس وستين وتسعمائة بمحروسة دمشق على كتاب لم أعرف مؤلفه ، سماه درر الأفكار في التحريض على تزويج الأبكار ، ذكر فيه ما ملخصه

ان قدماء الفرس كانوا يمنعون التزوج بالثيب لأن حكماءهم يقولون ان المرأة لا تلقي مقاليد طاعتها ولا تصدق لطائف شهوتها ولا تظهر حسن مودتها إلا لمن يفض ختام بكارتها لأنه القاطف لزهر محاسنها والمجتلي على أول مطالع بدر مواطنها فان وقع منها الغيرة ودفنا در لا يعتديه ونزر لا ينبغي التمسك بسببه . ولم تزل هذه الوصايا عندهم محفوظة وبعين الكمال ملحوظة .

وان ملكاً تجاوز الستين ولم يرزق ولداً وكان ذا ملك عظيم ، ومال

ورزق جسيم ، فكان يتأسف على خروج ذلك منه وانتقاله عنه فجمع أهل التنجيم والخطوط وأمرهم بالنظر في ذلك فرأوا انه ان تزوج من الحبشة رزق ولداً يكون له الملك .

فأرسل فجيء له ببنت فاختاروا له طالعاً يبني بها فيه وواقعها ، فحملت وجاءت بذكر صحيح سوى حسن الخلقة ، فأولم الملك أربعين صباحاً ونشأ الولد فحفظ الأدب والحكمة ، وان أباه طلب تزويجه ونادى بعرض البنات عليه ، فوقع اختياره على واحدة ليست بالشريفة المناسبة للملك ، فأرادوا تحويله عنها فأبى فزوجه بها على غضاضة في نفسه

ودخل فوجدها ثيباً ، فكتم أباه ذلك لشدة عشقه وشغفه بها ، وان أمه ودهاة النساء من خدمتها جعلن ينظرن في حب كل منها لصاحبه فيجدنـــه أعظم حباً لهـــا ، فكن يخبرن الملك فيقول ان صدق الحدس فانها ثيب ولا يستطيع أحد أن يكلمه في أمرها .

فلما أفضى الملك اليه بعد والده دخل يوماً فوجدها كالتي فرغت من الجماع وكان له مدة لم يتغشاها ، وكان إذا جامعها تدوم حمرة وجهها مصفرة يوماً وهذه والتي تغيب حال الفعل تسمى الربوخ . فسألها عن العلة ، فأجابت انها تشكو صداعاً وكان عارفاً بالطب فلم يرض بذلك ولكن كره ان يغضبها ، فأمسك وتكرر منه رؤيتها كذلك وكان قد برع في الدهاء فصنع قارورة طيب نفيسة وأتى بها الى بيتها فوضعها في صندوق محرز في خزانة سره ، وأخذ مفتاحها وجعل كلما جامعها أخرج من الطيب ودهن مذاكيره وسرته وأمرها فتدهن فرجها وأخبرها ان ذلك ذخيرة لم يظفر بها سواه وانه يقوي الأعضاء ويعين على الفعل ويحفظ الصحة والصبا والقوة

وخرج عنها فجاء صاحبهـــا فكانت تطيبه من الطيب الى ان علم ثبوته

ذلك عندها فجاء بسم قاتل لوقته فأوهمها الأخذ من الدهن ووضع ذلك فيه وأعلمها انه خارج في شغل يقيم فيه سبعة أيام ، وخرج بعسكره من البلد ، ثم عاد من الغد على غفلة مستخفياً ، فدخل عليها فوجدها والرجل فيها رمق الحياة فرمى عنقها وسأل عن الرجل فاذا هو جارها نشأ معها صغيراً ، فعلم انه الذي أزال بكارتها ، ثم أقام مدة فكان يعاوده من حبها وهو على سرير ملكه ما يذهب عقله فيقوم الى الخلوة ويذكر عشقها للسوقة عليه وإيثارها الارذال فيسكن ما به ويعود فلم يزل أياماً على ذلك حتى غلب الحب على التآسي فمات .

الصنف الرابع في ذكر من عوقب بالفسق
ولم يشتهر بالعشق

قد خلط المصنف هؤلاء بالعشاق وعقد للكل باب عقوبة الفساق، وأهل العشق الصحيح بريؤون من الاثم خارجون عن التسمية بهذا الاسم

فمن أهل هذا الصنف ما حكي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انه آلى أن لا يهدر دم مسلم فأتى يوماً بشاب أمرد مقتول ، فعرف المكان الذي وجد فيه واستكتم من حاء به أمره وقال أرجو أن لا يفوتني ، فلما كان بعد حول رأى طفلاً ملقى موضع الشاب فقال قد أدركت ما أطلب وأخذه فسلمه الى من ترضعه وأجرى عليها ما تحتاج اليه ، وقال لها اذا رأيت امرأة تقبله وتضمه فاعلميني بها

فجاءت جارية يوماً الى المرأة ، فقالت ان سيدتي تطلب الغلام ساعة فمضت به اليها فرشفته وضمته ثم دفعته الى المرأة فجاءت الى عمر فأعلمته بذلك فأخذ سيفه ومضى الى الباب فاذا أبوها شيخ من الأنصار قد كبر فقال أين ابنتك فقال بالبيت فقال كيف سيرتها فقال على أحسن حال من طاعة الله ورسوله والقيام بحقي فقال مكانك حتى أدخل عليها وأعظها فقال افعل فاستأذن عليها فحين صار عندها قال أصدقيني ما فعلت والا رميت عنقك فقالت يا أمير المؤمنين اني والله محدثتك بما كان لا أكذبك شيئاً ، اعلم ان عجوزاً كانت تدخل عليّ من الصغر وتخدمني الى ان صرت كما ترى وأنا أظنها صالحة فقالت لي يوماً قد عزمت على مكة وعندي ابنتي ولا آمن أن أتركها

في البيت فأريد أن أجعلها عندك حتى أعود فقلت كرامة فمضت وأحضرت شخصاً مؤزراً مبرقعاً . فلما كان الليل ونمت آمنة وثب على صدري فنال مني فعمدت الى شفرة بالقرب مني ، ففجرت بها بطنه وجعلناه حيث رأيت

فبعد مدة رأيت اني حامل ، فلما وضعت جعلته مكانه ، فدعـــا لها وجزاها خيراً وأوصى أباها بها

ومنهم اعرابي من أسد

خرج لحاجة فنزل على باهلة عند امرأة ، فقدمت له ما يحتاج اليه فلما لم ير عندها أحد أسامها نفسها ، فقالت على رسلك لأصلح من شأني وغابت ، ثم جاءت وقد أخفت مدية فوثب ليعانقها فضربته بها في نحره فخرّ ميتاً ، وسقطت حين رأت الدم

وجاء بعض أهلها وهي على تلك الحالة ، فأجلسها حتى سكن ما بهـــا وحدثته القصة فشاعت حتى قال فيها شاعرهم قيل جعفر بن أبي علية وقيل صيفي بن سعيد الباهلي وقيل غيرهما هذه الأبيات

لعمري لقد أخفت معاداة ضيفها   وسوت عليـه مهـــده ثم برت
فلما بغاها نفسها غضبت لهـــا   عروق نمت وسط الثرى فاستقرت
وشدت على ذي مدية الكف معصما   وضيناً وعزت نفسها فاستمرت
فأمت بها في نحره وهو يبتغي النكـــاح ومرت في حشاه وجرت
فنحّ كان الغيل في جوف صدره   وأدركها ضعف النساء فخرت

× ×

ويقرب منه ما حكى أن رجلاً أضـــاف بني هذيل ، فحين خرج من

البيت رأى جارية منهم فراودها عن نفسها فتماسفا فأخذت حجرا فضربته به ففضت كبده ، وبلغ عمر فقال هو قتيل لا يودى . وغزا رجل فخرج جاره فرأى في بيته مصباحاً وأنصت فسمع قائلاً يقول

وأشعث غره الاسلام مني خلوت بعرسه ليل التمام
أبيت على ترائبها ويضحى على جرداء لاحقة الحزام
كان مواضع الربلات منها فئام ينتمين الى فئام

فدخل فقتله ، وكان في عهد عمر أيضاً فلما أصبح أعلمه فنشد عمر عن سيرة الرجل فلم يقل الا خيراً ، فقال له أقتله فقال قد فعلت فجزاه خيراً واقتدى به في عدم ايداء الفاسق عبد الملك بن مروان وقد حمل اليه رجل راود امرأة عن نفسها فأغلقت بينها وبينه ، فأدخل رأسه فشدخته وقال لا يودي .

وأما مصعب بن الزبير فأخذ دبة رجل وجده مع زوجته فقتله .

ومنهم ما حكي عن عبد الله بن سيرة

ان امرأة مغيبة يعني غاب عنها زوجها أرسلت اليه ، فلما جاء أخبرته ان رجلا يسومها نفسها ، فقال ابعثي اليه واختفى فلما جاء قام فقتله ، وأمر الجارية فحفرت حفرة والقاه فيها ، وقتل الجارية وجعلها معه وأعطى المرأة سبعين ديناراً ، وقال اشتري بها خادماً وقال

وكل حديث جاوز اثنين شائع

وكان عبد الله هذا من أعظم الناس مروءة حتى قيل ان شامياً اسمه فيروز خرج الى العرب ببيع العطر فوضع يده على عجيزة امرأة فقالت يا عبدالله بن سبرة وبلغه فخرج من أذربيجان في طلب العطار الى الشام حتى قتله:

ومنهم ما حكى عن جويرية بن اسماء عن عمه

قال خرجنا نريد الحاج فبتنا ليلة وبالقرب منا امرأة ، فلما أصبحنا إذا حية قد التفت على عنقها ، فخفنــا من ذلك فلم تزل الى أن دخلنا الحرم فانسابت

فلما قضينا المناسك سمعنا الغريض يقول للمرأة أي شقيـة أين حيتك ؟ فقالت في النار . فقال ستعلمين من في النار ، فلما أردنا الخروج عزمت على صديق لي وبينه وبين الغريض صداقة أن يمضي بنا اليه لنسمع من غنائه. فلما سرنا عنده أكرمنا وسأله صاحبي الغناء فغنى

مرضت فلم تحفل عليّ جنوب　　وأدنيت والممشى الى قريب

فلا يبعد الله الشباب وقولنــا　　إذا ما صبونا صبوة ستتوب

واستعدناه الصوت فغنى قول المجنون عفا الله عن ليلى الأبيات السابقة ، فتخيلنا ان الجبال ترقص طرباً ، ثم استزدناه عند الوداع ، فغنى أبيات أبي الأسود الدؤلي التي أوصى بها ابنته عند الزفاف

خذي العفو مني تستديمي مودتي　　ولا تنطقي في ثورتي حين أغضب

فاني رأيت الحب في الصدر والأذى　　اذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فلما رجعنا اذا بالمرأة وقد جاءت الحية حيث انسابت فانطوت عليها ، وإذا بالوادي كله حيات فأقبلن ينهشنها حتى ماتت . فسألت جاريتها فقالت بغت ثلاث مرات كل مرة تلد ولداً فتحرقه .

القسم السادس

في ذكر من حل عقد المحبة وخالف سنن الأحبة

وهو بالنسبة الى من استدرك الغلط واستقال ما فرط والى من تمادى على نقض العهد واخلاف الوعد ، ينحصر في صنفين أردفهما بثالث من هـــذا الكتاب ، إذا لم يكن مناسبا للباب

قد سبق لك في الخطبة ان المؤلف رحمــه الله قد أكثر في كتــابه من التخليط في تبويبه ، وذكر غير المناسب لمطلوبه ، ولكن لعمر لم يقع له بهذه الأوصاف أكثر من الباب السابع حيث ترجمــه بمن استخفه الملل والضجر لطول الزمان فغدر المحبوب وهجر ، فان الوقف على هذه الترجمة يفهم منها انه يذكر متحابين نكث أحدهما عهد الآخر ، ولم يذكر من ذلك الا قصة التي ترجم لها في البـــاب بمن تاب عن عقوقه ورجع الى ممشوقه فهات في نادي الهوى وسوقه وها أنا أذكر ما وقع لي من ذلك على الشرط المتقدم ان شاء الله تعالى

الصنف الاول في كر من تاب عن الخلاف ورجع الى حسن الائتلاف وكان محبوبه في الوجود فتراضيا على ضم شمل العهود

حكى المسعودي في جزء لطيف سماه اقتــداح زناد الأشواق واسترجاع شوارد المشاق .

ان المجنون أخبر بعد توحشه بزواج ليلى ، فجاء ولبس أثوابه وأقام مدة يظهر انحلال العشق وانه لم يبق له فيها أرب . لما كان قد عاهدها وعاهدته انها تدوم معه على المحبة ولا تنقض لعهد الصحبة .

فبينما هو ليلة نائم إذ رآها باكية فدنا منها فولت وجهها وقالت أي غادر لو ملكت من أمري ما تملكه أنت من أمرك ما فعلت وأيم الله إني لم أكن معه الا كمفترش النار في الهواجر أو متوسد السعدان عاريــاً فانتبه مرعوباً باكياً ، ثم نزع ما عليه وعاد الى التوحش .

× ×

وفيه أيضاً ان قيس بن ذريح حين تزوجت لبنى خرج متصفحاً أحيــاء العرب حتى ظفر بامرأة اسمها لبنى فتزوج بها ، وقال عشق بعشق وامرأة بامرأة وأقام معها ، والصحيح ان ذلك لم يكن باختياره ، وإنمــا وقع بحيلة ولم يقم معها وقد بسطت الخبر في قصته .

× ×

وفيه ونقله المصنف هنا أن عزة أرادت أن تعلم ما لها عند كثير فتنكرت ومرت به متعرضة ، فقام اليها وكلمها فقالت أين حبك لعزة ؟ قال جعلت فداءك لو انها أمة لوهبتها لك . قالت لا تفعل فقد بلغني انها لك مخلصة وفي المحبة صادقة . فقال دعيني منها فهل لك في المخالاة ؟ قالت وكيف تصنع بما قلت فيها ؟ قال أديره فيك ، ثم أنشد يقول

ما وصل عزة الا وصل غانية في وصل غانية عن وصلها خلف

فكشفت عن وجهها فبهت ، الى هنـــا يا فاسق فهلا كنت مثل جميل حيث يقول

لحا الله من لا ينفع الوعد عنده ومن حبله ان مد غير متـــين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم على العهد خـــلاف بكل يمين

ثم لم يزل يعتذر ويتنصل الى أن قبلته ولا مناقضة بين هذ وبين ما تقدم من انه أثبت من جميل لقوله هنيئاً مريئاً البيت وقول جميل رمى الله في عيني بثينة الأبيات لأن تلك أدل على الأشفق وهذه على الأعشق .

× ×

وأما قصة ذي الرمة حيث عـابت عليه المرأة تشبيهه محبوبته بالعنز في الأبيات التي منها

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا أأنت أم أم سالم

فتنصل واعترف حتى وهبها الراحلة فأعادتها وصفحت فليس من هـذه القبيل إذ ليس بنقض عهد وإنما هو غفلة عن مقام الحبيب المحبوب قـاد اليه التوغل في التشبيب ونظيرها ما سبق في قصة كثير من اعتراض العجـــوز عليه في قوله فما روضة بالحزن البيتين ، وأما من رجع نادماً على الهفوات فوجد الحبيب قد فات فجرعته الغصص من ذلك كأس الممات فقليل .

ومنهم ما حكاه في النزهة ونقله هنا مجهولا

ان كعب بن مسعدة الغفاري ، قال خرجت أنا ومالك بن غفيلة العذري نمشي في القمر إذا بنسوة تقول إحداهن أي والله هو ، ثم قربن منا فقالت إحداهن قل لصاحبك :

ليست لياليك في حاج بعائدة كما عهدت ولا أيام ذي سلم

فقالت قــد سمعت فأجب قال قــد انقطعت فأجب أنت فقلت ولم يحضرني غيره

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

وانصرفنا فما استقريت الا وجارية تقول أجب المرأة التى كلمتك ، فلما صرت اليها ، قالت أنت المجيب . قلت نعم ، قالت فما أقصى جوابك قلت لم يحضرني غيره فقالت لم يخلق الله أحب إليّ من الذي كان معك فقلت عليّ ان احضره اليك ، فقالت هيهات فضمنته في الليلة القابلة ورجعت فرأيته في منزلي فأخبرني بالقصة كالمكاشف فقلت له قد ضمنت لها حضورك الليلة القابلة فلما كان الوقت مضيناً فاذا بالمجلس قد طيب وفرش فجلسنا فتعاتبا فأنشدته أبيات أميمة امرأة ابن الدمينة .

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلوم

وأبرزتني للنــاس ثم تركتني لهــا غرضاً أرمي وأنت سليم

فلو كان قول يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلوم

فأجابها

غدرت ولم أغدر وخنت ولم أخن   وفي بعض هـــذا للمحب عزاء
جزيتك ضعف الودّ ثم صرمتني   فحبـــك في قلـــبي الى اذاء

فالتفتت إليّ وقالت ألا تسمع فغمزته فكف ثم أنشدت

تجاهلت وصلي حين لاحت عمايتي   فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصر
ولي من قوى الحبل الذي قدقطعته   نصيب ولي رأي وعقـل موفر
ولكنما آذنت بالصـــرم بغتـة   ولست على مثل الذي جئت أقدر

فأجابها

لقد جعلت نفسي وأنت احترمتها   وكنت أعز الناس عنك نطيب

وفي روضة القلوب بدل هذا البيت

لقد كنت أنهي النفس عنك لعلها   إذا وعدت بالنأي عنك تطيب

وفيها انه قبلها وأنشد :

دمعي عليك من الجفون سكوب   والقلب منـك مروع مكروب
لا شيء في الدنيا ألذ من الهوى   ان لم يخن عهد الحبيب حبيب

فأجابته

خلوتم بانواع السرور هناكم   وأفردتموني للصبابة والحزن
وعذبتموني بالصدود وانـــي   لراض بما ترضونه لي من الغـــبن

والمشهور انهما لم يأتلفا بعد بل حين أنشد لقد كنت أنهي النفس البيت ، قالت له أو كنت تفعل ما فيك خير بعدها وافترقا ، فقالت لكعب ما قلت لك انك لا تفى بضمانك ، ولكن اذا كان السحر فأتني . قال كعب فحئت

فاذا أنا بالصباح فسألت جارية فقالت حين خرجتما جعلت في عنقها انشوطة وخنقت نفسها، فلحقناها فخلصناها فجلست ساعة تحادثنا وتفتكره فتقول انه لقاسي القلب ، ثم شهقت فماتت

وبلغ الشاب فلزم قبرها فجاء به في النوم، فقالت هلا كان هذا قبل، فمات من وقته

قال في النزهة وأصل هـــذه الحكاية ، ان هذه المرأة كانت من عذرة ، واسمها سعدى وكانت وهذا الفتى على أعظم رتبـــة من شدة تعلق كل منهما بصاحبه ، وكان في الحي رجل يحبها وهي لا تحبه ففار منها فوشي به الى أهلها فحجبوها منه فتراسلا بالمحبة وبلغه فأرسل زوجته عن لسانها الى مالك بشتم وقطيعة ولم يعرف أنها زوجة ذلك الرجل ، ولم تدر الزوجة تفصيل الأمر ، وكانت عند مالك أنفة .

فخرج الى مكة ناقضاً للعهد ، فلما بلغ زوجة ذلك الرجل وجه الحيلة ، وما أخفاه زوجها أخبرت سعدى بما تم فخرجت على وجهها الى مكة حتى اجتمعت به وتم بينهما ما سمعته .

الصنف الثاني في ذكر من تمادى على نقض العهد
ومات على اخلاف الوعد

أخرج في اقتداح زناد الأشواق عن الأصمعي ، قال نزلت على رجـل من بني هذيل فأكرمني وأطرفني بلطائف الأخبار ، فكان يوم أقصر ما يكون بالسرور .

فلما كان الليل فرش لي موضعاً لطيفاً موطئاً ونمت وجلس ، فقلت هل بقي لك ارب في السهر ؟ قال لا وعافاك الله ثم ودعني لما بي فحدثت ان له شأناً فأوهمته النوم فقام وفتح مخدعاً فاخرج منه كلبة عليها الحرير وأطواق الذهب . فقدم لها طعاماً وشراباً ، فلمـــا اكتفت غسلها بماء الورد وبخرها بالعود ، ثم مكث ساعة ونزع ما كان عليها ورشها بالرماد والزيت وعاقبها طويلاً وهو مع الفعلتين يبكي بشهيق أخال فيه ان نفسه زهقت ثم أعاد عليها وادخلها المخدع وجلس يبكي وينشد

أأحبابنـــا لو تعلمون بحالنا　　لما كانت اللذات تشغلكم عنا
تشاغلتم عنا بصحبة غـــيرنا　　وأبديتم الهجران ما هكذا كنا
وآليتم ان لا تخونوا عهودنا　　فقد وحياة الحب خنتم وما خنا
غدرتم ولم نغدر وخنتم ولم نخن　　وحلتم عن العهد القديم وما حلنا
وقلتم ولم توفوا بصدق حديثكم　　ونحن على صدق الحديث الذي قلنا

ودام كذلك حتى طلع الفجر ، فجاء ليوقظني فرآني منتبهاً ، فلما ودعته تفرس ان في وجهي كلاماً ، فقال أنشدك الله هل رأيت من حالتي شيئاً أنكرته قلت اللهم نعم، قال أو تحب أن أطرفك به، قلت أي والله فتنفس الصعداء وكفكف دمعه فلم يملك ذلك وخنقته العبرة فأرسلها وأنشد:

أكفكف جفن العين والدمع سافح كشبه غدير فوق خدي جاريا
فيا ليت شعري ذا البكاء الى متى وحتى متى ذا الحزن والجسم باليا

ثم غيض دمعه ، وقال يا أخا العرب كانت لي ابنة عم لا أملك الصبر عنها فتزوجت بها فكانت بي أبر من أمي ، وأقمنا مدة لم آل جهداً في الاتفاق عليها ، فتعاهدنا على عدم التفرق والاستبدال فلما أملقت أنفت مني فأخذت في التحامل والتجنب فقلت لها ماذا تريدين ؟ قالت او فاعل أنت ما أقول ؟ قلت نعم ، قالت تطلقني فخامرني حبها فقلت قد فعلت فاعتزلتني وعاودني القلق فألمت طويلا وجئت وشكوت اليها ذلك وذكرتها العهود والمواثيق ، فطيبت نفسي وحلفت انها لا تتزوج ولا تتزين لغيري .

فقمت وجئتها يوماً فوجدتها على أحسن ما يكون من أنواع الزينة فكلمتها فلم تجب ، فسألت فقيل لي تزوجت فحلفت لها ان لا آخذ بدلها للبسها وزينتها التي عندي الا كلبة وفعلت فأنا الآن أمثلها بتذيين هذه الكلبة وأذكر غدرها فاسلبها وأعاقبها كما رأيت .

قلت فهل وقع بينكما بعد ذلك مراسلات قط . قال نعم قد كلفها الذي تزوج بها شططاً وسلمها نقصاً ، فندمت فراسلتني فلم أجب مع انه لم يكن على البسيطة أعز عليّ منها ولكنها الغيرة تمنعني

قال الأصمعي فلم أر أغرب منها .

# #

وأخرج في النزهة عن الرياشي ، قال اتجر صديق لنا فحمل الصندل الى شهرزور وقد بلغه انه نافق . فلما حل بها صادف كساداً ، فمكث مغموماً فبينا هو كذلك إذ مرت به عجوز فسلمت عليه بلطف وسألته عن حاله ، فشكى اليها ما يجد من الغربة والوحدة وكساد متجره .

فقالت اما الكساد فسيزول ولم تزل الناس على هذا ، واما وحدتك وغربتك فلا أرى لها دواء الا أن تتزوج بمن تحفظك إذا غبت ، وتؤنسك إذا حضرت وتفرج عنك إذا حزنت .

قلت ومن أين لي بما ذكرت ؟ قالت أنا الضامنة لك ما تطلب ابتغاء لوجه الله تعالى ، فشكرت صنيعها وأمرتها أن تفعل . فما مضت عني الا وقد جاءت الدلالون فاشتروا البضاعة بأحسن ربح الى أجل فتوسمت فيها الخير ، وجاءت فقالت قد هيأت لك ما تطلب فقم لتنظرها

فمضينا الى دار لطيفة وقد فرش لي قطيفة بزة ، فجلست وجاءت امرأة تسر القلب وتملأ العين إلا أن عليها آثار الحزن وشعار الفرقة ، فسلمت بحشمة وجلست فقالت العجوز ها هي فتراضينا ودخلت بها ودمت أسبوعاً في أنعم حال غير اني أجدها تقوم من الصباح فتجلس في موضع يشرف على الأشجار وتبكي حتى ترتفع الشمس ، فلم أسألها عن ذلك .

فلما كان يوم وقد أخذها النوم حتى طلعت الشمس ، انتبهت مرعوبة ترتعد ، ثم ذهبت الى المشرف وعادت ومزقت أثوابها وجلست تبكي فلم تلهج يومها كله إلا بهذه الأبيات

أيا عين نوحي بالدموع السواجم على طامس بالشرق خافي المعالم
وسحى دما ان سح دمعك واسعفي حليف الهوى من قبل حمل التمائم

إذا ناحت الورقا على فقدانها ولم تك ذا عقل فما حال عالم
حرام علـيّ النوم إذ فاتني به زمان البكا والنوح قبل الحمائم

فضاق صدري لحالها ، وراجعت نفسي في سؤالها ، ثم غلب علي عدم التصبر بعد أيام وهي تجالسني كالمشغولة وتقوم بما أحتاجه حتى إذا نمت مكثت جالسة حتى يسفر الفجر فتروح الى المكان الذي يشرف على الشجر كعادتها . فقلت يا سيدتي قد ضاق صدري لحالك ، وأنا أعزم عليك الا ما أخبرتني بما أنت فيه.

فقالت أو لا بد ، قلت أي والله . قالت قد كان أبي ذا ثروة وعزة ، وكان لي ابن عم قد كفله أبي صغيراً فنشأت وإياه ليس عند أحدنا أعز من الآخر فزوجني منه ، فأقمنا لا نستطيع صبراً .

وكان في هذا البستان زوج حمام يبيت فيه ويصبح ويغرّد بأنواع التغريد فاذا اختفت واحدة في شجرة دارت الأخرى عليها حتى تكاد أن تموت ، فاذا التقيا تعانقا وغردا .

فلما كان يوم مرّ بها حمام فطارت إحداهما اليه ومضت فلم ترجع فأقامت الأخرى تغرد كل صباح الى ارتفاع الشمس ، ثم تلقي نفسها كالميتة حتى ذهبت نضارتها وذوى ريشها.

فقلت له يوماً لئن فارقتني لأكونن كهذه . فقال أنا لا أفارقك أو أموت فقلت له قد تجد أحسن مني . قال معاذ الله أن يكون في الدنيا مثلك فأردت أن أعرف صدقه ، وكانت لي صديقة قد احتوت على أرفع رتبة من الجمال ، فاستحضرتها وأريته إياها من خلال السجف ، فوقعت بقلبه فراسلها فأجابته فتزوج بها فلم توافقه .

فرجع يطلب مني ما كنت عليه فأبت نفسي أن تطيع كما كانت وتشفع فلم يفد . فقال أطلقك مرة ، قلت نعم ففعل وخرج ، فلم أعرف خبره .

وإنما أخذتك لأنك غريب تفارقني ، فان رضيت هذا الحال والا فشأنك قلت فــلأي شيء هجرك النوم قالت كفارة لنومي عن مناوحة الحمامة وسبقها لي .

الصنف الثالث في ذكر من أشبه العشاق في محبته وشاكلهم في مودته فتعـــاهدا لشدة كلفه بالمحبوب على عدم الفراق فنكث احدهما عهد الاخر بعد التلاق

وهذا هو الذي عقد له المصنف البـــاب ، ووعدنا بزيادته لأن الترجمة له خلاف الصواب . وقصة عاتكة مع عبد الله وان كان لها بهذا الباب اعتلاق الا انها بما مضى الصق .

فمنهم صخر بن عمرو

وكان من أشجع العرب وأكرمهم وأجملهم، وكانت تحبه سلمى بنت عوف بن ربيعة بن حارث الرياحي ، وصخر هـــذا هو أخو الخنساء المشهورة فيه بالشعر .

وكان عاهد سلمى على أن لا تتزوّج بعده وهو كذلك عاهدها ، وكان يقول إذا نظر اليها لا أكره الموت الا أنه يفرق بيني وبين هذه فلما كان اليوم المشهور بيوم الكلاب وهو الذي تحارب فيه بنو عوف وبنو الحرث ، التقى صخر مع ربيعة بن ثورالعوفي الاسدي بعدما غلبت بنو الحرث على بني أسد ونهبتهم فطعن ربيعة صخراً ، وكان رمح صخر قصيراً فأصاب ربيعة في بطنه حلقا من الدرع فمرض صخر سنة بالطعنة ، فكانت أمـــه تلاطفه

وقصرت سلمى في خدمته ، فسمع يوماً امرأة تقول لأمه كيف حال صخر ؟ فقالت نحن بخير ما دمنا نرى وجهه ، وسألت امرأته أخرى فقالت لا حي فيرجى ولا ميت فينعى ، فغم لذلك وأنشد

فأي امرىء ساوى بأم حليلة   فلا عاش الا في عنا وهوان

وحكى في النزهة انه جلس يوماً ليستريح وقد رفع سجف البيت فرأى سلمى واقفة تحادث رجلاً من بني عمها وقد وضع يده على عجيزتها فسمعه يقول لها ايباع هذا الكفل فقالت عن قريب .

فقال صخر لأمه علي بسيفي لأنظر هل صدىء أم لا فأتته به فجرده وهمّ بقتل سلمى ، فلمى دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله فبكى وأنشد:

أهم بأمر الحزم لو استطيعه   وقد حيل بين العير والنزوان

وهذا مثل يضرب للعجز والبيت والذي قبله من قصيدة لصخر وأولها

أرى أم صخر لا تمل عيادتي   وملت سليمى مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة   عليك ومن يغتر بالحدثان
آهم بأمر الحزم لو أستطيعه   وقد حيل بين العير والنزوان
لعمري لقد نبهت من كان نائماً   واسمعت من كانت له أذنان
فلو مت خير من حياة كأنها   محلة يعسوب برأس سنان
فأي امرىء ساوى بأم حليلة   فلا عاش الا في شقي وهوان

ولما اشتد غمه وطال مرضه نتأت قطعة موضع الطعنة ، فقيل له اقطعها فحموا له حديدة فادخلوها فيها فقيل كيف صبرك فانشد

فان تسأليني هل صبرت فانني   صبور على ريب الزمان أريب

ثم مات فتزوجت سلمى بعده ، وقيل سبب موته انه سكر مع بلعاء

بن ربيعة ، وكان الآخر جميلاً عند يهودي فحسدهما على الحسن فسقاهما في الشراب سما والصحيح الأول.

≠

ومن لطيف شعر الخنساء في صخر قولها

قذى بعينك أم بالعين أعوار	أم اقفرت إذ خلت من أهلها الدار
كأن عيني لذكراه إذا خطرت	فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكي لصخر هي العبرا وقد ثكلت	ودونه من جديد الترب أستار
تبكي خناس على صخر وحق لها	إذ رابها الدهر ان الدهر ضرار
وما عجول على بويحنّ له	لها حنينان اعلان وأسرار
ترتع ما غفلت حتى اذا ذكرت	فإنما هي اقبال وادبار
يوماً بأوجع منى حين فارقني	صخر وللدهر أحلاه وأمرار
لا بد من ميتة في صرفها غير	والدهر في صرفه حول وأطوار
يا صخر وراد ماء قد تبادره	أهل الموارد ما في ورده عار
يمشي السبنتي الى هيجاء معضلة	له سلاحان أنياب وأظفار
وأن صخراً لمولانا وسيدنا	وان صخراً إذا يشتو لنحار
وان صخر التأتم الهداة به	كانه علم في رأسه نار
لم تره جارة يمشي بساحتها	لريبة حين يخلي بيته الجار
ولا تراه وما في البيت ياكله	لكنه بارز بالصخر مهمار
طلق اليدين بفعل الخير ذو فخر	ضخم الدسيعة بالخيرات امار

وقالت أيضاً:

ألا يا صخر ان أبكيت عيني   فقد ضحكتني زمناً طويلا
بكيتك في نساء معــولات   وكنت أحق من أبدى العويلا
رفعت بك الخطوب وأنت حي   فمن ذا يرفع الخطب الجليلا
إذا قبح البـكاء على قتيـل   رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وأدركت الخنساء الاسلام ، وحسن اسلامهـا ، فقالت لها عائشة يوماً أتبكين صخراً وهو فى النار ، فقالت هو أشد لجزعي عليه وادعي للبكاء فعد من الأجوبة المسكتة .

ومنهم هدبة بن الخشرم

وكان معروفاً بالشجاعة والنجدة والجلادة والصبر والمروءة ، وله أخ اسمه حوط وأخت اسمها سلمى تزوج بها زيادة بن اليزيد الذبياني، وهو رئيس قومه فراهنه أخو هدبة يوماً على اطلاق جملين يوماً وليلة في القيظ وحملوا الماء ، فاخذت أخت هدبة ماء زوجها الى أخيها فقصرت لذلك ابل زيادة فسبها فغضب حوط فثار بينهما شر

وعلم هدبة فبيت زيادة فقتله ورفع الأمر الى سعيد بن العاص عامل معاوية على المدينة وقد هرب هدبة فحبس عمه ، فجاء وسلم نفسه ومضى أخو زيادة فشكا الى معاوية فارسل الى سعيد أن يقود هدبة ان قامت البينة ، فكره الحكم وأرسلهم الى معاوية فسال هدبة عن الخبر فقال تريده نثراً أو نظماً فقال نظماً فانشد

ألا يا قومي للنوائب والدهر ... وللمرء يردي نفسه وهو لا يدري
وللأرض كم من صالح قد تراكمت ... عليه فوارته بلماعة قفر

الى ان ذكر القصة التي ذكرناها ، وانه قتله . فقال معاوية قد أقررت فهل للمقتول ولد قالوا نعم قال ردوه حتى يبلغ فحبس ثلاث سنين . فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها أرسل الى زوجته ، وكانت من أجمل النساء

وكان بها مغرماً ، فحضرت اليه في طيب وثياب فاخرة ، فحادثها ليلة ، وراودها عن نفسها فاجابت فحين تمكن وسمعت الحديد اضطربت فتنحى عنها وأنشد :

أأدنيتني حتى اذا ما جعلتني لدى الخصر أو أدنى استقلك راجف
رأت ساعدي غول وتحت ثيابه جآجيء يدمي حزها والحراقف

وحين أخرج للقتل مرّ على زوجة مالك بن عوف ، فقالت في سبيل الله شبابك وصبرك وشعرك فانشد ارتجالاً

تعجب حي من أسير مكبل صليب العصا باق على الرسفان
فلا تعجبي مني حليلة مالك كذلك ياتي الدهر بالحدثان

ونظر الى زوجته فجزع وأنشد

أقلي عليّ اللوم يا أم بو زعا ولا تجزعي مما أصاب فاوجعا
ولا تنكحي ان فرق الدهر بيننا اغم القفا والوجه أليس بانزعا
كليلا سوى ما كان من حد ضرسه لدى الزاد مبطان العشيات أروعا
ضر وبا بلحييه على عظم زوره اذا الناس هشوا للفعال مقنما
وتحلى بذي أكرومة وحمية وصبراً إذا ما الدهر عض فاسرعا
وكوني حبيباً او لا روع جاهد إذا ضنّ أعشاش الرجال تبرعا

وجعل الناس يستخبرون خبره وهو يجيب كلا عن سؤاله وينشد الأشعار وهم يتعجبون ، فقال له عبد الرحمن بن حسان أتزوج هذه بعدك يريد زوجته فقال ان كنت بالشروط التي ذكرتها لها وأنشد اقلى على اللوم الأبيات ثم نظر الى زوجة مالك وقد قالت له كيف تصبر عن هذه فانشد

وجدت بها ما لم تجد أم واحد ولا وجد حبي بابن أم كلاب

رأته طويل الساعدين شمردلا كما اشترطت من قوة وشباب

فمالت الى شفرة جزار فجدعت بها أنفها وشفتيها ، قال ابن عساكر وأذنيها وأقبلت عليه ، فقالت أهذا حال من تتزوج قال لا الآن طاب الموت ثم التفت الى أبويه فرآهما في أسوأ حال قد تهيآ للحزن فأنشدهما

أبلياني اليوم صبراً منكما ان حزناً ان بدا بادىء شر
لا أراني اليوم الا ميتاً ان بعد الموت دار المستقر
اصبر اليوم فاني صابر كل حي لقضاء وقدر

وأراد سعيد أن يفديه بمائة ناقة حمراء سليمة ، فقال أخو زيادة لو ملأت لي قبتك هذه مالا ما فديته لقوله

لنجدعن بايدينا أنوفكم ويذهب القتل فيما بيننا هدرا

فسلمه اليه ، فلما أراد قتله أرسل الى عائشة لتستغفر له ثم صلى ركعتين وأقبل على الناس وقال لولا ان يقال جزع لا طلتهما.

قال السيوطي في شرح الشواهد ثم قال للقاتل أحد سيفك وثبت جنانك وباعد بين قدميك وأجد الضربة ، ثم قال بلغني ان القتيل يعقل فان كان كذلك فاني قابض رجلي وباسطها ثلاثاً . فلما رمى عنقه فعل ذلك .

وفي شرح الشواهد انه أول قتيل في الاسلام قوداً وخطبت بعد ذلك زوجته على ما بها من التشويه فتزوجت وتزينت ورؤيت ولها ولدان قد قاربا الترعرع .

ومنهم حمزة بن عبد الله بن الزبير

تزوج بفاطمة بنت القاسم بن جعفر بن أبي طالب ، وكانت ذات جمال ففتن بها ، فلما حضرته الوفاة أظهر انه لم يكن جازعاً على شيء غير تزويجها بعده بطلحة بن عمرو ، فحلفت له بصدقة ما لها وعتق رقيقها ان تزوجت ، فلما مات خطبها طلحة فأخبرته ، فقال ان حنثت وفيت عنك بضعف ما عليك . فتزوجته فوفى لها فولدت له ابراهيم وكان أوجه الناس ورمله فزوجها بمائة الف دينار فقيل له أنت اتجر الناس تزوجت فاطمة باربعين الف دينار و كفرت عنها بعشرين فربحت ابراهيم وأربعين الفاً.

ومنهم الحسن بن الحسن

خيره عمه الحسين بين إحدى بنتيه سكينة وفاطمة فاستحيا وكان يحب فاطمة لأنها كانت منقطعة القرين في الجمال فقال الحسين رضي الله عنه قد اخترت لك فاطمة لأنها أشبه الناس بأمي فزوجه بها

فلما حضرته الوفاة جزع جزعاً شديداً فقيل علام هذا ، وإنما تقدم على جدك وآبائك فقال هو كذلك ولكني أجد كرباً غير الموت، ثم قال لبعض أصحابه كأني بعبد الله بن عمرو بن عثمان ، وقد جاء في كبكبة يظهر جزعاً عليّ ، وما هو الا ليخطب فاطمة

فلما سمعت حلفت أن لا تتزوجه فان فعلت لزمها عتق ما تملك ، فما كان

الا ان مات ، فأقبل عبد الله كما قال ، فرأى فاطمة تضرب وجهها فأرسل اليها ان أبقى عليك ، فان لنا فيك رأياً

فلما خطبها ضمن لها التكفير بضعف ما عليها ، وقيل ان أمها التي اجبرتها ان تتزوجه ، بأن وقفت في الشمس وحلفت لا تدخل حتى تجيب .

ومنهم غسان بن جهضم

وكان مفتوناً بابنة عمه أم عقبة لأنهـــا كانت من أجمل النساء وأحياهنّ وأفضلهنّ خصالاً . حضرته الوفاة فجعـــل ينظر اليها ويبكي ، ثم قال لها اني منشدك أبياتاً أسألك فيهنّ عمن تصنعين بعـدي ، وأعزم عليك أن تصدقيني . فقالت قل فوالله لا أكذبك فأنشد

اخبري بالذي تريدين بعدي ما الذي تضمرين يا أم عقبه
تحفظيني من بعد موتي لما قد كان مني من حسن خلق وصحبه
أم تريدين ذا جمال ومـــال وأنا في التراب في سجن غربه

فأجابته

قد سمعنا الذي تقول وما قد خفته يا خليل من أم عقبه
أنا من احفظ النساء وارعـاً هن ما قد أوليت من حسن صحبه
سوف أبكيك ما حييت بشجو ومراث أقولهـــا وبندبه

فقال

أنا والله واثـــق بك لكن ربما خفت منك غدر النساء
بعد موت الأزواج يا خير من عو شر فارعى حقي بحسن وفاء
اني قد رجوت أن تحفظي العهد فكوني ان مت عند رجائي

فلما مات خطبت من كل جانب فقالت

سأحفظ غساناً على بعد داره ... وأرعاه حتى نلتقي يوم نحشر
واني لفي شغل عن الناس كلهم ... فكفوا فما مثلي من الناس يغدر
سأبكي عليه ما حييت بعبرة ... تجول على الخدين مني فتكثر

فلما طالت الأيام قالت من مات فقد فات ، وأجابت الخاطب ، فلما كانت الليلة التي زفت فيها جاءها في النوم فأنشد

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمة ... ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب ... حلفت له يوماً ولم تنجزي وعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه ... كذلك ينسى كل من سكن اللحدا

فانتبهت مرعوبة كأنما كان معها، فقالت النساء لها ما فقالت دهاك ما ترك غسان في الحياة ارباً ولا في السرور رغبة أتاني في المنام فأنشدني هذه الأبيات ثم جعلت ترددها وتبكي فشاغلنها بالحديث ، فلما غفلن أخذت شفرة فذبحت نفسها فتعجبن منها وقد نقل هذا في مجلس هشام حين تذاكروا غدر النساء فقضى منه عجباً

ومثل هذا ما حكاه عن موسى الهادي

انه كان مفتوناً بجارية من جواريه اسمها غادر فرؤي يوماً يبكي ، فقيل علام تبكي يا أمير المؤمنين ؟ فقال كأني بي وقد مت واخذ أخي هرون الخلافة ، فتزوج بغادر فقيل له حاشاك من هذا الخاطر . فزاد في البكاء وبلغ هرون فحضر وحلف له بالطلاق انه لا يتزوج بها وحلفت هي أيضاً

فلم يمض شهر حتى مـــات وأفضت الخلافة الى الرشيد فكفر عنه وعنها ، وتزوجها فلما كان ذات ليلة انتبهت من منامهـــا مرعوبة وذكرت انه أتاها فعاتبها وأنشدها :

أخلفت عهدي بعدما جاورت سكان المقابر
ونكحت غادرة أخي صدق الذي سماك غادر
لا يهنـــك الالف الجـديد ولا تدر عنـك الدوائر
ولحقت بي قبل الصباح وصرت حيث غدوت صائر

فقال لها الرشيد لا بأس عليك ، إنما هو أضغاث أحلام ، وجعل يغمزها وهي تضطرب في يده حتى ماتت

تم طبع الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني وأوله

الباب الثالث في كر عشاق الغلمان الخ

الناشيء

